براعة الاستهلال

في

فواتح سور القرآن الكريم

تأليف

د/ زكي صبري محمد عبد الله

الأستاذ المساعد بقسم التفسير وعلوم القرآن الكريم

بجامعة الأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا. والصلاة والسلام على سيدنا محمد بن عبد الله -ﷺ- الذي خصه الله بجوامع الكلم، وآتاه الحكمة وفصل الخطاب، وعلى آله وصحابته، ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين.

أما بعد

فمن أعظم النعم التي تستوجب الشكر نعمة العيش في رحاب القرآن الكريم قراءة ودراسة وتطبيقا ، أسأل الله أن يجعل كل ذلك فينا وأن يرزقنا الإخلاص في كل أعمالنا.

مما تعلمناه من مشايخنا وعلمائنا بارك الله في أعمارهم وغفر لمن قضى منهم أن من أبرز وجوه إعجاز القرآن: أسلوبه وبلاغته التي أبهرت سامعيه في كل عصر ومصر ولا تزال وستظل والتاريخ يشهد أنه قد (مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا أدوار مختلفة بين علو ونزول، واتساع وانقباض، وحركة وجمود، وحضارة وبداوة، والقرآن في كل هذه الأدوار واقف في عليائه يطل على الجميع من سمائه، وهو يشع نورا وهداية، ويفيض عذوبة وجلالة، ويسيل رقة وجزالة، ويرف جدة وطلاوة، ولا يزال كما كان غضا طريا، يحمل راية الإعجاز، ويتحدى أمم العالم في يقين وثقة، قائلا في صراحة الحق وقوته وسلطان الإعجاز وصولته: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾) [1]

وبدهي أن القرآن كله على درجة واحدة من البلاغة والفصاحة ، ودراسته واستخراج ما فيه من درر وحكم، تشبع العقول والقلوب والأرواح، وتزيد إيمان المؤمنين بخالقهم سبحانه ﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴾ [2]

وفواتح سور القرآن في ذاتها معجزة عالية تستوقف القاريء ، وتنوعها أيضا فيه من الأسرار ما دفع العلماء أن يدرسوها .

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن (٢ / ٣٣٢-٣٣٣) والآية:٨٨ من سورة الإسراء.

(٢) سورة التوبة:١٢٤.

وقد تتبعت ما كتبه العلماء في أسرار الفواتح فوجدت بعضهم أشار إشارات يسيرة إلى هذا الأمر، وبعضهم استفرغ جهده في الحديث عن فواتح القصائد ولم يعط فواتح سور القرآن ما ينبغي أن يكون ، فعقدت العزم مستعينا بالله تعالى على دراسة هذا الموضوع وتتبع ما قاله المفسرون فيه ، واتبعت تقسيم السيوطي رحمه الله تعالى في كتابه "الإتقان في علوم القرآن" ، وقمت بدراسة كل قسم ووقفت عند كل سورة متتبعا ما ذكره العلماء فيها من أغراض كانت نتيجة طبيعية لافتتاح السورة بما افتتحت به.

ووثقت كلام العلماء من مظانه، وبينت ما قد يكون غريبا من كلمات، وخرجت الأحاديث النبوية من مظانها الأصيلة ، وتوخيت يسر العبارة وسهولتها طارحا التكلف جانبا إذ الغرض الأسمى والهدف الأعلى الوقوف على الحقيقة ما أمكن ، وأثناء الدراسة تبين أن الشيخ العلامة الطاهر ابن عاشور قد أفاض في حديثه عن هذا الأمر في بداية كل سورة فهو في هذا الباب مجتهد وله بصمات لا تُنكر ، وأما ما يُؤخذ عليه من تساهله في إطلاق المصطلحات البلاغية فقد تعاملت معها بحذر مستعينا بعد الله تعالى بأهل الاختصاص في هذا الأمر .

وقمت بتعريف موجز لكل نوع من أنواع الافتتاح في أول كل مطلب.

وقد تكون البحث من مقدمة وتمهيد وعشرة مطالب وخاتمة وفهارس .

تحدثت في المقدمة عن الموضوع ومنهجي فيه، وفي التمهيد حديث عن براعة الاستهلال وبيان موقف علماء البلاغة والأدب منه وأهميته في دراسة القرآن الكريم وغيره من كلام البشر.

والمطلب الأول السور المفتتحة بـ: الثناء عليه تعالى.

والمطلب الثاني: السور المفتتحة بحروف التهجي .

والمطلب الثالث: السور المفتتحة بالنداء.

المطلب الرابع: السور المفتتحة بالجمل الخبرية.

المطلب الخامس: السور المفتتحة بالقسم.

المطلب السادس: السور المفتتحة بالشرط.

المطلب السَّابِعُ: السور المفتتحة بالْأَمْر.

المطلب الثَّامِنُ: السور المفتتحة بالِاسْتِفْهَام .

المطلب التاسع: السور المفتتحة بالدُّعَاء.

المطلب العاشر: السور المفتتحة بالتعليل.

ثم الخاتمة والفهارس.

التمهيد

براعة الاستهلال وأهمية دراستها:

حظيت بدايات السور القرآنية بالبراعة في بدايتها ، وكل القرآن مُيّز بالبلاغة والفصاحة، وهذا وجه من وجوه إعجازه، وإن كان أعلاها كما يذكر الكثير من العلماء.

وبراعة الاستهلال مما تميز القرآن وتستدعي النظر فيه ، وسمي هذا النوع بهذا الاسم (لأن المتكلم يفهم غرضه من كلامه عند ابتداء رفع صوته به.) (١)

ونقل الجاحظ عن ابن المقفع قوله: (ليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك، كما أنّ خير أبيات الشعر البيت الذى إذا سمعت صدره عرفت قافيته) (٢)

وقال الجاحظ: (كأنه يقول فرّق بين صدر خطبة النكاح وخطبة العيد وخطبة الصلح وخطبة التّواهب(٣) ، حتى يكون لكل فنّ من ذلك صدر يدل على عجزه، فإنه لا خير في كلام لا يدلّ على معناك، ولا يشير إلى مغزاك، وإلى العمود الذى إليه قصدت، والغرض الذى إليه نزعت). (٤)

وذكر ابن المعتز في كتابه البديع فنا في محاسن الكلام سماه حسن الابتداءات (٥)

وقال الحموي عن هذه التسمية : (وفي هذه التسمية تنبيه على تحسين المطالع وإن أخل الناظم بهذه الشروط لم يأت بشيء من حسن الابتداء). (٦)

وبراعة الاستهلال ، كما قال التبريزي : (أن يبتديء بما يدل على غرضه). (٧)

(**وهي ضرب من ضروب الصنعة** التي يقدمها أمراء الكلام ونقاد الشعر وجهابذة الألفاظ ، فينبغي للشاعر إذا ابتدأ قصيدة مدحا أو ذما أو فخرا أو وصفا أو غير ذلك من أفانين الشعر ابتدأها بما يدل على غرضه فيها ، كذلك الخطيب إذا ارتجل خطبة، أو البليغ إذا افتتح رسالة فمن سبيله أن يكون ابتداء كلامه دالا على انتهائه وأوله ملخصا بآخره.) (٨)

(وإذا نظرت إلى فواتح السور الفرقانية جملها ومفرداتها رأيت من البلاغة والتفنن في الفصاحة ما لا تقدر العبارة على حصر معناه.) (١)

---

(١) أنوار الربيع في أنواع البديع للمدني ٥٦/١.

(٢) البيان والتبيين للجاحظ ١١٦/١.

(٣) المقصود خطب العطايا يراجع مادة (وهب) في لسان العرب ٨٠٣/١.

(٤) البيان ١١٦/١.

(٥) البديع لابن المعتز صـ٧٦ .

(٦) خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي ١٩/١.

(٧) الوافي في العروض والقوافي للتبريزي صـ٢٨٤.

(٨) قانون البلاغة للبغدادي صـ٤٥٠.

(وفرّع المتأخرون من هذه التسمية براعة الاستهلال، وهو أن يأتى الناظم أو الناثر فى ابتداء كلامه ببيت أو قرينة، تدلّ على مراده فى القصيدة أو الرسالة أو معظم مراده؛ والكاتب أشدّ ضرورة إلى ذلك من غيره ليبتنى كلامه على نسق واحد دلّ عليه من أوّل علم بها مقصده) [٢]

(وأحسن الابتداءات ما ناسب المقصود ، ويسمى براعة الاستهلال) [٣]

وهذا واضح بجلاء في بدايات سور القرآن الكريم.

وقال السيوطي: (ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى براعة الاستهلال وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه ويشير إلى ما سيق الكلام لأجله والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن فإنها مشتملة على جميع مقاصده ، وهذا هو الغاية في براعة الاستهلال، مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة، والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة.) [٤]

وإليك إجمال لما ذكره السيوطي في فواتح السور فقال:

(اعلم أن الله افتتح سور القرآن بعشرة[٥] أنواع من الكلام لا يخرج شيء من السور عنها:

الأول: الثناء عليه تعالى والثناء قسمان: إثبات لصفات المدح ونفي وتنزيه من صفات النقص فالأول التحميد في خمس سور وتبارك في سورتين والثاني التسبيح

في سبع سور

قال الكرماني في متشابه القرآن: التسبيح كلمة استأثر الله بها، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل لأنه الأصل، ثم بالماضي في الحديد والحشر لأنه أسبق الزمانين، ثم

---

(١) تحرير التحبير لابن أبي الإصبع ١٧٢.

(٢) نهاية الأرب في فنون الأدب (٧ / ١٣٣)

(٣) ينظر الإيضاح للخطيب القزويني ٤٣١، والتلخيص في علوم البلاغة لجلال الدين للقزويني ٤٣١، وبغية الإيضاح للصعيدي ٧٠٨/٤.

(٤) ينظر الإتقان في علوم القرآن (٣ / ٣٦٣) ، معترك الأقران في إعجاز القرآن (١ / ٥٨)

(٥) المعلوم أن شين العشرة تفتح إذا كان المعدود مذكرا وتسكن إذا كان المعدود مؤنثا والعلة في ذلك موافقة طبيعة كل معدود فالمذكر دائما في حركة واضطراب والمؤنث في سكون وهدوء وإلا لما قال الله تعالي : (ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) الروم من الآية : ٢١.

بالمضارع في الجمعة والتغابن، ثم بالأمر في الأعلى استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها.

الثاني: حروف التهجي في تسع وعشرين سورة.

الثالث: النداء في عشر سور.

الرابع: الجمل الخبرية في ثلاث وعشرين سورة.

الخامس: القسم في خمس عشرة سورة.

السادس: الشرط في سبع سور.

السابع: الأمر في ست سور.

الثامن: الاستفهام في ست سور.

التاسع: الدعاء في ثلاث سور.

العاشر: التعليل في لإيلاف قريش،

هكذا جمع أبو شامة المقدسي قال: وما ذكرناه في الدعاء يجوز أن يذكر مع الخبر وكذا الثناء كله خبر إلا "سبح" فإنه في قسم الأمر وسبحان يحتمل الأمر الدعاء والخبر ثم نظم ذلك في بيتين فقال:

أثنى على نفسه سبحانه بثبو ت الحمد والسلب لما استفتح السورا

والأمر شرط الندا والتعليل والقسم الد عا حروف التهجي استفهم الخبرا

وقال أهل البيان من البلاغة: حسن الابتداء وهو أن يتأنق في أول الكلام لأنه أول ما يقرع السمع فإن كان محررا أقبل السامع على الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه ولو كان الباقي في نهاية الحسن فينبغي أن يؤتى فيه بأعذب اللفظ وأجزله، وأرقه وأسلسه، وأحسنه نظما وسبكا، وأصحه معنى وأوضحه، وأخلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس أو الذي لا يناسب

قالوا: وقد أتت جميع فواتح السور على أحسن الوجوه، وأبلغها وأكملها، كالتحميدات، وحروف الهجاء، والنداء وغير ذلك.) [1]

المطلب الأول: السور المفتتحة بالثناء علي الله تعالى[1]

---

(١)الإتقان في علوم القرآن (٣ / ٣٦١-٣٦٣) .بتصرف. وينظر في كتب البلاغة استشهادا على ما قال السيوطي : تحرير التحبير في صناعة الشعر والأدب ٤٥٥/١، وبغية الإيضاح ٧١٤/٤.

والثناء قسمان: قسم فيه إثبات لصفات المدح وهو ما اشتمل علي التحميد وإثبات صفات العلو والتعظيم ،ونفي النقص ، والثاني التسبيح.

قال السيوطي: (الأول: الثناء عليه تعالى والثناء قسمان إثبات لصفات المدح ونفي وتنزيه من صفات النقص فالأول التحميد[٢] في خمس سور[٣] وتبارك في سورتين[٤] والثاني التسبيح في سبع سور) [٥]

و(السور المفتتحة بالحمد خمس : سورتان في النصف الأول وهما الأنعام والكهف ، وسورتان في النصف الأخير وهما سورة سبأ وسورة الملائكة ، والخامسة هي فاتحة الكتاب تقرأ مع النصف الأول ومع النصف الثاني الأخير ، والحكمة فيها أن نعم الله مع كثرتها وعدم قدرتنا على إحصائها منحصرة في قسمين : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء ، فإن الله تعالى خلقنا أولاً برحمته ، وخلق لنا ما نقوم به وهذه النعمة توجد مرة أخرى بالإعادة فإنه يخلقنا مرة أخرى ويخلق لنا ما ندوم به فلنا حالتان : الإبداء ، والإعادة ، وفي كل حالة له تعالى نعمتان : نعمة الإيجاد ، ونعمة الإبقاء ، فقال في النصف الأول : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾ [٦] إشارة إلى الشكر على نعمة الإيجاد ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ﴾ [٧]

فأشار إلى الإيجاد الأول ، وقال في السورة الثانية : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴾ [٨] فأشار إلى الشكر على نعمة الإبقاء ، فإن الشرائع بها البقاء،

---

(١)الثناء هو الإتيان بما يشعر التعظيم مطلقا سواء كان باللسان أو بالجنان أو بالأركان وسواء كان في مقابلة شيء أو لا فيشمل الحمد والشكر والمدح كتاب الكليات ـ لأبى البقاء الكفومي ـ (١ / ٤٩٤) تحقيق أ/ عدنان درويش ومحمد المصري ط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.

(٢) التحميد ـ حمدُك الله مرّة بعد مرّة. المخصص ـ لابن سيده ـ (٣ / ٤٢٤) تحقيق أ/ خليل إبراهيم جفال ط: الأولي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.

(٣) سورة الفاتحة المدنية وسورة الأنعام المكية وسورة الكهف المكية وسورة سبأ المكية وسورة فاطر المكية.

(٤) سورة الفرقان المكية وسورة الملك المكية.

(٥) الإتقان في علوم القرآن لجلال الدين السيوطي ٢٨٢/٢. تحقيق أ/ سعيد المندوب ط: دار الفكر لبنان ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(٦) سورة الأنعام من الآية :١.

(٧) سورة الأنعام من الآية :٢.

(٨) سورة الكهف الآية:١.

ولولا شرع تنقاد له الخلق لاتبع كل واحد هواه، ووقعت المنازعات وأدت إلى التقاتل والنفاق، وقال في سورة سبأ : ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ ملكاً وخلقاً إشارة إلى نعمة الإيجاد الثاني بدليل قوله تعالى ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ﴾[١]

أولا: سورة الفاتحة

(هذه السورة وضعت في أول السُّوَر لأنها تنزل منها منزل ديباجة الخطبة أو الكتابِ ، مع ما تضمنته من أصول مقاصد القرآن وذلك شأن الديباجة من براعة الاستهلال) [٢]

و(قوله تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ ، لم يذكر لحمده هنا ظرفا مكانيا ولا زمانيا. وذكر في سورة الروم أن من ظروفه المكانية: السماوات والأرض في قوله: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [٣] ، وذكر في سورة القصص أن من ظروفه الزمانية:الدنيا والآخرة في قوله:﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ﴾ [٤] وقال في أول سورة سبأ: ﴿ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [٥]

والألف واللام في {الْحَمْد} لاستغراق[٦] جميع المحامد. وهو ثناء أثنى به تعالى على نفسه وفي ضمنه أمر عباده أن يثنوا عليه به). [٧]

---

(١) تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني ٢٣٤/٣.ط:دار الكتب العلمية بيروت.

(٢) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٣٥/١ط: دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧م.

(٣) سورة الروم من الآية ١٨

(٤) سورة القصص من الآية : ٧٠.

(٥) سورة سبأ من الآية:١.

(٦)الاستغراق هو التناول على سبيل الشمول لا على سبيل البدل وإلا يلزم أن تكون النكرة في الإثبات كما في النفي مستغرقة وهو جنسي وفردي وعرفي فالجنسي مثل " لا رجل في الدار " والفردي مثل " لا رجل في الدار " بالتنوين فلا ينافي أن يكون فيها اثنان أو ثلاثة والجنسي ينافي ذلك والعرفي هو ما يكون المرجع في شموله وإحاطته إلى حكم العرف مثل " جمع الأمير الصاغة " وإن كان بعض الأفراد في الحقيقة وغير العرفي ما يكون المدلول جميع الأفراد في نفس الأمر واستغراق الجمع كاستغراق المفرد في الشمول لأن استغراق المفرد أشمل على ما المشهور بدليل قوله تعالى { فما لنا من شافعين ولا صديق حميم }الشعراء:١٠٠-١٠١. فإن ما لنا من شافعين يفيد ما أفاده ما لنا من شافع ولو قيل " ما لنا من أصدقاء " يفيد ما أفاده " ما لنا من صديق "كتاب الكليات لأبي البقاء الكفومي (١٤٣/١-١٤٤)

(٧) أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ٥/١. ط: دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.

ونلاحظ بلاغة القرآن في اختيار لفظ الحمد دون المدح ذلك لأن الحمد أخص من المدح وأدل في المقصود هنا

(ولأن المدح قد يحصل للحي ولغيره ، ألا تري أن من رأي لؤلؤة في غاية الحسن أو ياقوتة فإنه يمدحها ويستحيل أن يحمدها .

وأن المدح قد يكون قبل الإحسان وقد يكون بعده ، أما الحمد فإنه لا يكون إلا بعد الإحسان .

أن المدح قد يكون منهيا عنه أما الحمد فإنه مأمور به مطلقا .

أن المدح عبارة عن القول الدال علي كونه مختصا بنوع من أنواع الفضائل وأما الحمد فهو القول الدال علي كونه مختصا بفضيلة معينة وهي فضيلة الإنعام والإحسان فثبت أن المدح أعم من الحمد.

والفرق بين الحمد والشكر

أن الحمد يعم ما إذا وصل ذلك الإنعام إليك أو إلي غيرك أما الشكر فهو مختص بالإنعام الواصل إليك) [1]

(والشأن في الخطاب بأمر مهم لم يسِبق للمخاطب به خطابٌ من نوعه أنْ يُسْتأنَس له قبل إلقاء المقصود وأن يهيَّأَ لتلقيه،وأن يشوق إلى سماع ذلك وتُراضَ نفسه على الاهتمام بالعمل به، ليستعد للتلقي بالتخلي عن كل ما شأنُه أن يكون عائقاً عن الانتفاع بالهدى من عناد ومكابرة أو امتلاء العقل بالأوهام الضالة ، فإن النفس لا تكاد تنتفع بالعِظات والنذُر ، ولا تُشرق فيها الحكمة وصحة النظر ما بقي يخالجها العناد والبهتان،وتخامر رشدها نزغات الشيطان ، فلما أراد الله أن تكون هذه السورة أُولى سور الكتاب المجيد بتوقيف النبي ﷺ نبه الله تعالى قُراء كتابه وفاتحي مصحفه إلى أصول هذه التزكية النفسية بما لقنهم أن يبتدئوا بالمناجاة التي تضمنتها سورة الفاتحة من قوله:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى آخر السورة ، فإنها تضمنت أصولاً عظيمة :

أولها: التخلية عن التعطيل والشرك بما تضمنه ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾.

الثاني: التخلي عن خواطر الاستغناء عنه بالتبرىء من الحول والقوة تجاه عظمته بما تضمنه ﴿ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾

الثالث: الرغبة في التحَلي بالرشد والاهتداء بما تضمنه ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾

الرابع: الرغبة في التحلي بالأسوة الحسنة بما تضمنه﴿ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾:.

---

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١/ ١٧٨-١٧٩.ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.

الخامس: التهمم بالسلامة من الضلال الصريح بما تضمنه ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

السادس: التهمم بسلامة تفكيرهم من الاختلاط بشبهات الباطل المموَّه بصورة الحق وهو المسمى بالضلال لأن الضلال خطأ الطريق المقصود بما تضمنه ﴿وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

وأنت إذا افتقدت أصول نجاح المرشِد في إرشاده والمسترشد في تلقيه على كثرتها وتفاريعها وجدتها عاكفة حول هذه الأركان الستة، فكن في استقصائها لبيباً .

وإن الذي لقن أهل القرآن ما فيه جماع طرائق الرشد بوجه لا يحيط به غير علام الغيوب لم يهمل إرشادهم إلى التحلي بزينة الفضائل، وهي أن يقدروا النعمة حق قدرها بشكر المنعم بها، فأراهم كيف يُتَوِّجُون مناجاتَهم بحمد واهب العقل ومانح التوفيق ، ولذلك كان افتتاح كل كلام مهم بالتحميد سنة الكتاب المجيد . فسورة الفاتحة بما تقرر مُنَزَّلَةٌ من القرآن مَنْزِلَة الديباجة للكتاب أو المقدمة للخطبة ، وهذا الأسلوب له شأن عظيم في صناعة الأدب العربي، وهو أعون للفهم وأدعى للوعي .) [1]

وإذا كان الحمد علي النعم واجبا فأي نعمة أعظم من نعمة هذا الكتاب الذي صدر بهذه السورة العظيمة والتي يقرأ الناس في صلواتهم بين يدي ربهم كل يوم مرات ومرات.

ثانيا: سورة الأنعام

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [2]

(قال العلماء : هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور، وهذا يقتضي إنزالها جملة واحدة لأنها في معنى واحد من الحجة وإن تصرف ذلك بوجوه كثيرة، وعليها بني المتكلمون أصول الدين لأن فيها آيات بينات ترد على القدرية) [3]

(ومناسبة افتتاح هذه السورة لآخر المائدة أنه تعالى لما ذكر ما قالته النصارى في عيسى وأمه من كونهما إلهين من دون الله ، وجرت تلك المحاورة وذكر ثواب ما

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١/ ١٥٢-١٥٣.

(٢) سورة الأنعام:١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ٣٨٣/٦ تحقيق هشام سمير البخاري ط:دار عالم الكتب الرياض السعودية ١٤٢٣هـ٢٠٠٣م،

للصادقين ، وأعقب ذلك بأن له ملك السموات والأرض وما فيهنّ، وأنه قادر على كل شيء ، ذكر بأن الحمد له المستغرق جميع المحامد، فلا يمكن أن يثبت معه شريك في الإلهية فيحمد ، ثم نبه على العلة المقتضية لجميع المحامد والمقتضية ، كون ملك السموات والأرض وما فيهنّ له بوصف خلق السَّمَاوَاتِ والأرض، لأن الموجد للشيء المنفرد باختراعه، له الاستيلاء والسلطنة عليه) (١)

ولا شك أن هذه السورة تحدثت عن نعم كثيرة وآلاء متعددة، كل تلك الآلاء تستوجب الحمد لموجدها تعالي ، كما أن استهلالها بالحمد لخالق السماوات والأرض فيه توجيه للمعرضين إلي النظر في أسرار هذا الكون الناطق بوحدانيته تعالي وفيه بيان لعاقبة المكذبين المعرضين قال عز من قائل :

﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِن بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴾ (٢)

وقال سبحانه: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣) وقال سبحانه :﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ۚ مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴾ (٤) وقال عز من قائل : ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ۚ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (٥) إلي غيرها من الآيات التي تتناسب تماما مع البدء بالحمد لله الذي خلق السماوات والأرض، وجعل فيهما ما يصلح به الكون إذ لا يصلح الحمد إلا لمن أوجد تلك الموجودات علي هذا النسق ، تعالت قدرته وجلت حكمته.

---

(١) تفسير البحر المحيط لأبي حيان ٧٢/٤. ط: دار الكتب العلمية
(٢) سورة الأنعام الآية : ٦.
(٣) سورة الأنعام الآيات : ١١-١٢-١٣-١٤.
(٤) سورة الأنعام : ٣٨.
(٥) سورة الأنعام :٩٥-٩٦.

ثالثا:سورة الكهف

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ﴾(١)

عن افتتاح تلك السور بالحمد قال القاسمي: ذكر العلماء أن كثيرا من السور تفتح وتختم بالحمد إشارة إلي أنه المحمود علي كل حال ، وتعليما للعباد أدب افتتاح كل أمر ذي بال واختتامه، وذلك بالثناء علي الله تبارك وتعالي بنعمه العظمي ومننه الكبرى ، وفي إيثار إنزال التنزيل من بين سائر نعوته العلية ، تنبيه علي أنه أعظم نعمائه، فإنه الهادي إلي ما فيه كمال العباد، والداعي إلي ما به ينتظم صلاح المعاش والمعاد ، ولا شيء في معناه يماثله) (٢)

ولقد تحدثت هذه السورة عن قضايا عديدة من بينها أصحاب الكهف وما وقع لهم ، وهذا حديث عن غيب الماضي الذي لم يكن للرسول ﷺ أن يطلع عليه إلا بما يطلعه ربه عليه ،وقد قال الله عنهم: ﴿ نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴾ (٣) وتحدثت عن البعث والعودة إلي الله تعالي وذكرت أمورا غيبية كثيرة لا يمكن الاطلاع عليها إلا من خلال هذا الكتاب الخالد، قال تعالي في هذه السورة: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَىْءٍ جَدَلًا ﴾ (٤) وأمر الله نبيه ﷺ بتلاوة هذا الكتاب الذي لا يتبدل ولا يتغير فقال في هذه السورة : ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ (٥) ونعي علي الذين ذكروا بآيات ربهم وأعرضوا ووصفهم بأنهم أظلم الخلق فقال فيها أيضا: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًاۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴾ (٦) ومن ثم أعلن الله الحكم الذي يُتلي في أذن الدهر ويُقرأ علي سمع الزمان فقال في ختام تلك

---

(١) سورة الكهف:١.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٤/٧ . تحقيق أ/ محمد باسل عيون السود ط: دار الكتب العلمية بيروت ط: الأولى: ١٤١٨هـ

(٣) سورة الكهف الآية:١٣.

(٤) سورة الكهف الآية: ٥٤.

(٥) سورة الكهف الآية: ٢٧.

(٦) سورة الكهف الآية : ٥٧.

السورة : ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾ (١)

ونستطيع القول بعد هذا إن بداية سورة الكهف مناسب تماما لما تحدثت عنه تلك السورة في جميع جزئياتها فسبحان من هذا كلامه.

رابعا : سورة سبأ.

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴾(٢)

الناظر إلي نظم هذه السورة الكريمة يدرك أنها تتحدث عن موضوعات شتى منها:إنكار المشركين الساعة كما في قوله تعالي : ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (٣)

(والحق أن استبعاد البعث غباء شديد. فما يمنع الخالق أن يعيد الخلق؟ هل عجز عنه أولا حتى يعجز عنه أخيرا؟ ومتى أفلت الناس من أصابع القدرة؟ إن الله ينيمهم ويوقظهم ويجيعهم ويشبعهم كل يوم. ولكن العقل الإنساني قد يعمى عن البدهيات..!! إن البعث حق، ليعرف المختلفون هنا حقيقة ما دار بينهم من خلاف، ويلقى كل امرئ جزاءه .

ولقد كررت السورة شبهة منكري البعث، واستغرابهم لحديث الرسولﷺ عنه ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴾ (٤).

الدلالة على رجل يؤمن بالبعث ويحذر منه مدعاة للعجب! هذا منطق الكفر كما أبانته أوائل السورة، ثم تكرر مرة ثالثة في أواخرها ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٥)

---

(١) سورة الكهف الآية ١٠٩.
(٢) سورة سبأ:الآية:١.
(٣) سورة سبأ من الآية : ٣.
(٤) سورة سبأ الآيتان :٧-٨.
(٥) نحو تفسير موضوعي للشيخ محمد الغزالي ٣٢٥/١-٣٢٦.بتصرف والآية:٤٣ . من سورة سبأ.

كما أن السورة تحدثت عن النبي الملك الذي جمع بين النبوة والملك وهو داود عليه وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام حيث قال الله تعالي : ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ (١)

كما أنها أثبتت جانبا من ملك سليمان عليه وعلي نبينا أفضل الصلاة والسلام في قوله تعالي: ﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴾ (٢)

ولا شك أن تمكين هذين النبيين من تلك النعم إنما بإرادة خالق القوي والقدر، وقد يتسرب إلي نفوس البعض لضعف فيها، أنه لما ورث سليمانُ داودَ ربما قالوا: إن الأمر مبني على الوراثة ، فقطع الله الطريق علي الجميع، وأعلن في بداية السورة أن ملك السماوات والأرض وما فيهما له تعالي وحده لا يشاركه فيه أحد، ولو كان نبيا مرسلا أو ملكا مقربا .

ولقد قررت السورة هذا المعني في آياتها في قوله ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ (٣)

وقد وجه الحقُ رسولَه ﷺ أن يسأل المعرضين، والناس جميعا في صورتهم﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (٤) تقريرا للمعني الذي افتتحت به السورة الكريمة ، ولما تطاول المشركون، وادعوا أنهم أكثرُ أموالا وأولادا، وأنهم بمنأي عن العذاب في قوله:

﴿ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ (٥) رد الله عليهم بعدها مباشرة ليؤكد تمام ملكيته التي لا تُنازَع فقال : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (٦)

---

(١) سورة سبأ الآيتان : ١٠-١١.
(٢) سورة سبأ الآيتان : ١٢-١٣.
(٣) سورة سبأ الآية : ٢٢.
(٤) سورة سبأ الآية: ٢٤.
(٥) سورة سبأ الآية: ٣٥.
(٦) سورة سبأ الآية : ٣٦.

كما أن السورة تحدثت عن قضية بارزة في المجتمعات علي امتداد تاريخها، وهي قضية المستضعفين والمستكبرين التي لا يخلو منها أي عصر من العصور، وهي التي نسميها أحيانا بالتفاوت الطبقي، أو فئة الأقوياء والضعفاء وقد أفرغت السورة مساحة كبيرة للحديث عن هذين الفريقين وفي نهاية الحديث المطول الذي انتهي ببراءة المستكبرين من المستضعفين كما قال تعالي ﴿ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓاْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ (١)

أرأيت لم يتبرأ المستكبرون من المستضعفين وهم الذين من قبل استطالوا علي الناس ببغيهم وبباطلهم؟

إنهم تبرأوا لما رأوا العذاب،والعذاب هنا يظهر قدرة المالك الحقيقي الذي لا يغلبه أحد ولا يعجزه شيء في السماء ولا في الأرض، فناسب أن يكن البدء بالحمد للذي له ما في السماوات .

من ثم يتضح لنا مدي التوافق بين بدء السورة بهذا المطلع وبين جزئياتها .

خامسا: سورة فاطر

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُوْلِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾(٢)

(افتُتِحَت هذه السورة بما يدل على أنه مستحق الحمد على ما أبدع من الكائنات الدالّ إبداعُها على تفرده تعالى بالإلهية .) (٣)

ويذكر الآلوسي سر البدء بالحمد هنا أن تناسب تلك السورة مع سابقتها أدعي للبدء به : (لما ذكر في آخر السورة المتقدمة هلاك المشركين أعداء المؤمنين وإنزالهم منازل العذاب، تعين على المؤمنين حمده تعالى وشكره، كما في قوله تعالى ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٤) حيث قال في سورة سبأ: ﴿ وَحِيلَ

---

(١) سورة سبأ الآيتان ٣٢-٣٣.

(٢) سورة فاطر:١.

(٣) السابق ٢٢/٢٤٧.

(٤) سورة الأنعام:٤٥.

بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾[1]
وينضم إلى ذلك تواخي السورتين في الافتتاح بالحمد وتقاربهما في المقدار وغير ذلك)[2]

(وسورة فاطر آخر السور المبدوءات بحمد الله.

وإسناد الحمد لله من الباقيات الصالحات، وهو شائع فى أثناء السور وخواتيمها.

ومن أولى من الله بالحمد فى الأولى والآخرة؟

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

وسورة فاطر تشبه سورة النحل فى أنها إحصاء للنعم، وبيان فضل الله على خلقه فى طورى الإيجاد والإمداد. وقد بدأت بهذا القانون القاطع " ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم " . والبشر أحوج أهل الأرض إلى معرفة هذا القانون، فهم يحسبون منابع الخيرات تسيل بعيدا عن الله، وهم يتوهمون قوة فى الأصفار التى لاوجود لها، وهم يضطربون يمنة ويسرة بمشاعر رعناء! فما نقول فيمن يخشى حمامة ويجرؤ على الأسد؟! أهذا صاحب عقل؟ ولذلك جاءت الآية عقب هذا القانون ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[3]
والسورة كلها تسير في فلك الحمد لخالق السماوات الأرض فهو صاحب النعم التي لا تعد والمنن التي لا تحد

قال تعالي: ﴿ مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[4] وقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾[5] وقال فيها أيضا : ﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴾[6] ثم قال أيضا ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا

(١) سورة سبأ:٥٤.
(٢) روح المعاني للآلوسي ١٦١/٢٢.
(٣) نحو تفسير موضوعي للشيخ محمد الغزالي ٣٣٦/١.
(٤) سورة فاطر :٢.
(٥) سورة فاطر:٣.
(٦) سورة فاطر:٩

بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ ۚ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ (١)

وقال سبحانه فيها أيضا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴾ (٢) وقال تعالي :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴾ (٣) وقال ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عَٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴾ (٤) وقال عز من قائل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾ (٥) ثم ختم سبحانه وتعالي السورة بقوله : ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ۝ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ (٦) أرأيت أيها القاريء الكريم كيف لا مس الحديث عن نعم الملك جميع جوانب السورة المباركة ومن ثم فبدايتها بالحمد مناسب تماما لكل أجزائها فسبحان من أحكم آياته وفصلها تفصيلا.

والسور التي بدأت بـ (تبارك) سورتان :

الأولي : سورة الفرقان

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (٧)

---

(١) سورة فاطر: ١١-١٣

(٢) سورة فاطر: ١٥-١٧

(٣) سورة فاطر: ٢٧

(٤) سورة فاطر: ٣٨.

(٥) سورة فاطر: ٤١.

(٦) سورة فاطر: ٤٤-٤٥.

(٧) سورة الفرقان: ١.

(اشتملت هذه السورة على الابتداء بتمجيد الله تعالى وإنشاء الثناء عليه ، ووصفه بصفات الإلاهية والوحدانية فيها .

وأدمج في ذلك التنويه بالقرآن ، وجلال مُنزله ، وما فيه من الهُدى ، وتعريض بالامتنان على الناس بهديه وإرشاده إلى اتقاء المهالك ، والتنويه بشأن النبي (-ﷺ-)

وأقيمت هذه السورة على ثلاث دعائم :

الأولى : إثبات أن القرآن منزل من عند الله ، والتنويهُ بالرسول المنزل عليه (-ﷺ-) ودلائل صدقه ، ورفعة شأنه عن أن تكون له حظوظ الدنيا،وأنه على طريقة غيره من الرسل ، ومن ذلك تلقى قومه دعوته بالتكذيب .

الدعامة الثانية : إثبات البعث والجزاء ، والإنذار بالجزاء في الآخرة ، والتبشير بالثواب فيها للصالحين ، وإنذار المشركين بسوء حظهم يومئذٍ ، وتكون لهم الندامة على تكذيبهم الرسول وعلى إشراكهم واتباع أئمة كفرهم .

الدعامة الثالثة : الاستدلال على وحدانية الله ، وتفرده بالخلق ، وتنزيهه عن أن يكون له ولد أو شريك ، وإبطال إلاهية الأصنام ، وإبطال ما زعموه من بُنوة الملائكة لله تعالى .

وافتتحت في آيات كل دعامة من هذه الثلاث بجملة (تبارك الذي) الخ .

قال الطيبي : مدار هذه السورة على كونه (-ﷺ-) مبعوثاً إلى الناس كافة ينذرهم ما بين أيديهم وما خلفهم ولهذا جُعل براعة استهلالها (تبارك الذي نزّل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً) (١)

ومن ثم فإن البدء بقوله :(تبارك) مناسب لما تناولته السورة الكريمة هذا من ناحية النظر إلى الموضوعات التي تحدثت عنها السورة الكريمة.

وإذا نظرنا إلى علاقة السورة بالتي قبلها يظهر لنا أيضا وجه آخر من أوجه البراعة قال البقاعي : (لما ختم سبحانه سورة النور بسعة الملك ، وشمول العلم ، وتعظيم الرسول ، والتهديد لمن تجاوز الحد في قوله : ﴿ لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٨/ ٣١٤-٣١٥.

يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [1]، افتتح هذه بمثل ذلك على وجه - مع كونه أضخم منه - هو برهان عليه فقال : {تبارك} أي ثبت ثبوتاً مع اليمن والخير الذي به سبقت الرحمة الغضب) [2]

الثانية: سورة الملك

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾[3]

يذكر البقاعي في وجه اتصال سورة الملك بالتحريم ما يبرز براعة الاستهلال فيقول : ((لما ختمت تلك بأن من أعرض عنه سبحانه أهلكه ولم يغن عنه أحد ، ومن أقبل عليه رفعه واستخلصه ولم يضره أحد ، وختم بأنه قوّى مريم عليها السلام حتى كانت في درجة الكملة، ورزقها الرسوخ في الإخلاص ، وكان مثل هذا لا يقدر على فعله إلا من لا كفوء له ، وكان من لا كفوء له أهلاً لأن يخلص له الأعمال، ولا يلتفت إلى سواه بحال ، لأنه الملك الذي يملك الملك، قال مثيراً للهمم إلى الاستبصار المثير للإرادة إلى رياضة تثمر جميع أبوب السعادة : {تبارك} أي تكبر وتقدس وتعالى وتعاظم وثبت ثباتاً لا مثل له مع اليمن والبركة وتواتر الإحسان والعلى.

ولما كان قد أوقع في آخر سورة التحريم ما فيه أعظم عبرة لمن تذكر ، وأعلى آية لمن استبصر ، من ذكر امرأتين كانتا تحت عبدين من عبادنا صالحين، قد بعثهما الله تعالى رحمة لعباده، واجتهدا في دعاء الخلق ، فحرم الاستنارة بنورهما والعياذ بهداهما من لم يكن أحد من جنسهما أقرب إليهما منه ولا أكثر مشاهدة لما مدا به من الآيات وعظيم المعجزات ، ومع ذلك فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، ثم أعقبت هذه العظة بما جعل في طرف منها ونقيض من حالها ، وهو ذكر امرأة فرعون التي لم يغرها مرتكب صاحبها وعظيم جرأته مع شدة الوصلة واستمرار الألفة لما سبق لها في العلم القديم من السعادة وعظيم الرحمة فقالت:﴿ رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ ﴾ [4] وحصل في هاتين القصتين تقديم سبب رحمة حرم التمسك به أولى الناس في ظاهر الأمر، وتقديم سبب امتحان عصم منه أقرب الناس إلى التورط فيه ، ثم أعقب ذلك بقصة عريت عن مثل هذين السببين وانفصلت في مقدماتها عن تينك القصتين ، وهو ذكر مريم ابنة

---

(١) سورة النور :٦٣-٦٤.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ٥٠٣/٥.

(٣) سورة الملك:١.

(٤) سورة التحريم :١١.

عمران ليعلم العاقل حيث يضع الأسباب ، وأن القلوب بيد العزيز الوهاب ، أعقب تعالى ذلك بقوله الحق﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [1] وإذا كان الملك سبحانه وتعالى بيده الملك فهو الذي يؤتي الملك والفضل من يشاء وينزعه ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاء) [2]

والمتدبر هذه السورة يدرك أن أغراضها التي بسطت فيها تتناسب تماما مع البدء بما بدأت به

قال الطاهر ابن عاشور : (والأغراض التي في هذه السورة جارية على سَنن الأغراض في السور المكية .

ابتدئت بتعريف المؤمنين معاني من العلم بعظمة الله تعالى وتفرده بالملك الحق ؛ والنظر في إتقان صنعه الدال على تفرده بالإلهية فبذلك يكون في تلك الآيات حظ لعظة المشركين، ومن ذلك التذكير بأنه أقام نظام الموت والحياة، لتظهر في الحالين مجاري أعمال العباد في ميادين السبق إلى أحسن الأعمال ونتائج مجاريها ،وأنه الذي يجازي عليها .

وانفراده بخلق العوالم العليا خلقاً بالغاً غاية الإتقان فيما تراد له .

وأتبعه بالأمر بالنظر في ذلك وبالإرشاد إلى دلائله الإجمالية وتلك دلائل على انفراده بالإلهية .

متخلصاً من ذلك إلى تحذير الناس من كيد الشياطين ، والارتباق معهم في ربقة عذاب جهنم وأن في اتباع الرسول (ﷺ) نجاةً من ذلك وفي تكذيبه الخسران ، وتنبيه المعاندين للرسول (ﷺ) إلى علم الله بمَا يحوكونه للرسول ظاهراً وخفية، بأن علم الله محيط بمخلوقاته .

والتذكير بمنّة خلق العالم الأرضي ، ودقة نظامه ، وملاءمته لحياة الناس ، وفيها سعْيهم ومنها رزقهم .

والموعظة بأن الله قادر على إفساد ذلك النظام فيصبح الناس في كرب وعناء ليتذكروا قيمة النعم بتصور زوالها .

وضرب لهم مثلاً في لطفه تعالى بهم بلطفه بالطير في طيرانها .

وآيسهم من التوكل على نصرة الأصنام أو على أن ترزقهم رزقاً .

---

(١) سورة الملك:١.

(٢) نظم الدرر ٨/٨٧-٨٨. بتصرف

وفظّع لهم حالة الضلال التي ورطوا أنفسهم فيها .
ثم وبّخ المشركين على كفرهم نعمة الله تعالى وعلى وقاحتهم في الاستخفاف بوعيده وأنه وشيك الوقوع بهم .
ووبخهم على استعجالهم موت النبي (ﷺ) ليستريحوا من دعوته .
وأوعدهم بأنهم سيعلمون ضلالهم حين لا ينفعهم العلم ، وأنذرهم بما قد يحلّ بهم من قحط وغيره .
افتتحت السورة بما يدل على منتهى كمال الله تعالى افتتاحاً يؤذن بأن ما حَوتْه يحوم حول تنزيه الله تعالى عن النقص الذي افتراه المشركون، لمّا نسبوا إليه شركاء في الربوبية والتصرف معه والتعطيل لبعض مراده . ففي هذا الافتتاح براعة الاستهلال كما تقدم في طالع سورة الفرقان .) [١]
الافتتاح بالتسبيح [٢]
(وهذه الكلمة استأثر الله بها ، فبدأ بالمصدر في بني إسرائيل (الإسراء)، لأنه الأصل ،ثم بالماضي،لأنه أسبق الزمانين ، ثم بالمستقبل،ثم بالأمر في سورة الأعلى ، استيعابا لهذه الكلمة من جميع جهاتها ، وهي أربع : المصدر ، والماضي،

والمستقبل،والأمر للمخاطب) [٣] و جاء في سبع سور
الأولى : سورة الإسراء
﴿ سُبْحَانَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَـٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [٤]
هذا الافتتاح مثار تساؤل فهو بالمصدر من الكلمة وقد ذكر ابن الجوزي وجهين في معنى التسبيح هنا يظهر من خلالهما السر في الافتتاح به فيقول:(وفي معنى التسبيح هاهنا قولان

(١) التحرير والتنوير ٢٩/٧-٩.
(٢) التَّسبيح :التنزيه وسبحان الله معناه تنزيهاً لله من الصاحبة والولد وقيل تنزيه الله تعالى عن كل ما لا ينبغي له أن يوصف لسان العرب - (٢ / ٤٧٠) مادة: سبح
(٣) البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني ٢٦١ط:الأزهر الشريف
(٤) سورة الإسراء :١.

أحدهما: أن العرب تسبح عند الأمر المعجب فكأن الله تعالى عجب العباد مما أسدى إلى رسوله من النعمة.

والثاني: أن يكون خرج مخرج الرد عليهم لأنه لما حدثهم بالإسراء كذبوه

فيكون المعنى تنزه الله أن يتخذ رسولا كذابا ولا خلاف أن المراد بعبده هاهنا محمد ﷺ) [١]

ويذكر القاسمي في محاسنه سبب افتتاحه السورة بما افتتحت به أنه سبحانه(ينزه ذاته العلية عما لا يليق بجلاله ، ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه فلا إله غيره) [٢]

وما أجمل ما ذكره البقاعي أيضا في براعة الاستهلال بهذا المطلع فقال: (لما كان مقصود النحل التنزه عن الاستعجال وغيره من صفات النقص ، والاتصاف بالكمال المنتج لأنه قادر على الأمور الهائلة ومنها جعل الساعة كلمح البصر أو أقرب ، وختمها بعد تفضيل إبراهيم عليه السلام والأمر باتباعه بالإشارة إلى نصر أوليائه - مع ضعفهم في ذلك الزمان وقلتهم - على أعدائه على كثرتهم وقوتهم ، وكان ذلك من خوارق العادات ونواقص المطردات ، وأمرهم بالتأني والإحسان ، افتتح هذه بتحقيق ما أشار الختم إليه بما خرقه من العادة في الإسراء ، وتنزيه نفسه الشريفة من توهم استبعاد ذلك ، تنبيهاً على أنه قادر على أن يفعل الأمور العظيمة الكثيرة الشاقة في أسرع وقت ، دفعاً لما قد يتوهم أو يتعنت به من يسمع نهيه عن الاستعجال وأمره بالصبر ، وبياناً لأنه مع المتقي المحسن ، تنويهاً بأمر محمد ﷺ، وإعلاماً بأنه رأس المحسنين وأعلاهم رتبة وأعظمهم منزلة ، بما آتاه من الخصائص التي منها المقام المحمود ، وتمثيلاً لما أخبر به من أمر الساعة فقال تعالى : {سبحان} وهو علم للتنزيه ، دال على أبلغ ما يكون من معناه) [٣]

ولا شك أن معجزة الإسراء كانت علامة فارقة في تاريخ النبوة المحمدية وقابلها كثير من المشركين بالرفض والتشغيب عليها فبدأ الحق الحديث عنها بهذه الكلمة التي تقطع إنكار المنكرين وتملأ قلوب المؤمنين إيمانا إذ هي ممن يملك الدنيا وما فيها .

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٤/٥.

(٢) محاسن التأويل للقاسمي ٦ / ٤٢٧ .

(٣) نظم الدرر ٥٠٥/٤.

الثانية: سورة الحديد

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[1]

ذكر أبو حيان رحمه الله وجه مناسبة اتصال هذه السورة بسابقتها فقال:

(مناسبة أول هذه السورة لآخر ما قبلها واضحة ، لأنه تعالى أمر بالتسبيح ، ثم أخبر أن التسبيح المأمور به قد فعله والتزمه كل من في السموات والأرض ، وأتى سبح بلفظ الماضي ، ويسبح بلفظ المضارع ، وكله يدل على الديمومة والاستمرار ، وإن ذلك ديدن من في السموات والأرض .) [2]

كما أن البقاعي قال:(ولما ختمت الواقعة بالأمر بتنزيهه عما أنكره الكفرة من البعث ، جاءت هذه لتقرير ذلك التنزيه وتبيينه بالدليل والبرهان والسيف والسنان فقال تعالى كالتعليل لآخر الواقعة : {سبح} أي أوقع التسبيح بدلالة الجبلة تعظيماً له سبحانه وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته ، وقصره ، وهو متعد ليدل على العموم بقصره ، وعلى الإخلاص بتعديته باللام وجعله ماضياً هنا وفي الحشر والصف، ومضارعاً في الجمعة والتغابن ليدل على أن مما أسند إليه التسبيح هو من شأنه وهجيراه وديدنه.

وتخصيص كل من الماضي والمضارع بما افتتح به لما يأتي في أول الجمعة ، والإتيان بالمصدر أول الإسراء أبلغ من حيث إنه يدل إطلاقه على استحقاق التسبيح من كل شيء وفي كل حال.) [3]

و(أول هذه واقع موقع العلة لآخر ما قبلها من الأمر بالتسبيح فكأنه قيل :

سبح باسم ربك العظيم ، لأنه سبح له ما فى السموات والأرض.) [4]

كما أن قضايا السورة الكريمة التي اشتملت عليها تؤذن بهذا البدء،وهذا ما صرح به الطاهر ابن عاشور يشير إلى هذا حيث قال:

(افتتاح السورة بذكر تسبيح الله وتنزيهه، مؤذن بأن أهم ما اشتملت عليه إثبات وصف الله بالصفات الجليلة، المقتضية أنه منزّه عما ضل في شأنه أهل الضلال، من وصفه بما لا يليق بجلاله ، وأول التنزيه هو نفي الشريك له في الإلهية،فإن الوحدانية هي

---

(١) سورة الحديد:١.

(٢) تفسير البحر المحيط ٢١٦/٨.

(٣) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور٣٦٦/٧.

(٤) تفسير المراغي ٤٩٨٥/١.

أكبر صفة ضل في كنهها المشركون، والمانوية[1] ونحْوهم من أهل التثنية وأصحاب التثليث والبراهمة ، وهي الصفة التي ينبىء عنها اسمه العَلَم أعني (الله) لما علمت في تفسير الفاتحة من أن أصله الإله ، أي المنفرد بالإلهية .

وأتبع هذا الاسم بصفات ربانية تدل على كمال الله تعالى وتنزّهُهُ عن النقص كما يأتي بيانه فكانت هذه الفاتحة براعة استهلال لهذه السورة ، ولذلك أتبع اسمهُ العلَم بعشر صفات هي جامعة لصفات الكمال وهي : العزيز ، الحكيم ، له ملك السماوات والأرض ، يحيي ، ويميت ، وهو على كل شيء قدير ، هو الأول ، والآخر ، والظاهر ، والباطن ، وهو بكل شيء عليم .

وصيغ فعل التسبيح بصيغة الماضي للدلالة على أن تنزيهه تعالى أمر مقرر أمر الله به عباده من قبل وألهمه الناس وأودعَ دلائله في أحوال ما لا اختيار له ، كما دل عليه قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْأَصَالِ ﴾[2] وقوله : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[3].

ففي قوله : (سبح) تعريض بالمشركين الذين أهملوا أهم التسبيح وهو تسبيحه عن الشريك والند .)[4]

الثالثة:سورة الحشر

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[5]

(القول في لفظ هذه الآية كالقول في نظيرها في أول سورة الحديد ، إلا أن التي في أول سورة الحديد فيها : ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ وها هنا قال : ﴿ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ لأن فاتحة سورة الحديد، تضمنت الاستدلال على عظمة الله تعالى، وصفاته وانفراده بخلق السماوات والأرض، فكان دليل ذلك هو مجموع ما احتوت عليه السماوات والأرض من أصناف الموجودات، فجمع ذلك كله في اسم واحد هو (ما)

---

(١)المانوية: أصحاب ماني بن فاتك الحكيم، الذي ظهر في زمان سابور بن أردشير، وقتله بهرام بن هرمز بن سابور، وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام. أحدث دينا بين المجوسية والنصرانية، وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام. ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام. الملل والنحل (٢ / ٤٩).

(٢) سورة الرعد:١٥.

(٣) سورة الإسراء:٤٤.

(٤) التحرير والتنوير ٢٧/٣٥٦-٣٥٧.

(٥) سورة الحشر:١.

الموصولة التي صلتها قوله : (في السماوات والأرض) . وأما فاتحة سورة الحشر فقد سيقت للتذكير بمنة الله تعالى على المسلمين في حادثة أرضية وهي خذلان بني النضير، فناسب فيها أن يخص أهل الأرض باسم موصول خاص بهم ، وهي (ما) الموصولة الثانية، التي صلتها(في الأرض)، وعلى هذا المنوال جاءت فواتح سور الصف والجمعة والتغابن ،كما سيأتي في مواضعها . وأوثر الأخبار عن ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ بفعل المضي، لأن المخبر عنه تسبيح شكر عن نعمة مضت قبل نزول السورة وهي نعمة إخراج أهل النضير .) (١)

ويقول البقاعي في وجه تناسب تلك السورة مع سابقتها مظهرا وجه البراعة فيها: (لما ختمت المجادلة بأنه مُعز أهل طاعته ، ومُذل أهل معصيته ومُحادته ، علله بتنزهه عن النقائص تأييداً للوعد بنصرهم فقال:{سبح} أي أوقع التنزيه الأعظم عن كل شائبة نقص{لله}الذي أحاط بجميع صفات الكمال.) (٢)

الرابعة سورة الصف:

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾(٣)

براعة استهلال هذه السور بما بدئت به يقول البقاعي:

(لما ختمت الممتحنة بالأمر بتنزيهه سبحانه عن تولي من يخالف أمره بالتولي عنهم والبراءة منهم اتباعاً لأهل الصفات المتجردين عن كل ما سوى الله لا سيما عمن كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ، افتتحت الصف بما هو كالعلة لذلك فقال : {سبح لله} أى أوقع التنزيه الأعظم للملك الأعظم الذي له {ما في السموات}من جميع الأشياء التي لا يغفل من أفلاكها ونجومها وغير ذلك من جواهرها وأعراضها في طلوعها وأفولها وسيرها في ذهابها ورجوعها

وإنشاء السحاب وإنزال المياه وغير ذلك.) (٤)

وهذه السورة تناولت في حديثها مما تناولت عن نبي الله تعالى موسى عليه السلام، وبني إسرائيل،ولا شك أن هؤلاء نسبوا للذات العلية، ما لا ينبغي أن ينسب له سبحانه حيث قالوا "عزير ابن الله"

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨/٦٤-٦٥.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧/٧٨٢.

(٣) سورة الصف:١.

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٧/٨٧٦.

وتناولت الحديث عن نبي الله عيسى عليه السلام، وقد ادعى جماعة من النصارى أنه ابن الله ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا
من ثم ناسب أن تفتتح تلك السورة بتنزيه تعالى عما تقولوه هؤلاء وأولئك.
ثم إن ختام هذه السورة يتناسب مع بدايتها حيث يقول الله تعالى: ﴿ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ ﴾ ولا شك أن هذا التأييد لا يكون إلا ممن الأسباب والمسببات بيده، وهو منزه عن كل نقص وواجب له كمال.

الخامسة سورة الجمعة:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْمَلِكِ ٱلْقُدُّوسِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (١)
يشير البقاعي إلى براعة الاستهلال في هذه السورة بعرض علاقتها بما قبلها فيقول:
(لما ختمت الصف بالإقبال ببعض بني إسرائيل على جنابه الأقدس بعد زاغوا فأزاغ الله قلوبهم كلهم أو الشاذ منهم، بما أفهمه إطلاق الضمير عليهم ثم تأييدهم على من استمر منهم على الزيغ ، فثبت أن له تمام القدرة استلزم لشمول العلم اللازم منه التنزه عن كل شائبة نقص ، وكان سبحانه قد ذكر التسبيح الذي هو الأعظم الأشهر للتنزيه بلفظ الماضي ثلاث مرات في افتتاح ثلاث سور ، وذلك نهاية الإثبات المؤكد ، فثبت بذلك أنه وقع تنزيهه من كل ناطق وصامت ، أخبر أول هذه السورة أن ذلك التنزيه على وجه التجديد والاستمرار بالتعبير بالمضارع لاستمرار ملكه فقال : {يسبح} أي يوقع التنزيه الأعظم الأبهى الأكمل {لله} أي الملك المحيط بكل شيء قدرة وعلماً) (٢)
ويقول الطاهر ابن عاشور:
(افتتاح السورة بالإخبار عن تسبيح أهل السماوات والأرض لله تعالى براعة استهلال ،لأن الغرض الأول من السورة التحريض على شهود الجمعة، والنهي عن الأشغال التي تشغل عن شهودها وزجر فريق من المسلمين، انصرفوا عن صلاة الجمعة حِرصاً على الابتياع من عِيرٍ وردت المدينة في وقت حضورهم لصلاة الجمعة ،وللتنبيه على أن أهل السماوات والأرض يجددون تسبيح الله ولا يفترون عنه أوثر المضارع في قوله : (يسبح) (٣)

---

(١) سورة الجمعة:١.
(٢) نظم الدرر ٩٠٩/٧
(٣) التحرير والتنوير ٢٨/ ٢٠٥-٢٠٦.

السادسة سورة التغابن:

﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۖ لَهُ ٱلۡمُلۡكُ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ﴾ (١)

(جُلّ ما اشتملت عليه هذه السورة: إبطال إشراك المشركين وزجرهم عن دين الإشراك بأسره وعن تفاريعه التي أعظمها إنكارهم البعث وتكذيبهم الرسول (ﷺ) وتكذيب القرآن ،وتلك أصول ضلالهم ابتُدئت السورة بالإعلان بضلالهم وكفرانهم المنعم عليهم ، فإن ما في السماوات والأرض يسبح لله تعالى عن النقائص : إما بلسان المقال مثل الملائكة والمؤمنين أو بلسان الحال مثل عبادة المطيعين من المخلوقات المدركة كالملائكة والمؤمنين ، وإما بلسان الحال مثل دلالة حال الاحتياج إلى الإيجاد والإمداد كحاجة الحيوان إلى الرزق وحاجة الشجرة إلى المطر وما يشهد به حال جميع تلك الكائنات من أنها مربوبة لله تعالى ومسخرة لما أراده منها . وكل تلك المخلوقات لم تنقض دلالة حالها بنقائض كفر مقالها فلم يخرج عن هذا التسبيح إلا أهل الضلال من الإنس والشياطين فإنهم حَجبوا بشهادة حالهم لما غشوها به من صرح الكفر .

فالمعنى : يسبح لله ما في السماوات والأرض وأنتم بخلاف ذلك .

وهذا يفيد ابتداء تقرير تنزيه الله تعالى وقوة سلطانه ليزداد الذين آمنوا إيماناً ويكون لهم تعليماً وامتناناً ويفيد ثانياً بطريق الكناية تعريضاً بالمشركين الذين لم ينزهوه ولا وقروه فنسبوا إليه شركاء .

وجيء بفعل التسبيح مضارعاً للدلالة على تجدّد ذلك التسبيح

وما في هاته السورة من المناسبة بين تجدد التسبيح والأمر بالعفو عن ذوي القربى والأمر بالتقوى بقدر الاستطاعة والسمع والطاعة لكي لا يكتفي المؤمنون بحصول إيمانهم ليجتهدوا في تعزيزه بالأعمال الصالحة .) (٢)

السابعة سورة الأعلى :

﴿ سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى ﴾(٣)

عن براعة استهلال السورة بالأمر بالتسبيح يقول الطاهر ابن عاشور:

(الافتتاح بأمر النبي (ﷺ) بأن يسبح اسمَ ربه بالقول ، يؤذن بأنه سيُلقي إليه عقبه بشارة وخيراً له وذلك قوله : ﴿ سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ ﴾ (٤) الآيات كما سيأتي ففيه براعة استهلال.) (٥)

---

(١) سورة التغابن :١.

(٢) التحرير والتنوير ٢٦٠/٢٨.

(٣) سورة الأعلى:١.

(٤) سورة الأعلى :٦.

(٥) التحرير والتنوير ٢٧٢/٣٠.

المطلب الثاني:السور المفتتحة بحروف التهجي.

حروف التهجي في تسع وعشرين سورة[١]

ذكر العلماء أن ورود هذه الأحرف المقطعة في بداية السور إنما القصد منه إيقاظ أسماع المشركين والمعرضين عن هذا القرآن الذي من جنس ما يتكلمون

قال العلامة السمرقندي نقلا عن قطرب:

(إن المشركين كانوا لا يستمعون القرآن، كما قال الله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾ [٢]فأراد أن يسمعهم شيئاً لم يكونوا سمعوه، ليحملهم ذلك إلى الاستماع حتى تلزمهم الحجة. وقال بعضهم: إن المشركين كانوا يقولون:لا نفقه هذا القرآن،لأنهم قالوا:﴿ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٍ ﴾ [٣] فأراد الله أن يبين لهم أن القرآن مركب على الحروف التي ركبت عليها ألسنتكم، يعني هو على لغتكم، ما لكم لا تفقهون؟ وإنما أراد بذكر الحروف تمام الحروف، كما أن الرجل يقول: علمت ولدي: أ، ب، ت، ث، وإنما يريد جميع الحروف ولم يرد به الحروف الأربعة خاصة.) [٤]

وقال الزمخشري في كشافه:

(ورود هذه الأسماء هكذا مسرودة على نمط التعديد كالإيقاظ وقرع العصا لمن تحدّى بالقرآن وبغرابة نظمه وكالتحريك للنظر في أن هذا المتلو عليهم وقد عجزوا عنه عن آخرهم كلام منظوم من عين ما ينظمون منه كلامهم ليؤديهم النظر إلى أن يستيقنوا أن لم تتساقط مقدرتهم دونه، ولم تظهر مَعجزتهم عن أن يأتوا بمثله بعد المراجعات المتطاولة، وهم أمراء الكلام وزعماء الحوار، وهم

---

(١) الإتقان للسيوطي ٢٨٢/٢. وباستقراء السور يتبين أنها (١- البقرة ٢- آل عمران ٣- الأعراف ٤- يونس ٥-هود ٦- يوسف

٧- الرعد ٨- إبراهيم ٩- الحجر ١٠-مريم ١١- طه ١٢- الشعراء ١٣- النمل ١٤- القصص ١٥- العنكبوت ١٦- الروم ١٧-لقمان

١٨- السجدة ١٩- يس ٢٠- ص ٢١-غافر ٢٢- فصلت ٢٣- الشورى ٢٤- الزخرف ٢٥- الدخان ٢٦- الجاثية ٢٧- الأحقاف ٢٨- ق

٢٩- ن)

(٢) سوة فصلت :٢٦ .

(٣) سورة فصلت :٥ .

(٤) بحر العلوم للسمرقندي ٢١/١ .

الحرّاص على التساجل في اقتصاب الخطب، والمتهالكون على الافتنان في القصيد والرجز) [١]

ويقول البيضاوي:

(افتتحت السورة بطائفة من الأحرف المقطعة إيقاظاً لمن تحدى بالقرآن، وتنبيهاً على أن أصل المتلو عليهم كلام منظوم مما ينظمون منه كلامهم، فلو كان من عند غير الله لما عجزوا عن آخرهم، مع تظاهرهم وقوة فصاحتهم عن الإتيان بما يدانيه، وليكون أول ما يقرع الأسماع مستقلاً بنوع من الإعجاز، فإن النطق بأسماء الحروف مختص بمن خط ودرس، فأما من الأمي الذي لم يخالط الكتاب فمستبعد مستغرب خارق للعادة كالكتابة والتلاوة، سيما وقد راعى في ذلك ما يعجز عنه الأديب الأريب الفائق في فنه) [٢].

ولا يمكن بحال أن نتجاوز البعد الثقافي ، والديني عند العرب وقت نزول القرآن الكريم ، على قلب نبينا محمد ﷺ كما لا ننكر حجم الإنكار وسيل الرفض لهذا النبي العظيم ،لأنه يأتي على عقائد طالما تأصلت في نفوس أتباعها وليس من السهولة بمكان أن تزول في يوم وليلة .

تُرى أيها القاريء الكريم أي طريقة تجعل هؤلاء السادرين في عداوتهم وبغضهم، ينصتون لهذا القرآن وهم الذين إذا سمعوه لغوا فيه وتواصوا بذلك فيما بينهم (فأنزل الله هذا النظم البديع ليعجبوا منه، ويكون تعجبهم سببا لاستماعهم ،واستماعهم له سببا لاستماع ما بعده فترق القلوب وتلين الأفئدة) [٣]

ثم إن هذا الكتاب الذي جاء به من لم يجلس على معلم من قبل وهم يعلمون ذلك وهو من جنس الكلام الذي يجري على ألسنتهم [٤]

ومما يقوي هذا الفهم ويجعل له حظا من النظر والاعتبار ، أن السور التي بدأت بالأحرف المقطعة تحدثت عن القرآن الكريم بعد الافتتاح مباشرة ،عدا سورة العنكبوت ،والروم ،والقلم.

---

(١) الكشاف للزمخشري ٢٧/١ .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٣٣/١ .

(٣) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٧٥/١ .

(٤) أشار إلى هذا بشيء من التفصيل الزركشي في برهانه ١٧٦/١ .

إلا أن سورة العنكبوت أفردت حديثا مطولا عن القرآن الكريم بأسلوب بديع فريد كما في قوله تعالى :

﴿ ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ ۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾ (١)

وفي قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَمِنْ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤْمِنُ بِهِۦ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلْكَٰفِرُونَ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ بَلْ هُوَ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْـَٔايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢)

وفي ختامها : ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُۥٓ ۚ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ ﴾ (٣)

وفي سورة الروم جاء فيها : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ ۚ وَلَئِن جِئْتَهُم بِـَٔايَةٍ لَّيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ﴾ (٤)

وفي سورة القلم حديث عن القرآن وموقف المعارضين منه ويتضح ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (٥)

وفي قوله تعالى: ﴿ وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٦)

وهذا الحديث في السور الثلاث بيان لموقف المعاندين من القرآن من ناحية، ومخاطبة لعقولهم وعواطفهم من ناحية أخرى، وهذا يؤكد المعنى الذي ذكرناه من براعة الاستهلال بالأحرف المقطعة في تلك السور.

مع ملاحظة أن السور التي بدأت بالأحرف المقطعة مكية عدا سورة البقرة وآل عمران فهما مدنيتان (٧)

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٧:٥١ .
(٣) سورة العنكبوت :٦٨.
(٤) سورة الروم : ٥٨ .
(٥) سورة القلم : ١٠:١٥ .
(٦) سورة القلم :٥١:٥٢ .
(٧) ينظر ما نقله السيوطي في الإتقان عند حديثه عن المكي والمدني ١/٤٢-٤٣ .

ولعل نزولهما بالمدينة مراعاة لمن كان ينكر من اليهود ومن كان على شاكلتهم، ولتظل تلك الأحرف شاهدة على إعجاز هذا القرآن،على مر الدهور وتتابع الأزمان.

وعندما طالعت كتاب ابن أبي الإصبع " الخواطر السوانح في أسرار الفواتح" وجدته عرض أسرار الفواتح بالأحرف المقطعة فقال: إن الفواتح المعجمة جاءت في تسع وعشرين سورة ومنها ما جاء من حرف واثنين إلى خمسة ونص على السور التي جاءت بحرف واحد واثنين .....إلخ ثم يقول : وأصول هذه الفواتح التي تركبت صورها منها أربعة عشر حرفا من حروف المعجم وهي على ترتيب وضعها: (ا ح ر س ص ط ع ق ك ل م ن هـ ي) .

ثم هي على ضربين متجمعة ومتفرقة .....، وجملة هذه الحروف هي وإن كانت وَفقَ عدد النصف من حروف المعجم على قسمين:

قسم يتصحف، وقسم لا يتصحف ، فما لايتصحف ثلاثة أحرف وهي : الألف والميم والهاء.

وما يتصحف أربعة أضرب : ضرب له صورتان، وهو اثنا عشر حرفا: الدال، والذال، والراء، والزاي ، والصاد ، والضاد ، والطاء ، والظاء ، والعين ، والغين ، والكاف ، واللام .

وضرب له ثلاث صور: وهو ستة أحرف : الجيم ، والحاء ، والخاء ، والفاء ، والقاف ، الواو .

وضرب له خمس صور وهو خمسة أحرف: الباء ، والتاء ، والثاء ، والنون ، والياء.

وضرب لا ينحصر صوَرُه كثرةً وهو حرفان : السين ، والشين .

فما لا يتصحف موجود في هذه الحرف أعني الحروف الأربعة عشر، وما يتصحف موجود فيها أيضا بطريق التصحيف ما خلا الدال ، والذال لكن الدال التي هي أصل الذال وإن لم توجد في هذه الفواتح خطّاً فهي موجودة فيها لفظا لأنها منطوق بها في ثلاث فواتح منها ، أحدها ﴿ الٓمٓصٓ ﴾ ، ﴿ كٓهيعٓصٓ ﴾ ، ﴿ صٓ ﴾.

والذال تصحف بالدال من ضرب ماله صورتان ، فقد تم استخراج جميع حروف المعجم الأصول من هذه الحروف ، وثبت أنها أصولها التي تفرعت منها وظهرت عنها ، وإنما جاءت هذه الفواتح المعجمة التسعة والعشرون عدد أصول حروف المعجم لكونها هي أصول جميع الفواتح إذ القسم المعرب من الفواتح مركب من حروفها بالطريق التي أوضحتها ومصرح بما كتب عنه من المعاني فكأن المعربة

مفسرة للمعجمة ، والتفسير فرع على المفسر ولأن المعجمة بسيطة إلى المعرَبة، والمعربة مركبة بالنسبة إليها، والبسيط أصل المركب والله أعلم) [1]

وتأمل ما ذكره الزركشي في البرهان عن براعة الاستهلال بتلك الأحرف حيث قال:(وكل سورة استفتحت بهذه الأحرف فهي مشتملة على مبدأ الخلق ونهايته وتوسطه، مشتملة على خلق العالم وغايته وعلى التوسط بين البداية من الشرائع والأوامر، فتأمل ذلك في البقرة وآل عمران وتنزيل السجدة وسورة الروم،

وأيضا فلأن الألف واللام كثرت في الفواتح دون غيرها من الحروف لكثرتها في الكلام.

وأيضا من أسرار علم الحروف أن الهمزة من الرئة فهي أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من الفم فصوتها يملأ ما وراءها من هواء الفم، والميم مطبقة لأن مخرجها من الشفتين إذا أطبقا، ويرمز بهن إلى باقي الحروف كما رمز ﷺ بقوله: "أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله" إلى الإتيان بالشهادتين وغيرهما مما هو من لوازمهما.

وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها وهي الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق

والإصمات، والسين مهموس رخو مستفل صفير منفتح ، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء، فذكرالحرفين اللذين جمعا صفات الحروف.

وتأمل السورة التي اجتمعت على الحروف المفردة كيف تجد السورة مبنية على كلمة ذلك الحرف فمن ذلك: ﴿ قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ﴾ فإن السورة مبنية على الكلمات القافية: من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلقن وتكرار القول ومراجعته مرارا، والقرب من ابن آدم، وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر الرقيب، وذكر السابق والقرين، والإلقاء في جهنم، والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، وذكر القلب والقرن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، وبسوق النخل، والرزق، وذكر القوم ، وخوف الوعيد وغير ذلك.

---

(١) الخواطر السوانح في أسرار الفواتح لابن أبي الإصبع المصري ٧٥-٧٦-٧٧. بتصرف تحقيق د/ حنفي محمد شرف طبعة مصر ١٩٦٠م.

وسر آخر وهو أن كل معاني السورة مناسب لما في حرف القاف من الشدة، والجهر، والقلقلة ،والانفتاح، وإذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة "ص" من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي ﷺ وقولهم:

﴿ أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ﴾ إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود، ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم وهو الدرجات والكفارات، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيا في شأن بنيه وحلفه ليغوينهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم.

وكذلك سورة: ﴿ نٓ ۚ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ فإن فواصلها كلها على هذا الوزن مع ما تضمنت من الألفاظ النونية.

وتأمل سورة الأعراف زاد فيها "ص" لأجل قوله: ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ ﴾ وشرح فيها قصص آدم فمن بعده من الأنبياء، ولهذا قال بعضهم معنى المص: {ألم نشرح لك صدرك}، وقيل معناه: المصور، وقيل: أشار بالميم لمحمد، وبالصاد للصديق، وفيه إشارة لمصاحبة الصاد الميم وأنها تابعة لها كمصاحبة الصديق لمحمد ومتابعته له.

وجعل السهيلي هذا من أسرار الفواتح وزاد في الرعد راء لأجل قوله: ﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ﴾ ولأجل ذكر الرعد والبرق وغيرهما) [1]

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١٦٨/١-١٧٠ .

المطلب الثالث: السور المفتتحة بالنداء(١).

جاء النداء في عشر سور ، خمس بنداء الرسول ﷺ وخمس بنداء الأمة :النساء،المائدة،الحج،الحجرات،الممتحنة. (٢)

والسور التي بدأت بنداء الرسول ﷺ هي : الأحزاب والطلاق والتحريم والمزمل والمدثر.

أما سورة الأحزاب فقد بدأت بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (٣)

(على سبيل التشريف والتكرمة والتنويه بمحله وفضيلته ، وجاء نداء غيره باسمه ، كقوله : ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ (٤) ، ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ﴾ (٥) ، ﴿ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ (٦) ، ﴿ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ (٧) ، ﴿ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ ﴾ (٨) ، ﴿ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ ﴾ (٩). وحيث ذكره على سبيل الأخبار عنه بأنه رسوله ، صرح باسمه فقال : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (١٠) ، ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ﴾ (١١) ، أعلم أنه رسوله ، ولقنهم أن يسموه بذلك. وحيث لم يقصد الإعلام بذلك ، جاء اسمه كما جاء في النداء :﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ (١٢) ،

---

(١)النداء: فيه لغتان: كسر النون، وضمها.

ومعناه لغة: الدعاء.

واصطلاحا: دعاء بحروف مخصوصة، وهي: يا، وأي، وأيَا، وهيا، والهمزة، ووا في الندبة.

وزاد الكوفيون: آ، وآيْ بالمد. وأخبر سيبويه رواية عن العرب أن الهمزة للقريب المصغي، وأن ما سواها للبعيد مسافة أو حكما. توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك (٢ / ١٠٥١) .

(٢) الإتقان للسيوطي ٢٨٢/٢ .

(٣) سورة الأحزاب :١ .

(٤) سورة البقرة :٣١ .

(٥) سورة هود :٤٢-٤٥ .

(٦) سورة الذاريات :٢٤ .

(٧) سورة النازعات :١٥ .

(٨) سورة البقرة :٢٥١ .

(٩) سورة البقرة :٢٥٣.

(١٠) سورة الفتح :٢٩ .

(١١) سورة آل عمران:١٤٤ .

(١٢) سورة التوبة :١٢٨ .

﴿ وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ ﴾ [١] ، ﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡ ﴾ [٢] ، وغير ذلك من الآي.) [٣]

وقد ذكر ابن عاشور في تحريره وجه افتتاح هذه السورة بندائه عليه الصلاة والسلام فقال:(افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ وندائه بوصفه مُؤذِنٌ بأن الأهم من سوق هذه السورة يتعلق بأحوال النبي ﷺ وقد نودي فيها خمس مرات في افتتاح
أغراض مختلفة من التشريع بعضها خاص به وبعضها يتعلق بغيره وله ملابسة له
فالنداء الأول : لافتتاح غرض تحديد واجبات رسالته نحو ربه .
والنداء الثاني : لافتتاح غرض التنويه بمقام أزواجه واقترابه من مقامه . [٤]
والنداء الثالث : لافتتاح بيان تحديد تقلبات شؤون رسالته في معاملة الأمة. [٥]
والنداء الرابع : في طالعَة غرض أحكام تزوجه وسيرته مع نسائه . [٦]
والنداء الخامس : في غرض تبليغه آداب النساء من أهل بيته ومن المؤمنات. [٧]
فهذا النداء الأول افتتح به الغرض الأصلي لبقية الأغراض وهو تحديد واجبات رسالته في تأدية مراد ربه تعالى على أكمل وجه دون أن يفسد عليه أعداء الدين أعماله ، وهو نظير النداء الذي في قوله: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ الآية[٨] ، وقوله:﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ ﴾ الآيات[٩]

---

(١) سورة الفرقان: ٣٠ .

(٢) سورة الأحزاب: ٦ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان :٢٠٩/٧ .

(٤) وهذا في قوله تعالى:"يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا" إلى قوله " واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة إن الله كان لطيفا خبيرا"الأحزاب :٢٨-٣٤ .

(٥) وهذا في قوله :" يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا . وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .إلى قوله " وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا" الأحزاب :٤٥-٤٨ .

(٦) وهذا في قوله : " يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك الاتي آتيت أجورهن وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك وبنات عمك وبنات عماتك .....إلى قوله " ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك وكان الله على كل شيء رقيبا"الأحزاب ٥٠-٥٢ .

(٧) وهذا في قوله تعالى:"يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفورا رحيما" الأحزاب :٥٩ .

(٨) سورة المائدة : ٦٧ .

(٩) سورة المائدة : ٤١ .

ونداء النبي عليه الصلاة والسلام بوصف النبوءة دون اسمه العلم تشريف له بفضل هذا الوصف ليُربأ بمقامه عن أن يخاطب بمثل ما يخاطب به غيره) [١]

وفي الآية أمر للنبي ﷺ بالتقوى مع قيامه بها (وهذا وإن كان معلوماً من حاله ففي أمره به أربعة أوجه :

الأول : أن معنى هذا الأمر الإكثار من اتقاء الله في جهاد أعدائه .

الثاني : استدامة التقوى على ما سبق من حاله .

الثالث : أنه خطاب توجه إليه والمراد به غيره من أمته .

الرابع : أن لنزول هذه الآية سبباً وهو ما روي أن أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور السلمي قدموا المدينة ليجددوا خطاب رسول الله ﷺ في عهد بينه وبينهم فنزلوا عند عبد الله بن أبي بن سلول والجد بن قيس ومعتب بن قشير وائتمروا بينهم وأتوا رسول الله ﷺ فعرضوا عليه أموراً كره جميعها فهمَّ رسول الله ﷺ والمسلمون أن يقتلوهم فأنزل الله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ ﴾ يعني في نقض العهد الذي بينك وبينهم إلى المدة المشروطة لهم .) [٢]

ويعلق ابن كثير – رحمه الله – على أمر الله نبيه بالتقوى فيقول : (هذا تنبيه بالأعلى على الأدنى، فإنه تعالى إذا كان يأمر عبده ورسوله بهذا، فلأن يأتمر من دونه بذلك بطريق الأولى والأحرى.) [٣]

وسورة الطلاق بدأت بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُواْ ٱلْعِدَّةَ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ رَبَّكُمْ ۖ لَا تُخْرِجُوهُنَّ مِنۢ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّآ أَن يَأْتِينَ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ ۚ لَا تَدْرِى لَعَلَّ ٱللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَٰلِكَ أَمْرًا ﴾ [٤]

(الخطاب للنبي ﷺ، خوطب بلفظ الجماعة تعظيما وتفخيما.) [٥]

(ثم خاطب الأمة تبعًا فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ﴾ [٦]

وفي صحيح البخاري بسنده أن عبد الله بن عمر أخبره: أنه طلق امرأة له وهي

---

(١) التحرير والتنوير ٢٤٩/٢١ .

(٢) النكت والعيون للماوردي ٣٦٩/٤ .

(٣) تفسير ابن كثير ٥٦٣/٣ .

(٤) سورة الطلاق: ١ .

(٥) تفسير القرطبي ١٤٩/١٨ .

(٦) تفسير ابن كثير ١٤٢/٨ .

حائض، فذكر عمرُ لرسول الله ﷺ، فتغيظ رسول ﷺ ثم قال: "ليراجعها، ثم يمسكها حتى تطهر، ثم تحيض فتطهر، فإن بدا له أن يطلقها فليطلقها طاهرًا قبل أن يمسها، فتلك العدة التي أمر الله، عز وجل" (١)

هكذا رواه البخاري هاهنا وقد رواه في مواضع من كتابه، ومسلم، ولفظه: "فتلك العدة التي أمر الله أن يطلق لها النساء" (٢)

(وأحكام الطلاق التي وردت في هذه الآية ، تشمل النبي ﷺ كما تشمل جميع المكلفين من أمته ﷺ.

وإنما كان النداء له ﷺ وكان الخطاب بالحكم عاما له ولأمته ، تشريفا وتكريما له ﷺ لأنه هو المبلغ للناس ، وهو إمامهم وقدوتهم والمنفذ لأحكام اللّه – تعالى – فيهم.) (٣)

والقاريء لهذه السورة الكريمة يدرك أنها تدور حول جانب يتعلق بالتشريعات ، والتشريعات لا تؤخذ إلا من الكتاب والسنة ، فناسب أن يكون الخطاب هنا لصاحب السنة ﷺ ولذلك جاء في السورة : ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ قَدْ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْرًا رَّسُولًا يَتْلُواْ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ مُبَيِّنَٰتٍ لِّيُخْرِجَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۚ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَيَعْمَلْ صَٰلِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًاۖ قَدْ أَحْسَنَ ٱللَّهُ لَهُۥ رِزْقًا ﴾(٤)

سورة التحريم

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

براعة استهلالها بنداء النبي ﷺ وعتابه على ما حرم على نفسه مما أحل الله له يتضح من بيان سبب نزول السورة إذ هو المقصود بالنداء

قال الطاهر ابن عاشور: (افتتاح السورة بخطاب النبي ﷺ بالنداء تنبيه على أن ما سيذكر بعده مما يهتم به النبي ﷺ والأمة ولأن سبب النزول كان من علائقه .) (٥)

---

(١) صحيح البخاري ك: التفسير ب: سورة الطلاق ١٥٥/٦ .

(٢) صحيح مسلم ك: الطلاق ب: تحريم طلاق الحائض بغير رضاها ١٠٩٣/٢ .

(٣) التفسير الوسيط د/ سيد طنطاوي ٤٤٠/١٤ .

(٤) سورة الطلاق: ١٠-١١ .

(٥) التحرير والتنوير ٣٤٦/٢٨ .

وقد جاء في سبب النزول روايتان أصحهما:أن عائشة رضي الله عنها أخبرت أن النبي ﷺ كان يمكث عند زينب بنت جحش–رضي الله عنها– ويشرب عندها عسلا فتواصيت أنا وحفصة أن أيتنا دخل عليها النبي ﷺ فلتقل إني أجد فيك ريح مغافير أكلت مغافير، فدخل على إحداهما فقالت له ذلك، فقال: (بل شربت عسلا عند زينب بنت جحش ولن أعود له)، فنزلت: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ ﴾ – إلى– ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ لعائشة وحفصة إذ أسر النبي إلى بعض أزواجه لقوله: (بل شربت عسلا) [1]

وسورة المزمل :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ . قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾

ذكر الرازي أن المفسرين:

(أجمعوا على أن المراد بالمزمل النبي عليه السلام، وأصله المتزمل بالتاء وهو الذي تزمل بثيابه أي تلفف بها، فأدغم التاء في الزاي، ونحوه المدثر في المتدثر، واختلفوا لم تزمل بثوبه؟ على وجوه:

أحدها: قال ابن عباس: أول ما جاءه جبريل عليه السلام خافه وظن أن به مسا من الجن، فرجع من الجبل مرتعدا وقال: زملوني، فبينا هو كذلك إذ جاء جبريل وناداه وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴾

وثانيها: قال الكلبي: إنما تزمل النبي عليه السلام بثيابه للتهيؤ للصلاة وهو اختيار الفراء

وثالثها: أنه عليه السلام كان نائما بالليل متزملا في قطيفة فنودي بما يهجن تلك الحالة، وقيل: يا أيها النائم المتزمل بثوبه قم واشتغل بالعبودية

ورابعها: أنه كان متزملا في مرط لخديجة مستأنسا بها فقيل له: يا أيها المزمل قم الليل كأنه قيل: اترك نصيب النفس واشتغل بالعبودية

وخامسها: قال عكرمة: يا أيها الذي زمل أمرا عظيما أي حمله والزمل الحمل، وازدمله احتمله.) [2]

---

(١) الحديث متفق عليه أخرجه البخاري ك:الطلاق ب: لم تحرم ما أحل الله لك ٢٠١٦/٥ ، ك: الأيمان والنذور ب: إذا حرم طعاما ٢٤٦٢/٦ – ومسلم ك: الطلاق ب: وجوب الكفارة على من حرم امرأته ولم ينو الطلاق ١٨٤/٤ .

(٢) تفسير الرازي ٦٨١/٣٠.

وعن براعة الاستهلال يقول البقاعي :(لما تقدم في آخر الجن من تعظيم الوحي وأن من تعظيمه: حفظ المرسل به من جميع الآفات المفترة عن إبلاغه بما له سبحانه من إحاطة العلم والقدرة، وندب نبيه الذي ارتقاه لرسالته والاطلاع على ما أراده من غيبه ﷺ أول هذه إلى القيام بأعباء النبوة بالمناجاة بهذا الوحي في وقت الأنس والخلوة بالأحباب، والبسط والجلوة لمن دق الباب، للاعتلاء والمتاب، المهيىء لحمل أعباء الرسالة، والمقوي على أثقال المعالجة لأهل الضلالة، فقال معبراً بالأداة الصالحة للقرب والبعد المختصة بأنه لا يقال بعدها إلا الأمور التي هي في غاية العظمة، أشار إلى أنه ﷺ يراد به غاية القرب بالأمور البعيدة عن تناول الخلق بكونها خوارق للعادات ونواقض للمألوفات المطردات، وأما التزمل فهو وإن كان من آلات ذلك إلا أنه من الأمور العادية، فهو دون ما يراد من التهيئة لذلك الاستعداد، وبالتزمل لكونه منافياً للقيام في الصلاة: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ ﴾ أي الذي أخفى شخصه وستر أمره وما أمرناه به – بما أشار إليه التزمل الذي مدلوله التلفف في الثوب على جميع البدن والاختفاء ولزوم مكان واحد، ولأنه يكون منطرحاً على الأرض كما قال ﷺ في قتلى أحد – «زملوهم بثيابهم ودمائهم»[1] مع الإشارة إلى الإخفاء أيضاً بإدغام تاء التفعل، وربما أشار الإدغام إلى أن الستر بالثوب لم يعم جميع البدن، كما يأتي في المدثر على أن فيه مع ذلك إشارة إلى البشارة بالقوة على حمل أعباء ما يراد به، من قولهم: زمل الشيء – إذا رفعه وحمله، والازدمال: احتمال الشيء) [2]

وإذا اعتبرنا ما قاله الأستاذ سيد قطب يتقرر الأمر ويتأكد حيث قال:

(يروى في سبب نزول هذه السورة أن قريشا اجتمعت في دار الندوة تدبر كيدها للنبي ﷺ وللدعوة التي جاءهم بها. فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فاغتم له والتف بثيابه وتزمل ونام مهموما. فجاءه جبريل عليه السلام بشطر هذه السورة الأول ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴾ إلخ»[3]

وآيات السورة الكريمة تبين حجم الدور المنوط بالنبي ﷺ ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلۡقِي عَلَيۡكَ قَوۡلٗا ثَقِيلًا ﴾ [1] وقولـــه:﴿ وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ﴾ [2] فاقتضى بيان التناسب بين سورة المزمل والجن وما جاء في آيات سورة

---

(١) مسند الشافعي بترتيب السندي الباب الثالث والعشرون في صلاة الجنائز ٢٠٤/١.

(٢) نظم الدرر للبقاعي ١/٢١-٢-٣ .

(٣) في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب ٣٧٤١/٦ .

المزمل بهذا البدء الذي يوحي بثقل الأمر الذي يقوم به نبينا ﷺ .

وسورة المدثر ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنذِرْ ﴾

أخرج البخاري ومسلم في صحيحيهما سبب نزول صدر سورة المدثر ، قال البخاري حدثنا يحيى حدثنا وكيع عن علي بن المبارك عن يحيى بن أبي كثير : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول ما نزل من القرآن قال{يا أيها المدثر} . قلت يقولون { اقرأ باسم ربك الذي خلق } . فقال أبو سلمة سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ذلك وقلت له مثل الذي قلت، فقال جابر: لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله ﷺ قال: (جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئا ونظرت عن شمالي فلم أر شيئا ونظرت أمامي فلم أر شيئا ونظرت خلفي فلم أر شيئا فرفعت رأسي فرأيت شيئا فأتيت خديجة فقلت دثروني وصبوا علي ماء باردا قال فدثروني وصبوا علي ماء باردا قال فنزلت

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴾ (٣)

والأمر بالإنذار عقيب الأمر بالقيام له دلالة في بيان براعة الاستهلال هنا حيث إن سبب النزول مع السياق العام للسورة ، فسبب النزول يشير إلى بيان ثقل المهمة التي كلف بها نبينا ﷺ وسياق السورة يوضح طبيعة المدعويين، وهذان أمران يشقان على النفس، ويدخلان عليها رهبة تقتضي التدثر فرقا منهما،

وطبيعة هؤلاء المدعويين وضحتها السورة في مواطن منها:

﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا وَبَنِينَ شُهُودًا وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِـَٔايَٰتِنَا عَنِيدًا إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ (٤)

وفي قوله عنهم: ﴿ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ (١)

---

(١) سورة المزمل :٥ .

(٢) سورة المزمل:١٠ .

(٣) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه ك: التفسير ب: سورة المدثر ١٨٧٥/٤ ، ومسلم في ك: الإيمان ب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١/ ١٤٣. ولا تعارض بين هذا وما جاء في الصحيح أيضا من بيان أولية سورة العلق إذ أولية العلق أولية مطلقة، وأولية المدثر أولية مخصوصة حيث إنها أول سورة نزلت بتمامها، والله أعلم.

(٤) سورة المدثر :١١:٢٤ .

وفي قوله : ﴿ فَمَا لَهُمْ عَنِ ٱلتَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُّسْتَنفِرَةٌ فَرَّتْ مِن قَسْوَرَةٍ بَلْ يُرِيدُ كُلُّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً كَلَّا بَل لَّا يَخَافُونَ ٱلْآخِرَةَ ﴾ (٢)

وعليه فبداية السورة يتفق تماما مع سياقها العام وبراعة الاستهلال فيها بادية .

والسور التي بدأت بنداء الأمة خمس ، والنداء فيها نوعان ، نوع بـ(يا أيها الناس)، والآخر بـ (يا أيها الذين آمنوا)

أما النوع الأول فسورتان:

الأولى: سورة النساء والثانية سورة الحج:

وسورة النساء بدأت بقوله:﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ (٣)

وسورة الحج بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ﴾ (٤)

وقد ذكر البقاعي – رحمه الله – من أوجه المناسبة بين السورتين ما يوضح براعة الاستهلال بما استهلت به كل سورة فقال: (وقد جعل سبحانه الأمر بالتقوى مطلعاً لسورتين: النساء وهي رابعة النصف الأول، والحج وهي رابعة النصف الثاني، وعلل الأمر بالتقوى في هذه بما دل على كمال قدرته وشمول علمه وتمام حكمته من أمر المبدإ، وعلل ذلك في الحج بما صور المعاد تصويراً لا مزيد عليه، فدل فيها على المبدإ والمعاد تنبيهاً على أنه محط الحكمة، ما خلق الوجود إلا لأجله، لتظهر الأسماء الحسنى والصفات العلى أتم ظهور يمَكّن البشر الاطلاع عليه، ورتب ذلك على الترتيب الأحكم، فقدم سورة المبدإ على سورة المعاد لتكون الآيات المتلوة طبق الآيات المرئية، وأبدع من ذلك كله وأدق أنه لما كان أعظم مقاصد السورة الماضية المجادلة في أمر عيسى – يعني آل عمران–، وأن مثله كمثل آدم عليهما الصلاة والسلام، وكانت حقيقة حاله أنه ذكرٌ يولّد من أنثى فقط بلا واسطة

ذكر؛ بيّن في هذه السورة بقوله – عطفاً على ما تقديره جواباً لمن كأنه قال: كيف كان ذلك؟ – إنشاء تلك النفس) (١)

---

(١) سورة المدثر :٤٣:٤٧ .

(٢) سورة المدثر : ٤٩:٥٣ .

(٣) سورة النساء :١ .

(٤) سورة الحج: ١ .

والنداء بالناس فيهما لعلة ظاهرة وهي أن كل الناس مؤمنهم وكافرهم خلقوا من نفس واحدة كما أظهرت سورة النساء، فهم أبناء أم واحدة وأب واحد وإن اختلفت لغاتهم وألوانهم وعقائدهم ولعل تذكيرهم بذلك يدفعهم إلى الإيمان بمن قدر على خلقهم بهذه الصورة ، ثم إن زلزلة الساعة التي أشارت إليها سورة الحج لاتغادر أحدا ،وهي شيء عظيم على المؤمن، فما ظنك بغيره، فناسب أن يكون النداء للناس حتى لا يكون هناك حجة لأحد يوم القيامة أنه ما نودي وما أنذر .

والتقوى حينما تكون مع الإنسان من مبدئه إلى معاده يفوز وينعم فناسب أن يكون البدء بالأمر بها غاية الحسن.

أما السور التي بدات بالنداء للمؤمنين فثلاث:

المائدة ، والحجرات ، والممتحنة .

بدأت سورة المائدة بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ ﴾ (٢)

(تصدير السورة بالأمر بالإيفاء بالعقود مؤذن بأن سترد بعده أحكام وعقود كانت عقدت من الله على المؤمنين إجمالا وتفصيلا، ذكرهم بها لأن عليهم الإيفاء بما عاقدوا الله عليه.) (٣)

وقد ذكر المفسرون أن هذه السورة مليئة بالأحكام التي يتوجب على المؤمن القيام بها ، ومنها :قَوْلُـــهُ: ﴿ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ ﴾ "(٤)، وقولـــه: "﴿ وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ وَمَآ أَكَلَ ٱلسَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيۡتُمۡ وَمَا ذُبِحَ عَلَى ٱلنُّصُبِ وَأَن تَسۡتَقۡسِمُواْ بِٱلۡأَزۡلَٰمِۚ ذَٰلِكُمۡ فِسۡقٌۗ ﴾ (٥)،وقولـــه: ﴿ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن ﴾ (٦)، وَتَمَامُ الطُّهُورِ فِي قَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ إِلَى ٱلۡكَعۡبَيۡنِۚ وَإِن كُنتُمۡ جُنُبٗا فَٱطَّهَّرُواْۚ وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدٗا طَيِّبٗا فَٱمۡسَحُواْ

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٧٣/٥-١٧٤ .

(٢) سورة المائدة: ١ .

(٣) التحرير والتنوير ٧٤/٦ .

(٤) سورة المائدة: ١ .

(٥) سورة المائدة: ٣ .

(٦) سورة المائدة: ٥ .

بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ (١)،وقوله: ﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢)،وقوله: ﴿ لَا تَقْتُلُواْ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ﴾ (٣)الآية،وقوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ (٤)، وَقَوْلُهُ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ شَهَٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ ﴾ (٥). وقوله عز وجل: ﴿ وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ ٱتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ﴾ (٦) ليس للأذان ذكر في القرآن إلا في هذه السورة، أما ما جاء في سورة" الجمعة" فمخصوص بالجمعة،وهو في هذه السورة عام لجميع الصلوات) (٧)

ولو صح الأثر الذي ذكره السمرقندي في تفسيره وغيره من المفسرين وهو الذي ساق إسناده إلى جبير بن نفير قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقالت: هل تقرأ سورة المائدة؟ فقلت: نعم. قالت: فإنها من آخر ما أنزل الله على نبيه، فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه.) (٨)

فهو يؤكد ما سبق، وهذا النداء كالعهد على الناس أن لا يفرطوا في هذه الأوامر وغيرها لأنها كالعهد بينهم وبين ربهم سبحانه وتعالى.

وسورة الحجرات:

بدأت بقوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (٩)

(انفردت هذه السورة بآداب جليلة، أدّب الله بها عباده المؤمنين فيما يعاملون به نبيّه ﷺ ، من التوقير والتبجيل.) (١)

---

(١) سورة المائدة : ٦ .
(٢) سورة المائدة: ٣٨ .
(٣) سورة المائدة: ٩٥ .
(٤) سورة المائدة :١٠٣ .
(٥) سورة المائدة :١٠٦ .
(٦) سورة المائدة: ٥٨ .
(٧) معالم التنزيل للبغوي ٥/٢ وتفسير القرطبي ٣٠/٦-٣١ .
(٨) بحر العلوم للسمرقندي ٣٦٤/١ . وهذا الأثر لم أقف عليه إلا عنده وعند القرطبي في تفسيره ٣١/٦ .
(٩) سورة الحجرات : ١ .

(وَمُنَاسَبَتُهَا لِآخِرِ مَا قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّهُ ذِكْرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وأصحابه، ثُمَّ قَالَ: ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [٢]،فَرُبَّمَا صَدَرَ مِنَ الْمُؤْمِنِ عَامِلِ الصَّالِحَاتِ بَعْضُ شَيْءٍ مِمَّا يَنْبَغِي أَنْ يُنْهَى عنه، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [٣]

وآيات السورة الكريمة ملأى بالآداب والوصايا الإلهية الداعمة لحياة كريمة ،

وتلك الأوامر لا تصدر إلا ممن يملك التشريع وهو الخالق سبحانه ، وما جاء على لسان المعصوم ﷺ ، فناسب ذلك أن يكون البدء بالنداء إلى المؤمنين أن لا يقدموا بين يدي الله سبحانه ورسوله ﷺ لأنهم المعنيون بالأمر كما أن سبب النزول يحدد ذلك فقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث ابن أبي ملكية قال: كاد الخيّران أن يهلكا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع وأشار الآخر برجل آخر قال نافع لا أحفظ اسمه فقال أبو بكر لعمر ما أردت إلا خلافي قال ما أردت خلافك فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ ﴾. الآية . قال ابن الزبير فما كان عمر يسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه.) [٤]

سورة الممتحنة:

بدأت هذه السورة الكريمة بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَٰدًا فِي سَبِيلِي وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [٥]

هذه السورة تظهر فيها براعة الاستهلال من اسمها فهي تسمى الممتحنة

---

(١) محاسن التأويل للقاسمي ٥١٤/٨ .

(٢) سورة الفتح :٢٩ .

(٣) البحر المحيط لأبي حيان ٥٠٦/٩ .

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ك: التفسير ب: سورة الحجرات ١٨٣٣/٤ .

(٥) سورة الممتحنة : ١ .

("بكسر الحاء" أي المختبرة، أضيف الفعل إليها مجازا، كما سميت سورة" براءة" المبعثرة والفاضحة، لما كشفت من عيوب المنافقين. ومن قال في هذه السورة: الممتحنة "بفتح الحاء" فإنه أضافها إلى المرأة التي نزلت فيها، وهي أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط، قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ ﴾ الآية . وهي امرأة عبد الرحمن بن عوف، ولدت له إبراهيم بن عبد الرحمن.) (١)

فهي تدور حول امتحان النفوس فيما أُمرت به، والآية الأولى منها تنهى عن اتخاذ الأعداء في الدين أولياء ، وقد تقرر هذا الأمر في مواطن كثيرة من القرآن الكريم كما في قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ . فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴾ (٢)

وفي قوله : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣)

وفي قوله تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمْ وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّواْ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ (٤)

وهذا الامتحان لابد وأن يكشف عن صدق النفوس وصلابتها وعدم ميلها لمغريات الأعداء الذين لا يريدون خيرا للمؤمنين ويسعون في الأرض فسادا وقد نقل صاحب محاسن التأويل في كتابه ما يؤكد هذا حيث قال: (سميت بها لدلالة آية الامتحان على أنه لا يكتفي في باب الصحة بظواهر الأدلة كالهجرة، بل لا بد من اختبار البواطن. فدلائل الاعتقادات أولى بذلك. وهذا من أعظم مقاصد القرآن.) (٥)

كما أن أغراض السورة التي تدور في فلكها تُظهر براعة استهلالها أيضا ، وقد أشار الطاهر ابن عاشور إلى هذا فقال: (اشتملت من الأغراض على تحذير المؤمنين من

---

(١) تفسير القرطبي ٤٩/١٨ .
(٢) سورة المائدة : ٥١-٥٢ .
(٣) سورة المائدة: ٥٧ .
(٤) سورة التوبة :٢٣ .
(٥) محاسن التأويل للقاسمي ٩/ ١٩٩ .

اتخاذ المشركين أولياء مع أنهم كفروا بالدين الحق وأخرجوهم من بلادهم.وإعلامهم بأن اتخاذهم أولياء ضلال وأنهم لو تمكنوا من المؤمنين لأساءوا
إليهم بالفعل والقول، وأن ما بينهم وبين المشركين من أواصر القرابة لا يعتد به تجاه العداوة في الدين، وضرب لهم مثلا في ذلك قطيعة إبراهيم لأبيه وقومه.
وأردف ذلك باستثناس المؤمنين برجاء أن تحصل مودة بينهم وبين الذين أمرهم الله بمعاداتهم أي هذه معاداة غير دائمة.
وأردف بالرخصة في حسن معاملة الكفرة الذين لم يقاتلوا المسلمين قتال عداوة في دين ولا أخرجوهم من ديارهم. وهذه الأحكام إلى نهاية الآية التاسعة.
وحكم المؤمنات اللائي يأتين مهاجرات واختبار صدق إيمانهن وأن يحفظن من الرجوع إلى دار الشرك ويعوض أزواجهن المشركون ما أعطوهن من المهور ويقع التراد كذلك مع المشركين.
ومبايعة المؤمنات المهاجرات ليعرف التزامهن لأحكام الشريعة الإسلامية. وهي الآية الثانية عشرة .
وتحريم تزوج المسلمين المشركات وهذا في الآيتين العاشرة والحادية عشرة.
والنهي عن موالاة اليهود وأنهم أشبهوا المشركين وهي الآية الثالثة عشرة.) [1]
وسبب النزول يبين اختصاص المؤمنين بالنداء حيث إنها نزلت في أمر حاطب ابن أبي بلتعة ،أخرج البخاري بسنده من حديث عبيد الله بن أبي رافع، كاتب علي، يقول: سمعت عليا ﷺ ، يقول بعثني رسول الله ﷺ أنا والزبير والمقداد، فقال: «انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ، فإن بها ظعينة معها كتاب فخذوه منها» فذهبنا تعادى بنا خيلنا حتى أتينا الروضة، فإذا نحن بالظعينة، فقلنا: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي من كتاب، فقلنا: لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب، فأخرجته من عقاصها، فأتينا به النبي ﷺ ، فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين ممن بمكة، يخبرهم ببعض أمر النبي ﷺ ، فقال النبي ﷺ: «ما هذا يا حاطب؟» قال: لا تعجل علي يا رسول الله، إني كنت امرأ من قريش، ولم أكن من أنفسهم، وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم بمكة، فأحببت إذ فاتني من النسب فيهم، أن أصطنع إليهم يدا يحمون قرابتي، وما فعلت ذلك كفرا، ولا ارتدادا عن ديني، فقال النبي ﷺ : «إنه قد صدقكم» فقال عمر: دعني يا رسول الله فأضرب عنقه،

(١) التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ١٣١/٢٨-١٣٢ .

فقال: " إنه شهد بدرا وما يدريك؟ لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم " قال عمرو: ونزلت فيه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ ﴾ (١)

وأيضا حملا لهم على إجابة الأمر فمن شأن المؤمن أن يقول لأمر الله ورسوله "سمعنا وأطعنا"

المطلب الرابع: السور المفتتحة بالجمل الخبرية: (٢)

(الجمل الخبرية نحو: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ﴾(٣) ﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٤)،﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ﴾(٥)، ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ ﴾(٦) ، ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾(٧) ، ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا ﴾ (٨) ، ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ

---

(١) صحيح البخاري ك: التفسير ب: لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء ١٤٩/٦ .

(٢)(الجملة الخبرية، هي الجملة الّتي اشتملت على خَبَرٍ مَا، فَمَضْمُونُها إخبارٌ عن أَمْرٍ ما، إيجاباً أوْ سَلْباً.

والقصدُ منها الإعْلاَمُ بأنَّ الْحُكْمَ الّذي اشتملت عليه له واقعٌ خارجَ العبارة الكلاميّة مطابقٌ له.

والجملة الإنشائيّة، وهي الجملة الّتي لم تشتملْ على خَبَرٍ، وإنَّما أنشأَ النُّطْقُ بِهَا حدَثاً ما، كإنْشاءِ طَلَبِ الفعل، إذا قُلْتَ لابْنِك: اسْقِنِي، أو قُلْتَ لَهُ: اجْتَهِدْ، أو لا تَكْسَلْ، وكإنْشاء طلَب الْفَهم، إذا قلْتَ للفقيه: هلْ يجوز أن أفعل كذا؟ أو ما حكمُ كذا شرعاً. ونحو ذلك.

فليس القصد من الجملة الإنشائيّة الإعلامَ بنسبةٍ حكميّةٍ تحقَّقَتْ أوْ لم تتحقَّقْ في الواقع، وإنْ كان يلزم عقلاً منْ إيراد الجملة الإنشائيّة فَهْمُ قضايا وجُمَلٍ خبريَّةٍ أُخْرَى لا تَدُلُّ عليها الجملة الإنشائيّةُ بمنطُوقِها دَلالَةً مُبَاشِرة، بل تَدُلُّ عليها باللُّزوم الذهني.

كدلالة الجملة الاستفهاميّة على أنَّ المستَفْهِمَ جاهلٌ يطلبُ الفهمَ، وكدلالة جملة التَّمَنِّي على أنّ من أنشأها يتمنّى في نفسه ما دَلّت عليه عبارَتُه، وكدلالة جملة المدح على أنّ المادح بها يُعَبِّرُ بصِدْقٍ عمّا في نفسه.

إلى غير ذلك من دلالات خبريّة تُستفاد باللّزوم الذهني من الْجُمَلِ الإنْشَائيّة.)

البلاغة العربية د/ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ١٦٦/١-١٧٦.ط: دار القلم دمشق الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.

(٣) سورة الأنفال:١ .

(٤) سورة التوبة: ١ .

(٥) سورة النحل : ١ .

(٦) سورة الأنبياء: ١ .

(٧) سورة المؤمنون: ١ .

(٨) سورة النور: ١ .

ٱلْحَكِيمِ ﴾[1] ، ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[2]،﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾[3] ،﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾[4] ،
﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ﴾[5] ، ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾[6] ،
﴿ ٱلْحَآقَّةُ ﴾[7] ، ﴿ سَأَلَ سَآئِلٌۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾[8] ، ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ ﴾[9] ، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ﴾[10] ، ﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[11] ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾[12] ،﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى ٱلْقَدْرِ ﴾[13] ،﴿ لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾[14] ،
﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾[15] ، ﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾[16] ، ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ﴾[17] فتلك ثلاث وعشرون سورة) [18]

الأولى: سورة الأنفال:

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُواْ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [19]

---

(١) سورة الزمر: ١ .
(٢) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : ١ .
(٣) سورة الفتح : ١ .
(٤) سورة القمر : ١ .
(٥) سورة الرحمن: ١ .
(٦) سورة المجادلة: ١ .
(٧) سورة الحاقة: ١ .
(٨) سورة المعارج : ١ .
(٩) سورة نوح عليه السلام : ١ .
(١٠) سورة القيامة: ١ .
(١١) سورة البلد: ١ .
(١٢) سورة عبس : ١ .
(١٣) سورة القدر: ١ .
(١٤) سورة البينة: ١ .
(١٥) سورة القارعة: ١ .
(١٦) سورة التكاثر: ١ .
(١٧) سورة الكوثر: ١ .
(١٨) البرهان في علوم القرآن للزركشي ١/١٧٩ .
(١٩) سورة الأنفال: ١ .

المعلوم أن سورة الأنفال تحدثت عن غزوة بدر حديثا موسعا ، وأراد الله سبحانه النصر للمسلمين على قريش، وكان من آثار ذلك النصر العظيم الغنائم التي جاءت بها قريش، وكانت تلك الأنفال مثار جدل كبير بين المسلمين ، وقد ذكر المفسرون في سبب نزول هذه الآية التي استهلت بها السورة ثلاثة أقوال:

أحدها: أن رسول الله ﷺ قال يوم بدر: «من قتل قتيلاً فله كذا وكذا، ومن أسر أسيراً فله كذا وكذا» ، فأما المشيخة، فثبتوا تحت الرايات، وأما الشبان، فسارعوا إلى القتل والغنائم، فقال المشيخة للشبان: أشركونا معكم، فإنا كنا لكم ردءاً فأبوا، فاختصموا إلى رسول الله ﷺ، فنزلت سورة (الأنفال) ، رواه عكرمة عن ابن عباس.

والثاني: أن سعد بن أبي وقاص أصاب سيفاً يوم بدر، فقال: يا رسول الله، هبه لي، فنزلت هذه الآية، رواه مصعب بن سعد عن أبيه. وفي رواية أخرى عن سعد قال: قتلت سعيد بن العاص، وأخذت سيفه فأتيت به رسول الله، فقال: «اذهب فاطرحه في القَبَض» فرجعت، وبي ما لا يعلمه إلا الله فما جاوزت إلا قريبا حتى نزلت سورة (الأنفال) ، فقال: «اذهب فخذ سيفك» .

وقال السدي: اختصم سعد وناس آخرون في ذلك السّيف، فسألوا النبيّ ﷺ، فأخذه النبيّ ﷺ منهم، فنزلت هذه الآية.

والثالث: أن الأنفال كانت خالصة لرسول الله ﷺ، ليس لأحد منها شيء، فسالوه أن يعطَيهم منها شيئاً، فنزلت هذه الآية، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس.) [1]

وسبب النزول يظهر أن خلافا شديدا ظهر في الصف المسلم بسبب الغنائم، والنفس الإنسانية تحب المال حبا جما، ﴿ وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ﴾ [2] فاراد سبحانه أن ينزع هذا الخلاف من بين المسلمين، فأنزل هذه الآيات التي ترشدهم إلى ما ينبغي فعله مع هذا المال ، وهذه السورة تدور معظم آياتها حول هذه الغزوة، فناسب أن تستهل بما استهلت به.

الثانية : سورة التوبة.

﴿ بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [3]

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي ٢/١٨٦-١٨٧ .

(٢) سورة العاديات :٨ .

(٣) سورة التوبة: ١.

هذه السورة سميت بأسماء عدة من بينها (الفاضحة، لأنها فضحت المنافقين.) [١]
فناسب أن تكون البداية معلنة البراءة من هؤلاء المنافقين الذين هم أشد خطرا على المجتمع المسلم من المشركين، وإلا لما كانوا في الدرك الأسفل من النار كما قال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴾[٢]
وفي سبب نزول السورة كما ذكر ابن الجوزي ما يؤكد هذا المعنى:
(قال المفسرون: أخذت العرب تنقض عهوداً بَنَتْها مع رسول الله ﷺ فأمره الله تعالى بالقاء عهودهم إليهم، فأنزل براءة في سنة تسع، فبعث رسول الله أبا بكر أميراً على الموسم ليقيم للناس الحج في تلك السنة، وبعث معه صدراً من (براءة) ليقرأها على أهل الموسم، فلما سار دعا رسول الله ﷺ علياً، فقال: «اخرج بهذه القصة من صدر براءة وأذِّن في الناس بذلك» ، فخرج عليٌّ على ناقة رسول الله ﷺ العضباء حتى أدرك أبا بكر، فرجع أبو بكر فقال: يا رسول الله، أُنزِل في شأني شيء؟
قال: «لا، ولكن لا يبلغ عني إلا رجل مني، أما ترضى أنك كنتَ صاحبي في الغار، وأنك صاحبي على الحوض» ؟ قال: بلى يا رسول الله. فسار أبو بكر أميراً على الحج، وسار علي ليؤذِّن بـ «براءة») [٣]
وقال الطاهر ابن عاشور:(افتتحت السورة كما تفتتح العهود وصكوك العقود بأدل كلمة على الغرض الذي يراد منها كما في قولهم: هذا ما عهد به فلان، وهذا ما اصطلح عليه فلان وفلان، وقول الموثقين: باع أو وكل أو تزوج، وذلك هو مقتضى الحال في إنشاء الرسائل والمواثيق ونحوها.) [٤]

الثالثة: سورة النحل:

﴿ أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [٥]
(قوله تعالى: أَتى أَمْرُ اللَّهِ أي يوم القيامة. ويقال: يعني، العذاب. كقوله: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ ﴾ [٦] وقوله: ﴿ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا ﴾ [٧] أي: أتى أمر الله،

(١) بحر العلوم للسمرقندي ٣٧/٢ .
(٢) سورة النساء:١٤٥ .
(٣) زاد المسير في علم التفسير لابن الجوزي ٢٣١/٢-٢٣٢ .
(٤) التحرير والتنوير ١٠٢/١٠ .
(٥) سورة النحل: ١ .
(٦) سورة هود: ٤٠ .
(٧) سورة يونس:٢٤ .

بمعنى: يأتي، أي: هو قريب لأن ما هو آتٍ آتٍ، وهذا وعيد لهم إنها كائنة. وقال ابن عباس:لما نزلت هذه الآية ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾ ثم نزل بعدها ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾ قالوا: يا محمد تزعم أن الساعة قد اقتربت ولا نرى من ذلك شيئاً، فنزل: ﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾أي:عذاب الله، فوثب رسول الله ﷺ قائماً لا يشك أن العذاب قد أتاهم، فقال لهم جبريل:﴿ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ ﴾قال: فجلس النبيّ ﷺ بعد قيامه، ثم قال: ﴿ سُبۡحَٰنَهُۥ ﴾ نزه نفسه عن الولد، والشريك.) [1]

و(افتتح هذه باسم الأعظم الجامع لجميع معاني الأسماء لأن ذلك أليق بمقام التهديد، ولما ستعرفه من المعاني المتنوعة في أثناء السورة، وسيكرر هذا الاسم فيها تكريراً تعلم منه صحة هذه الدعوى، وعبر عن الآتي بالماضي إشارة إلى تحققه تحقق ما وقع ومضى، وإلى أن كل آتٍ ولا بد قريب، فقال تعالى:﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ ﴾ أي الملك الأعظم الذي له الأسماء الحسنى، والصفات العلى، بما يذل الأعداء، ويعز الأولياء، ويشفي صدورهم، ويقر أعينهم.) [2]

ويشير الطاهر ابن عاشور إلى براعة الاستهلال في هذه السورة قائلا:(لما كان معظم أغراض هذه السورة زجر المشركين عن الإشراك وتوابعه وإنذارهم بسوء عاقبة ذلك، وكان قد تكرر وعيدهم من قبل في آيات كثيرة بيوم يكون الفارق بين الحق والباطل فتزول فيه شوكتهم وتذهب شدتهم. وكانوا قد استبطأوا ذلك اليوم حتى اطمأنوا أنه غير واقع فصاروا يهزأون بالنبي– ﷺ– والمسلمين فيستعجلون حلول ذلك اليوم.

صدرت السورة بالوعيد المصوغ في صورة الخبر بأن قد حل ذلك المتوعد به.

فجيء بالماضي المراد به المستقبل المحقق الوقوع بقرينة تفريع فلا تستعجلوه، لأن النهي عن استعجال حلول ذلك اليوم يقتضي أنه لما يحل بعد.) [3]

الرابعة: سورة الأنبياء:

﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ﴾

(قوله عز وجل: ﴿ ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ ﴾أي اقترب منهم ، وفيه قولان: أحدهما: قرب وقت عذابهم ، يعني أهل مكة ، لأنهم استبطؤوا ما وُعِدوا به من العذاب تكذيباً ، فكان قتلهم يوم بدر ، قاله الضحاك.

---

(١) بحر العلوم للسمرقندي ٢/٢٦٥ .

(٢) نظم الدرر ١١/١٠٢ .

(٣) التحرير والتنوير ١٤/٩٦ .

الثاني: قرب وقت حسابهم وهو قيام الساعة.
وفي قربه وجهان: أحدهما: لا بُد آت ، وكل آت قريب.
الثاني: لأن الزمان لكثرة ما مضى وقلة ما بقي قريب.) [١]
وهذه السورة سميت بسورة الأنبياء(لاشتمالها على فضائل جليلة، لجماعة منهم عليهم السلام) [٢]
وقد(ذكر فيها أسماء ستة عشر نبيا ومريم ولم يأت في سور القرآن مثل هذا العدد من أسماء الأنبياء في سورة من سور القرآن عدا ما في سورة الأنعام. فقد ذكر فيها أسماء ثمانية عشر نبيا في قوله تعالى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ ۚ نَرْفَعُ دَرَجَٰتٍ مَّن نَّشَآءُ ۗ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [٣] فإن كانت سورة الأنبياء هذه نزلت قبل سورة الأنعام فقد سبقت بالتسمية بالإضافة إلى الأنبياء وإلا فاختصاص سورة الأنعام بذكر أحكام الأنعام أوجب تسميتها بذلك الاسم فكانت سورة الأنبياء أجدر من بقية سور القرآن بهذه التسمية، على أن من الحقائق المسلمة أن وجه التسمية لا يوجبها.) [٤]
ومعلوم أن مهمة الأنبياء تنحصر في غايتين أظهرهما القرآن الكريم في قوله:﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [٥]
ولما كانت الكثرة الكاثرة مُعرضة كما قال ربنا:﴿ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [٦] وقال: ﴿ لَقَدْ جِئْنَٰكُم بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾ [٧] ناسب أن يستهل السورة التي تتحدث عن مواقف عدة مع هؤلاء الأقوام من أنبيائهم بالتحذير الشديد الذي يعلمهم قرب وقت حسابهم .

(١) النكت والعيون ٤٣٥/٣ .
(٢) محاسن التأويل للقاسمي ١٧٢/٧ .
(٣) سورة الأنعام: ٨٣-٨٦ .
(٤) التحرير والتنوير ٥/١٧ .
(٥) سورة الأنعام:٤٨ .
(٦) سورة المؤمنون:٧٠ .
(٧) سورة الزخرف: ٧٨ .

و(افتتاح الكلام بهذه الجملة أسلوب بديع في الافتتاح لما فيه من غرابة الأسلوب وإدخال الروع على المنذَرين، فإن المراد بالناس مشركوا مكة[1] ، والاقتراب مبالغة في القرب، فصيغة الافتعال الموضوعة للمطاوعة مستعملة في تحقق الفعل أي اشتد قرب وقوعه بهم.) [2]

الخامسة: سورة المؤمنون:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [3]

تظهر براعة الاستهلال في تلك السورة من زاويتين :

الأولى: بيان مناسبتها بالتي قبلها.

الثانية : بيان قضاياها وأغراضها.

(وَمُنَاسَبَتُهَا لِآخِرِ السُّورَةِ قَبْلَهَا ظَاهِرَةٌ لِأَنَّهُ تَعَالَى خَاطَبَ الْمُؤْمِنِينَ بِقَوْلِهِ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [4]وَذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ التَّرْجِيَةِ فَنَاسَبَ ذَلِكَ قَوْلَهُ ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ إِخْبَارًا بِحُصُولِ مَا كَانُوا رَجَوْهُ مِنَ الْفَلَاحِ.) [5]

أكد هذا المعنى صاحب البحر المديد حينما أشار إلى مناسبتها وقضاياها معا فقال: (مناسبة افتتاح السورة بالفلاح أنه قال فيما قبلها: ﴿ ٱرْكَعُواْ وَٱسْجُدُواْ وَٱعْبُدُواْ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُواْ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ على سبيل الرجاء، وحققه هنا بشرطه في الجملة، ثم لمّا ذكر وراثة المتصف بتلك الأوصاف للفردوس، وذلك يتضمن المعاد، ذكر النشأة الأولى دلالة على صحته، أي: المعاد، ثم لمّا ذكر ابتداء خلق الإنسان وانتهاء أمره ذكّره بنعمه، فقال: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ فَأَنشَأْنَا لَكُم بِهِۦ جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ الآيات، ولمّا كانت هذه النعم على الإنسان تقتضي منه الشكر بالطاعة والتوحيد للكريم المنّان، ثم إن أصنافا من الكفرة قابلوها بالكفران، فلذلك ذكر قصصهم بعد ذكرها، بقوله:

---

(١) والعبرة كما هو معلوم بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فيدخل في كفار مكة كل من كان على شاكلتهم.

(٢) التحرير والتنوير ٨/١٧ .

(٣) سورة المؤمنون: ١ .

(٤) سورة الأنبياء : ٧٧ .

(٥) البحر المحيط لأبي حيان ٥٤٥/٧-٥٤٦ .

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ فهذا ما تضمنته السورة من الترتيب، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾)[1]

وقد ذكر الطاهر ابن عاشور كعادته القضايا التي تدور حولها السورة وبراعة استهلالها بما استهلت به فقال:(هذه السورة تدور آيها حول محور تحقيق الوحدانية وإبطال الشرك ونقض قواعده، والتنويه بالإيمان وشرائعه. فكان افتتاحها بالبشارة للمؤمنين بالفلاح العظيم على ما تحلَّوا به من أصول الفضائل الروحية والعلمية التي بها تزكية النفس واستقامة السلوك.) [2]

السادسة: سورة النور:

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَٰهَا وَفَرَضْنَٰهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَآ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ [3]

ذكر الماوردي في تفسيره سر افتتاح هذه السورة بما افتتحت به فقال:(يحتمل أن يكون قد خصها بهذا الافتتاح لأمرين: أحدهما: أن المقصود الزجر والوعيد فافتتحت بالرهبة كسورة التوبة.

الثاني: أن فيها تشريفاً للنبي ﷺ بطهارة نسائه) [4]

و (يدل هذا البدء الفريد على مدى اهتمام القرآن بالعنصر الخلقي في الحياة، ومدى عمق هذا العنصر وأصالته في العقيدة الإسلامية، وفى فكرة الإسلام عن الحياة الإنسانية..والمحور الذي تدور عليه السورة كلها هو محور التربية التي تشتد في وسائلها إلى درجة الحدود. وترق إلى درجة اللمسات الوجدانية الرفيقة، التي تصل القلب بنور الله وبآياته المبثوثة في تضاعيف الكون وثنايا الحياة. والهدف واحد في الشدة واللين. هو تربية الضمائر، واستجاشة المشاعر ورفع المقاييس الخلقية للحياة، حتى تشف وترف، وتتصل بنور الله.. وتتداخل الآداب النفسية الفردية، وآداب البيت والأسرة، وآداب الجماعة والقيادة. بوصفها نابعة كلها من معين واحد هو العقيدة في الله، متصلة كلها بنور واحد هو نور الله. وهي في صميمها نور وشفافية، وإشراق وطهارة. تربية عناصرها من مصدر النور الأول في السماوات والأرض. نور الله الذي

---

(١) البحر المديد لابن عجيبة الحسني ٣/ ٥٦١.

(٢) التحرير والتنوير ٦/١٨ .

(٣) سورة النور : ١ .

(٤) النكت والعيون للماوردي ٤/ ٧٠ . ووجه تشريف النبي بطهارة نسائه ما جاء في تلك السورة من براءة السيدة الطاهرة المطهرة عائشة بنت الصديق رضي الله عنها وأرضاها.

أشرقت به الظلمات. في السماوات والأرض، والقلوب والضمائر، والنفوس والأرواح.) (١)

ولما كان أمر الطهارة الخلقية التي تقود المجتمع إلى أعلى درجات الخير أكد الله في مطلع تلك السورة على أن تلك السورة منزلة منه مفروض ما فيها وهذان الوصفان تشترك فيهما كل سور القرآن الكريم .

كما أن هذه الجريمة – عافانا منها ومن تبعاتها وذرياتنا إلى يوم القيامة – يتعدى ضررها ليشمل أفرادا عدة فناسب أن يؤكد القرآن على خطرها بهذا المطلع الفريد.

السابعة: سورة الزمر

﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾ (٢)

تظهر براعة الاستهلال في هذه السورة من وجهين

الأول : علاقتها بما قبلها، والثاني:أغراضها :

أولا:(مناسبتها لآخر ما قلبها أَنَّهُ خَتَمَ السُّورَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ بِقَوْلِهِ:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ (٣)،وَبَدَأَ هُنَا:﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴾(٤). وَقَالَ الْفَرَّاءُ والزجاج: تَنْزِيلُ مُبْتَدَأٌ، ومِنَ اللَّهِ الْخَبَرِ، أَوْ خَبَرَ مُبْتَدَأٍ مَحْذُوفٍ، أَيْ هَذَا تَنْزِيلُ، وَمِنَ الله متعلق بتنزيل وَأَقُولُ إِنَّهُ خَبَرٌ، وَالْمُبْتَدَأُ هُوَ لِيَعُودَ عَلَى قَوْلِهِ:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ ،كَأَنَّهُ قِيلَ:وَهَذَا الذِّكْرُ مَا هُوَ؟فَقِيلَ: هُوَ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ.) (٥)

غير أن البقاعي رحمه الله ينظر إلى إيثار الحق جل ذكره التعبير بلفظ (تنزيل) الذي يوحي بالتنجيم دون الإنزال الذي يوحي بنزوله دفعة واحدة وأن هذا لا ينافي قدرته على كل ما وعد وأوعد به فيقول:(لما تبين من التهديد في "ص" أنه سبحانه قادر على ما يريد، ثم ختمها بأن القرآن ذكر للعالمين، وأن كل ما فيه لا بد أن يرى لأنه واقع لا محالة لكن من غير عجلة، فكانوا ربما قال مُتعنتُهم: ما له إذا كان قادراً لا يعجل ما يريده بعد حين؟، علل ذلك بأنه {تنزيل} أي بحسب التدريج لموافقة

---

(١) **في ظلال القرآن ٤ /٢٤٨٦ .**

(٢) **سورة الزمر : ١ .**

(٣) **سورة ص: ٨٧ .**

(٤) **سورة الزمر: ١ .**

(٥) **البحر المحيط لأبي حيان ١٨١/٩ .**

المصالح في أوقاتها وتقريبه للأفهام على ما له من العلو حتى صار ذكراً للعالمين، ووضع موضع الضمير قوله: {الكتاب} للدلالة على جمعه لكل صلاح،
أي لا بد أن يرى جميع ما فيه لأن الشأن العظيم إنزاله على سبيل التنجيم للتقريب في فهمه وإيقاع كل شيء منه في أحسن أوقاته من غير عجلة ولا توان) (١)
أما عن أغراض السورة وقضاياها فإن أبرزها إنزال القرآن من عند الله وقد تحدثت السورة عن هذا الكتاب حديثا فريدا حيث جاء فيها:
﴿ ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحۡسَنَ ٱلۡحَدِيثِ كِتَٰبٗا مُّتَشَٰبِهٗا مَّثَانِيَ تَقۡشَعِرُّ مِنۡهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمۡ وَقُلُوبُهُمۡ إِلَىٰ ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهۡدِي بِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٍ ﴾ (٢) وقولـــه:﴿ وَلَقَدۡ ضَرَبۡنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا غَيۡرَ ذِي عِوَجٖ لَّعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾ (٣) وقولـــه:﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّۖ فَمَنِ ٱهۡتَدَىٰ فَلِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡهِم بِوَكِيلٍ ﴾ (٤) وقولـــه: ﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ بَغۡتَةٗ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ﴾ (٥)
وهذا ما دفع الطاهر ابن عاشور أن يقول هذه : (فاتحة أنيقة في التنويه بالقرآن جعلت مقدمة لهذه السورة لأن القرآن جامع لما حوته وغيرها من أصول الدين) (٦)
وإنزال القرآن من عند الله يدعونا إلى توحيد الله تعالى والإخلاص فيه وهذا سر اقتران أمر التوحيد والإخلاص بإنزال الكتاب في مطلع السورة وفي هذا يقول الأستاذ : سيد قطب:(هذه السورة تكاد تكون مقصورة على علاج قضية التوحيد. وهي تطوف بالقلب البشري في جولات متعاقبة، وتوقع على أوتاره إيقاعات متلاحقة، وتهزه هزا عميقا متواصلا لتطبع فيه حقيقة التوحيد وتمكنها، وتنفي عنه كل شبهة وكل ظل يشوب هذه الحقيقة. ومن ثم فهي ذات موضوع واحد متصل من بدئها إلى ختامها يعرض في صور شتى.
ومنذ افتتاح السورة تبرز هذه القضية الواحدة التي تكاد السورة تقتصر على

(١) نظم الدرر ٤٣٧/١٦ .
(٢) سورة الزمر : ٢٣ .
(٣) سورة الزمر : ٢٧-٢٨ .
(٤) سورة الزمر : ٤١ .
(٥) سورة الزمر :٥٥ .
(٦) التحرير والتنوير ٣١٤/٢٣ .

علاجهـــا: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾[1].

وتتردد في مقاطعها على فترات متقاربة فيها إما نصا. وإما مفهوما..

نصا كقوله: ﴿ قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾[2]

أو قولـــه: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ تَأْمُرُوٓنِّيٓ أَعْبُدُ أَيُّهَا ٱلْجَٰهِلُونَ وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[3]

ومفهومـــا كقولـــه: ﴿ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[4] أو قولـــــه: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّضِلٍّ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِى ٱنتِقَامٍ ﴾[5] [6].

كل ذلك يقرر براعة الاستهلال في هذه السورة الكريمة.

الثامنة: سورة محمد ﷺ .

﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[7]

تظهر براعة الاستهلال في هذه السورة من خلال معرفة مناسبتها لما قبلها ومعرفة سبب النزول ، وسياق السورة الكريمة:

أما عن مناسبتها (فمناسبتها لما قبلها :قوله:﴿ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾[8] ، فإنهم الكفرة الذين أشار إليهم بقوله:﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[9]

---

(١) سورة الزمر :١-٣ .
(٢) سورة الزمر : ١١-١٥ .
(٣) سورة الزمر : ٦٤-٦٥ .
(٤) سورة الزمر : ٢٩ .
(٥) سورة الزمر : ٣٦-٣٧ .
(٦) في ظلال القرآن ٥/٣٠٣٣-٣٠٣٤ .
(٧) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : ١ .
(٨) سورة الأحقاف: ٣٥ .
(٩) البحر المديد ٥/٣٥٣ .

وأما سبب النزول فقد ذكر القرطبيّ ما جاء عن ابن عباس ﷺ حيث قال :
نزلت في المطعِمين ببدر، وهم اثنا عشر رجلا: أبو جهل، والحارث ابن هشام، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبي وأمية ابنا خلف، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج، وأبو البختري بن هشام، وزمعة بن الأسود، وحكيم بن حزام، والحارث بن عامر بن نوفل.) [١]
وقد بين سبحانه أن هؤلاء القوم لا يزالون ينفقون أموالهم من أجل القضاء على الإسلام كما في قوله:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيۡهِمۡ حَسۡرَةٗ ثُمَّ يُغۡلَبُونَۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحۡشَرُونَ ﴾ [٢]
وسياق السورة متفق مع البدء إذ إنها تدور حول الحديث عن الذين كفروا وموقفهم من الإسلام ونبيه ﷺ حيث جاء فيها:
﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلۡحَقَّ مِن رَّبِّهِمۡۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمۡثَٰلَهُمۡ ﴾ [٣] وقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ﴾ [٤]
وقال:﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ﴾ [٥]
وفيها:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡ ﴾ [٦]
وغير ما استشهدت به كثير وعليه فالبدء يتفق تماما مع سياق السورة الكريمة.

التاسعة: سورة الفتح:

﴿ إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ﴾ [٧]

هذه السورة نزلت في صلح الحديبية ، وهذا الصلح رآه بعض الصحابة تنازلا للمشركين على حساب المسلمين، يؤيد هذا ما جاء في صحيح البخاري من حديث حبيب بن أبي ثابت قال : أتيت أبا وائل أسأله . فقال كنا بصفين فقال رجل: ألم تر إلى الذين يدعون إلى كتاب الله فقال علي: نعم فقال سهل بن حنيف: اتهموا أنفسكم فلقد رأيتنا يوم الحديبية يعني الصلح الذي كان بين النبي ﷺ والمشركين ولو نرى قتالا

---

(١) تفسير القرطبي ٢٢٣/١٦ .
(٢) سورة الأنفال: ٣٦ .
(٣) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : ٣ .
(٤) سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ٨ .
(٥) سورة محمد صلى الله عليه وسلم : ١٢ .
(٦) سورة محمد صلى الله عليه وسلم :٣٤ .
(٧) سورة الفتح: ١ .

لقاتلنا، فجاء عمر فقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار ؟ قال: (بلى) . قال ففيم نعطي الدنية في ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا ؟ فقال (يا ابن الخطاب إني رسول الله ولن يضيعني الله أبدا) . فرجع متغيظا فلم يصبر حتى جاء أبا بكر فقال يا أبا بكر ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ قال: يا ابن الخطاب إنه رسول الله ﷺ ولن يضيعه الله أبدا، فنزلت سورة الفتح(١)

و(المراد بالفتح هنا: فتح مكة وأن محمله على الوعد بالفتح. والمعنى: سنفتح. وإنما جيء في الأخبار بلفظ الماضي لتحققه وتيقنه، شبه الزمن المستقبل بالزمن الماضي فاستعملت له الصيغة الموضوعة للمضي. أو نقول استعمل فتحنا بمعنى: قدرنا لك الفتح، ويكون هذا الاستعمال من مصطلحات القرآن لأنه كلام من له التصرف في الأشياء لا يحجزه عن التصرف فيها مانع. وقد جرى على عادة إخبار الله تعالى لأنه لا خلاف في إخباره، وذلك أيضا كناية عن عُلو شأن المخبِر مثل:﴿ أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾. (٢)

وما يندرج في هذا التفسير: أن يكون المراد بالفتح صلح الحديبية تشبيها له بفتح مكة، لأنه توطئة له، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه:ما كنا نعد فتح مكة إلا يوم الحديبية، يريد أنهم أيقنوا بوقوع فتح مكة بهذا الوعد،وعن البراء بن عازب رضي الله عنه: «تعدون أنتم الفتح فتح مكة وقد كان فتح مكة فتحا، ونحن نعد الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية»(٣)

و(افتتاح الكلام بحرف (إنّ) ناشىء على ما أحل للمسلمين من الكآبة على أن أجيب المشركون إلى سؤالهم الهدنة كما هو واضح من حديث عمر بن الخطاب السابق فالتأكيد مصروف للسامعين على طريقة التعريض، وأما النبي ﷺ فقد كان واثقا بذلك) (٤)

(وقد أكد– سبحانه– هذا الفتح بثلاثة أنواع من المؤكدات، وهي «إنّ» والمصدر «فتحا» والوصف «مبينا» وذلك للمسارعة إلى تبشير المؤمنين بتحقق هذا الفتح،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ك: التفسير ب: سورة الفتح ١٨٣٢/٤ .
(٢) سورة النحل: ١ .
(٣) التحرير والتنوير ٢٦/ ١٤٤ .
(٤) التحرير والتنوير ١٤٣/٢٦ .

ولإدخال السرور على قلوبهم، بعد تلك الشروط التي اشتمل عليها الصلح، والتي ظنها بعضهم أن فيها إجحافا بالمسلمين.

وأسند- سبحانه- الفعل إلى نون العظمة (فَتَحْنا) لتفخيم شأن المخبِر- عز وجل- وعلو شأن المخبَر عنه وهو الفتح.

وقدم- سبحانه- الجار والمجرور (لَكَ) على المفعول المطلق (فَتْحاً) للاهتمام وللإشعار بأن ذلك الفتح كان من أجله ﷺ وفي ذلك ما فيه من تعظيم أمره ﷺ ومن وجوب طاعته، والامتثال لأمره.) (١)

فناسب أن يأتي البدء على ما جاء به تطييبا لخاطر الصحابة وبشارة لهم لما يأملون به .

ولا يفوتنا أن السورة تحدثت حديثا مطولا عن صلح الحديبية وبيعة الرضوان وفتح مكة فلا غرابة أن تفتتح بما افتتحت به.

العاشرة: سورة القمر:

﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ (٢)

هذه السورة الكريمة تضمنت الحديث عن عدد من الأنبياء ومواقف أقوامهم منهم وأن كثيرا منهم أعرض عن دعوتهم ، وأنذرهم أنبياؤهم سوء العاقبة ، بدأت

السورة بالحديث عن قريش أنهم كلما رأوا آية اعرضوا واتهموا النبي باتهامات هو منها براء قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ (٣)

ثم تحدثت عن قوم نوح عليه السلام وأظهرت أنهم كذبوه أيضا قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴾ (٤)

وتحدثت عن قوم هود عليه السلام وأنهم كذبوه أيضا حيث قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴾ (٥)

وتحدثت عن قوم صالح عليه السلام وأنهم وقعوا في جريمة التكذيب كذلك حيث قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴾ (٦)

---

(١) التفسير الوسيط د/ طنطاوي ٢٥٩/١٣ .

(٢) سورة القمر : ١ .

(٣) سورة القمر : ٢-٣ .

(٤) سورة القمر : ٩ .

(٥) سورة القمر : ١٨ .

(٦) سورة القمر : ٢٣ .

وانتقلت السورة بالحديث عن قوم لوط عليه السلام وأنهم أيضا كذبوا رسولهم فقال تعالى: ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴾ (١)

وختمت السورة بالحديث عن قوم موسى عليه السلام المكذبين في قوله: ﴿ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴾ (٢)

ثم توجهت السورة بعد ذلك إلى كفار قريش إذ إنهم المقصودون بالحديث في قوله: ﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴾ (٣)

وعليه فيكون أهل الشرك قد اتفقوا في مكابرتهم على امتداد الأزمنة واختلاف الدعاة والمرسلين، فإن قريشا كذبت كما كذب السابقون، فناسب أن يكون صدر السورة محذرا للجميع من قرب الساعة لأن فيها تُجزى كل نفس بما كسبت

يؤيد هذا ما ذكره ابن جرير الطبري : قوله (اقْتَرَبَتِ) افتعلت من القُرب، وهذا من الله تعالى ذكره إنذار لعباده بدنوّ القيامة، وقرب فناء الدنيا، وأمر لهم بالاستعداد لأهوال القيامة قبل هجومها عليهم، وهم عنها في غفلة ساهون.) (٤)

كما أن سبب النزول الذي أورده أبو حيان يبرز أيضا براعة الاستهلال حيث قال:

(وَسَبَبُ نُزُولِهَا أَنَّ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ قَالُوا لِلرَّسُولِ ﷺ : إِنْ كُنْتُ صَادِقًا فَشُقَّ لَنَا الْقَمَرَ فِرْقَتَيْنِ، وَوَعَدُوهُ بِالْإِيمَانِ إِنْ فَعَلَ. وَكَانَتْ لَيْلَةَ بَدْرٍ، فَسَأَلَ رَبَّهُ، فَانْشَقَّ الْقَمَرُ نِصْفٌ عَلَى الصَّفَا وَنِصْفٌ عَلَى قَيْقُعَانَ. (٥)

فَقَالَ أَهْلُ مَكَّةَ: آيَةٌ سَمَاوِيَّةٌ لَا يُعْمَلُ فِيهَا السِّحْرُ. فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ: اصْبِرُوا حَتَّى تَأْتِيَنَا أَهْلُ الْبَوَادِي، فَإِنْ أَخْبَرُوا بِانْشِقَاقِهِ فَهُوَ صَحِيحٌ، وَإِلَّا فَقَدَ سَحَرَ مُحَمَّدٌ أَعْيُنَنَا. فَجَاءُوا فَأَخْبَرُوا بِانْشِقَاقِ الْقَمَرِ، فَأَعْرَضَ أَبُو جَهْلٍ وَقَالَ: سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.) (٦)

ويرى النيسابوري أن براعة الاستهلال تتضح في بيان مناسبة السورة بما قبلها فيقول:(أول هذه السورة مناسب لآخر السورة المتقدمة ﴿ أَزِفَتِ ٱلْأَزِفَةُ ﴾ (٧) إلا أنه

---

(١) سورة القمر : ٣٢ .

(٢) سورة القمر : ٤١-٤٢ .

(٣) سورة القمر : ٤٣-٤٦ .

(٤) تفسير الطبري ٢٢/ ٥٦٥ .

(٥) قعيقعان بالضم ثم الفتح بلفظ تصغير وهو اسم جبل بمكة قيل إنما سمي بذلك لأن قطوراء وجرهم لما تحاربوا قعقعت الأسلحة فيه. معجم البلدان – (٤ / ٣٧٩)

(٦) البحر المحيط لأبي حيان ١٠/ ٣٢ .

(٧) سورة النجم : ٥٧ .

ذكر هاهنا دليلا على الاقتراب وهو قوله: ﴿ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ﴾) [1]

ويرى الطاهر ابن عاشور أن اختيار الحق سبحانه هذا البدء لمراعاة ظروف المخاطَبين حتى تؤتي الموعظةُ ثمرتَها فيقول:(من عادة القرآن أن يستثمر الفرصة لإعادة الموعظة والتذكير حين يتضاءل تعلق النفوس بالدنيا، وتفكر فيما بعد الموت وتعير آذانها لداعي الهدى. فتتهيأ لقبول الحق في مظان ذلك على تفاوت في استعدادها وكم كان مثل هذا الاستثمار سببا في إيمان قلوب قاسية، فإذا أظهر الله الآيات على يد رسوله ﷺ لتأييد صدقه شفع ذلك بإعادة التذكير كما قال تعالى: ﴿ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا ﴾ [2] .

وجمهور المفسرين على أن هذه الآية نزلت شاهدة على المشركين بظهور آية كبرى ومعجزة عظمى من معجزات النبي ﷺ وهي معجزة انشقاق القمر.

ففي «صحيح البخاري»[3] و «جامع الترمذي»[4] عن أنس بن مالك قال: « سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر» . زاد الترمذي عنه « فانشق القمر بمكة فرقتين، فنزلت: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ﴾[5]

السورة الحادية عشرة: سورة الرحمن:

﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ [6]

(الرحمن) اسم من أسماء الله تعالى.

لا يقال لغيره، وهو في الكتب المتقدمة، ومعناه الكثير الرحمة.) [7]

ويذكر البقاعي براعة الاستهلال في هذه السورة فيقول:

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان للنيسابوري ٦/ ٢١٦ . والحديث عزاه السيوطي لأبي نعيم في الحلية الدر المنثور ٧/ ٦٧١ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ك: المناقب ب: سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية فأراهم انشقاق القمر ٢/ ١٣٣٠ ، وفي ك: التفسير ب: سورة القمر ٤/ ١٨٤٤ .

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه ك: التفسير ب: سورة القمر ٣٩٧/٥ وقال هذا حديث حسن صحيح .

(٥) التحرير والتنوير ٢٧/ ١٦٦-١٧٦ .

(٦) سورة الرحمن: ١ .

(٧) معاني القرآن للزجاج ٩٥/٥ .

(لما ختم سبحانه سورة القمر بعظيم الملك وبليغ القدرة، وكان الملك القادر لا يكمل ملكه إلا بالرحمة، وكانت رحمته لا تتم إلا بعمومها، قصر هذه السورة على تعداد نعمه على خلقه في الدارين، وذلك من آثار الملك، وفصل فيها ما أجمل في آخر القمر من مقر الأولياء والأعداء في الآخرة، وصدرها بالاسم الدال على عموم الرحمة براعة للاستهلال، وموازنة لما حصل بالملك والاقتدار من غاية التبرك والظهور والهيبة والرعب باسم هو مع أنه في غاية الغيب دال على أعظم الرجاء مفتتحاً لها بأعظم النعم وهو تعليم الذكر الذي هز ذوي الهمم العالية في القمر إلى الإقبال عليه بقوله: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾)[1]

ويشير الطاهر ابن عاشور إلى بديع الاستفتاح بهذا الاسم المبارك فيقول:

(ومن بديع أسلوبها: افتتاحها الباهر باسمه الرحمن وهي السورة الوحيدة المفتتحة باسم من أسماء الله لم يتقدمه غيره.

ومنه التعداد في مقام الامتنان والتعظيم بقوله: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[2] إذ تكرر فيها إحدى وثلاثين مرة وذلك أسلوب عربي جليل) [3]

وأقول: هذه السورة مبنية على تعداد النعم الوفيرة والآلاء العظيمة وتلك لا يملك منحها إلا من بيده خزائن السماوات والأرض فإذا كان قوله: ﴿ ٱلرَّحْمَٰنُ ﴾ لا يقال لأحد سواه فإن تلك النعم لا يملك منحها سواه فناسب أن يكون البدء بالاسم الذي لا يشترك معه فيه أحد .

السورة الثانية عشرة: المجادلة:

﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾

هذه السورة الكريمة بدأت بالحديث عن الظهار وكفارته ، وقد يستثقل بعض الناس تلك الكفارة ويكون قد سبقه لسانُه فظاهر من زوجه فيخونُ نفسه ولا يفصح عما حدث فناسب أن يكون البدء مخوفا لكل الناس بإظهار أن سَمْعَ الله وسع الأشياء كلها، ثم إنها تحدثت عن البعث وإنباء الله تعالى الناس بما عملوه ولا يتأتى ذلك إلا ممن أحاط

---

(١) نظم الدرر للبقاعي ١٩/ ١٣٩-١٤٠ . والآية تكررت في سورة القمر في أربعة مواضع: ١٧-٢٢-٣٢-٤٠ .

(٢) هذه الآية من سورة الرحمن وتكررت تلك الآية إحدى وثلاثين مرة في الآيات:١٣-١٦-١٨-٢١-٢٣-٢٥-٢٨-٣٠-٣٢-٣٤-٣٦-٣٨-٤٠-٤٢-٤٥-٤٧-٤٩-٥١-٥٣-٥٥-٥٧-٥٩-٦١-٦٣-٦٥-٦٧-٦٩-٧١-٧٣-٧٥-٧٧.

(٣) التحرير والتنوير ٢٧/٢٢٩ .

بكل شيء علما وأحصى كل شيء عددا ، وهذا واضح في قوله جل شأنه:﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (١)

كما أنها صرحت بعلم الله بما في السماوات وما في الأرض وبعلم الله تعالى بالمتناجين وتثبت معيته لهم كما في قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُواْ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢)

وقد ذكر علماء اللغة تعريف النجوى فقالوا:

و(النجوى اسم للكلام الخفي الذي تُناجِي به صاحبَك كأنك ترفعه عن غيره وذلك أن أصل الكلمة الرفعة، ومنه النجوة من الأرض، وسمي تكليم الله تعالى موسى عليه السلام مناجاة لأنه كان كلاما أخفاه عن غيره.) (٣)

وبعضهم يرى أن النجوى من المناجاة:

(والنجوى: التناجي وهو: الحديث المكتوم وفي التنزيل:﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ﴾ (٤) والنجوى: الجماعة يتناجون وفي التنزيل: ﴿ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ ﴾ (٥). وقيل النجوى: المناجاة من قوله تعالى: ﴿ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ﴾. (٦)

وقال ابن منظور:

(معنى النجوى في الكلام ما ينفرد به الجماعة والاثنان، سرا كان أو ظاهرا.) (٧)

وتتحدث عن كشف حقيقة الناس يوم القيامة عند محاولتهم كتمان ما هم عليه كما في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُۥ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ ۖ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ ۚ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾ (٨)

---

(١) سورة المجادلة: ٦ .
(٢) سورة المجادلة : ٧ .
(٣) معجم الفروق اللغوية لأبي هلال العسكري صـ ٥٣٣ .
(٤) سورة طه :٦٢، وسورة الأنبياء: ٣ .
(٥) سورة الإسراء: ٤٧ .
(٦) المخصص لابن سيده ٤٧٩/٤ . والآية : ١٢ من سورة المجادلة.
(٧) لسان العرب لابن منظور :٣٠٩/١٥ .
(٨) سورة المجادلة :١٨ .

كل ذلك مناسب لما بدأت به السورة من التأكيد على سماع الله تعالى وتحقيق ذلك بالأداة الداخلة على الفعل الماضي.

وهذه السورة تبرز مكانة الأسرة ، ورعاية الإسلام الودّ بين الزوجين ، ومكانة المرأة وعناية الإسلام بها .

السورة الثالثة عشرة: الحاقة.

﴿ٱلۡحَآقَّةُ﴾ (١)

(في معنى هذا الاسم قولان:

أحدهما: أنه ما حقّ من الوعد والوعيد بحلوله.

الثاني: أنه القيامة التي يستحق فيها الوعد والوعيد ، قاله الجمهور

وفي تسميتها بالحاقة ثلاثة أقاويل:

أحدها: ما ذكرنا من استحقاق الوعد والوعيد بالجزاء على الطاعات والمعاصي .

الثاني: لأن فيها حقائق الأمور.

الثالث: لأن حقاً على المؤمن أن يخافها.) (٢)

هذه السورة تحدثت عن قوم صالح وهود عليهما السلام وتكذيبهما لهما وما وقع لهما إثر ذلك التكذيب ، وتحدثت عن علامات يوم القيامة ، وأخذ الناس كتب أعمالهم فمنهم من يأخذه باليمين ومنهم من يأخذه بالشمال ، وفيها تصوير دقيق لهذا اليوم وما يقع فيه فمناسبة بدء تلك السورة باسم من أسماء يوم القيامة مناسب للقضايا التي تحدثت عنها تلك السورة.

قال الطاهر ابن عاشور: (اشتملت هذه السورة على تهويل يوم القيامة، وتهديد المكذبين بوقوعه.

وتذكيرهم بما حل بالأمم التي كذبت به من عذاب في الدنيا ثم عذاب الآخرة وتهديد المكذبين لرسل الله تعالى بالأمم التي أشركت وكذبت.

وأدمج في ذلك أن الله نجى المؤمنين من العذاب، وفي ذلك تذكير بنعمة الله على البشر إذ أبقى نوعهم بالإنجاء من الطوفان.

ووصف أهوال من الجزاء وتفاوت الناس يومئذ فيه.

---

(١) سورة الحاقة: ١ .

(٢) النكت والعيون للماوردي ٦/ ٧٥ .

ووصف فظاعة حال العقاب على الكفر وعلى نبذ شريعة الإسلام، والتنويه بالقرآن.وتنزيه الرسول ﷺ عن أن يكون غير رسول.
وتنزيه الله تعالى عن أن يقر من يتقول عليه.وتثبيت الرسول ﷺ.
وإنذار المشركين بتحقيق الوعيد الذي في القرآن) [١]
وما جاء في تلك السورة من وعد أو وعيد فهو حق لا مراء فيه ومن ثم فبدؤها بالحاقة فيه من براعة الاستهلال ما لا يخفى.

السورة الرابعة عشرة: المعارج.

﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [٢]
ذكر المفسرون عدة أقوال في تحديد السائل الذي أشارت إليه الآية الكريمة فذهب بعضهم إلى أنه (النضر بن الحارث، فوقع به العذاب، فقتل يوم بدر في الدنيا.) [٣]
ويؤيد هذا القول ما أخرجه الحاكم وصححه بسنده عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ﴾ [٤] ذِي الدَّرَجَاتِ ﴿ سَأَلَ سَآئِلُۢ ﴾ قَالَ: هُوَ النَّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ بْنِ كَلَدَةَ قَالَ: ﴿ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٥]
وقال مجاهد: دعا داع بعذاب يقع في الآخرة، وهو قولهم: ﴿ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [٦]
(وعلى أية حال فسؤالهم عن العذاب، يتضمن معنى الإنكار والتهكم، كما يتضمن معنى الاستعجال، كما حكته بعض الآيات الكريمة..
ومن بلاغة القرآن، تعدية هذا الفعل هنا بالباء، ليصلح لمعنى الاستفهام الإنكاري ولمعنى الدعاء والاستعجال.) [٧]
وذكر الزمخشري أن السائل هو: (رسول الله ﷺ، استعجل بعذاب للكافرين.) [١]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٩/ ١١١ .
(٢) سورة المعارج : ١ .
(٣) بحر العلوم ٣/٤٩٤.
(٤) سورة المعارج :١:٣
(٥) المستدرك على الصحيحين ٢/٥٤٥. وقال الحاكم : هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ، وقال الذهبي : على شرط البخاري.
(٦) بحر العلوم ٣/٤٩٤.
(٧) التفسير الوسيط للطنطاوي ١٥/٩٢.

والنفس تميل إلى الرأي الأول .

والقارىء للسورة يدرك أغراضها التي تدور حولها ويستخرج منها براعة الاستهلال بما استهلت به وقد (حوت من الأغراض تهديد الكافرين بعذاب يوم القيامة، وإثبات ذلك اليوم ووصف أهواله.

ووصف شيء من جلال الله فيه، وتهويل دار العذاب وهي جهنم. وذكر أسباب استحقاق عذابها.

ومقابلة ذلك بأعمال المؤمنين التي أوجبت لهم دار الكرامة وهي أضداد صفات الكافرين.

وتثبيت النبي ﷺ، وتسليته على ما يلقاه من المشركين.

ووصف كثير من خصال المسلمين التي بثها الإسلام فيهم، وتحذير المشركين من استئصالهم وتبديلهم بخير منهم.) [٢]

والسورة بدأت بالحديث عن العذاب الواقع يوم القيامة وفي وسطها ذكر الحق تعالى هذا العذاب وبيَّنَ أنه غير مأمون فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ إِنَّ عَذَابَ رَبِّهِمْ غَيْرُ مَأْمُونٍ ﴾ ثم ختمت السورة بالحديث عن هذا اليوم ووصف خروج الناس من قبورهم للمثول بين يدي الله فقال تعالى: ﴿ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ خَٰشِعَةً أَبْصَٰرُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِى كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ﴾ فكان البدء بما بدأت به قمة البراعة والبلاغة.

السورة الخامسة عشرة: سورة نوح عليه السلام .

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣]

(سميت به لاشتمالها على تفاصيل دعوته وأدعيته.) [٤]

ووجه اتصالها بما قبلها:

((١) أنه قال في السورة السابقة: ﴿ إِنَّا لَقَٰدِرُونَ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴾ [٥] وذكر هنا قصة نوح المشتملة على إغراقهم إلا من قد آمن، وإبدالهم بمن هم خير منهم، فكأنها وقعت موقع الاستدلال على تلك الدعوى.

(٢) تواخى مطلع السورتين فى ذكر العذاب الموعود به الكفار.) [١]

---

(١) الكشاف ٤/ ٦٠٨.

(٢) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٥٣.

(٣) سورة نوح :١.

(٤) محاسن التأويل ٩/٣٢٢ .

(٥) سورة المعارج ٤٠-٤١ .

و(لم يذكر الله في هذه السورة سوى قصة نوح وحدها لطول لبثه في قومه، وتكرار دعوته إلى التوحيد، ونهيه عن الشرك) [٢]

(تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة والعقيدة وتوكيده: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوۡمِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرۡ قَوۡمَكَ مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾ [٣].. فهذا هو المصدر الذي يتلقى منه الرسل التكليف، كما يتلقون حقيقة العقيدة. وهو المصدر الذي صدر منه الوجود كله، وصدرت منه الحياة. وهو الله الذي خلق البشر وأودع فطرتهم الاستعداد لأن تعرفه وتعبده، فلما انحرفوا عنها وزاغوا أرسل إليهم رسله، يردونهم إليه. ونوح- عليه السلام- كان أول هؤلاء الرسل- بعد آدم عليه السلام. وآدم لا يذكر القرآن له رسالة بعد مجيئه إلى هذه الأرض، وممارسته لهذه الحياة ولعله كان معلما لأبنائه وحفدته حتى إذا طال عليهم الأمد بعد وفاته ضلوا عن عبادة الله الواحد، واتخذوا لهم أصناما آلهة. اتخذوها في أول الأمر أنصابا ترمز إلى قوى قدسوها. قوى غيبية أو مشهودة. ثم نسوا الرمز وعبدوا الأصنام! وأشهرها تلك الخمسة التي سيرد ذكرها في السورة. فأرسل الله إليهم نوحا يردهم إلى التوحيد، ويصحح لهم تصورهم عن الله وعن الحياة والوجود. والكتب المقدسة السابقة تجعل إدريس- عليه السلام- سابقا لنوح. ولكن ما ورد في هذه الكتب لا يدخل في تكوين عقيدة المسلم، لشبهة التحريف والتزيد والإضافة إلى تلك الكتب.

والذي يتجه إليه من يقرأ قصص الأنبياء في القرآن، أن نوحا كان في فجر البشرية وأن طول عمره الذي قضى منه ألف سنة إلا خمسين عاما في دعوته لقومه، ولا بد أنهم كانوا طوال الأعمار بهذه النسبة.. أن طول عمره وأعمار جيله هكذا يوحي بأن البشر كانوا ما يزالون قلة لم تتكاثر بعد كما تكاثرت في الأجيال التالية.

وذلك قياسا على ما نراه من سنة الله في الأحياء من طول العمر إذا قل العدد، كأن ذلك للتعويض والتعادل..

والله أعلم بذلك.. إنما هي نظرة في سنة الله وقياس!

---

(١) تفسير المراغي ٢٩/٧٨ .

(٢) تيسير الكريم الرحمن للسعدي صـ ٨٨٨ .

(٣) سورة نوح: ١ .

تبدأ السورة بتقرير مصدر الرسالة وتوكيده، ثم تذكر فحوى رسالة نوح في اختصار وهي الإنذار:﴿ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١)

والحالة التي كان قوم نوح قد انتهوا إليها، من إعراض واستكبار وعناد وضلال- كما تبرز من خلال الحساب الذي قدمه نوح في النهاية لربه- تجعل الإنذار هو أنسب ما تلخص به رسالته، وأول ما يفتتح به الدعوة لقومه، الإنذار بعذاب أليم، في الدنيا أو في الآخرة، أو فيهما جميعا.) (٢)

و(افتتاح الكلام بالتوكيد للاهتمام بالخبر إذ ليس المقام لرد إنكار منكر، ولا دفع شك عن متردد في هذا الكلام. وكثيرا ما يفتتح بلغاء العرب أول الكلام بحرف التوكيد لهذا الغرض وربما جعلوا (إن) داخلة على ضمير الشأن في نحو قوله تعالى: ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴾ (٣)

(وقصة نوح- عليه السلام- مع قومه، قد وردت في سور متعددة منها: سورة الأعراف، ويونس، وهود، والشعراء، والعنكبوت.

وينتهى نسب نوح- عليه السلام- إلى شيث بن آدم، وقد ذكر نوح في القرآن في ثلاثة وأربعين موضعا.

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام، فأرسل الله- تعالى- إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد.

وقد افتتحت السورة هنا بالأسلوب المؤكد بإنّ، للاهتمام بالخبر، وللاتعاظ بما اشتملت عليه القصة من هدايات وإرشادات.) (٤)

ولما كان قوم نوح قد بلغوا الغاية في الإعراض والتكذيب ، وأغرقهم الله في الدنيا فهلكوا، فضلا عن العذاب الشديد الذي ينتظرهم في الآخرة ، أكد الحق إرسال نبيه نوح عليه السلام إليهم حتى لاتبقى حجة لمحتج وعذر لمكابر ، وصدق الحق تعالى :﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٥)

السورة السادسة عشرة: القيامة.

---

(١) سورة نوح : ١ .

(٢) في ظلال القرآن للأستاذ / سيد قطب ٦/ ٣٧١٠ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٩/ ١٨٦ . والآيتان من سورة النمل :٣٠-٣١.

(٤) التفسير الوسيط د/ محمد سيد طنطاوي ١٥/ ١١٠ .

(٥) سورة الإسراء من الآية: ١٥.

﴿ لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ ﴾ (١)
(اشتملت على إثبات البعث.
والتذكير بيوم القيامة وذكر أشراطه.
وإثبات الجزاء على الأعمال التي عملها الناس في الدنيا.
واختلاف أحوال أهل السعادة وأهل الشقاء وتكريم أهل السعادة.
والتذكير بالموت وأنه أول مراحل الآخرة.
والزجر عن إيثار منافع الحياة العاجلة على ما أعد لأهل الخير من نعيم الآخرة.
وافتتاح السورة بالقسم مؤذن بأن ما سيذكر بعده أمر مهم لتستشرف به نفس السامع كما تقدم في عدة مواضع من أقسام القرآن.
وكون القسم بيوم القيامة براعة استهلال لأن غرض السورة وصف بيوم القيامة.
وفيه أيضا كون المقسم به هو المقسم على أحواله تنبيها على زيادة مكانته عند المقسم) (٢)
و(إدخالُ لاَ النافيةِ عَلى فعلِ القسمِ شائعٌ، وفائدتُها توكيدُ القسمِ قالُوا إنَّها صلةٌ مِثلُها في قولِه تعالى ﴿ لِّئَلَّا يَعۡلَمَ أَهۡلُ ٱلۡكِتَٰبِ أَلَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّن فَضۡلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلۡفَضۡلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴾ (٣)، وقيلَ هيَ للنفِي لكنْ لا لنفي نفسِ الأقسام بل النفي ما ينبىءُ هُو عنْهُ منْ إعظامِ المقسمِ بهِ وتفخيمِه كأنَّ مَعْنى لا أقسم بكذا لأعظمه بإقسامِي بهِ حَقَّ إعظامِه فإنَّه حقيقٌ بأكثرَ منْ ذلكَ وأكثرَ، وأما مَا قيل من أن المعنى نفي الإقسام لوضوحِ الأمرِ فقدْ عرفتَ مَا فيهِ فِي قَوْلِه تَعَالَى ﴿ فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ (٤)، وقيلَ إنَّ "لاَ " نفيٌ وردَ لكلامٍ معهودٍ قبلَ القسمِ كأنَّهم أنكرُوا البعثَ فقيلَ "لاَ" أيْ ليسَ الأمرُ كذلكَ ثمَّ قيلَ أقسمُ بيومِ القيامةِ كقولِك لا والله إنَّ البعثَ حقٌّ، وأيا ما كانَ ففِي الإقسامِ على تحققِ البعثِ بيوم القيامةِ من الجزالة ما لا مزيدَ عليهِ) (٥)

(١) سورة القيامة :١.
(٢) التحرير والتنوير ٣٣٧/٢٩ .
(٣) سورة الحديد : ٢٩ .
(٤) سورة الواقعة : ٧٥ .
(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم ٦٤/٩ .

(والقسم بيوم القيامة باعتباره ظرفا لما يجري فيه من عدل الله وإفاضة فضله وما يحضره من الملائكة والنفوس المباركة.) [١]

(وجواب القسم ما دل عليه قوله ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴾[٢] وهو لتبعثن) [٣]

وتتضح براعة الاستهلال هنا في القسم بيوم القيامة لأن السورة تدور حول الحديث عن هذا اليوم وما يقع فيه ولبيان أهمية هذا اليوم حتى يعمل الناس له.

السورة السابعة عشرة: سورة البلد.

﴿ لَآ أُقْسِمُ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ [٤]

(أقسم سبحانه بالبلد الحرام وما بعده على أن الإنسان خلق مغمورا في مكابدة المشاق والشدائد، واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّۢ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾

يعنى: ومن المكابدة أن مثلك على عظم حرمتك يستحل بهذا البلد الحرام كما يستحل الصيد في غير الحرم.) [٥]

(أَجْمَعَ الْمُفَسِّرُونَ عَلَى أَنَّ ذَلِكَ الْبَلَدَ هِيَ مَكَّةُ، وَاعْلَمْ أَنَّ فَضْلَ مَكَّةَ مَعْرُوفٌ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَهَا حَرَمًا آمِنًا، فَقَالَ فِي الْمَسْجِدِ الَّذِي فِيهَا ﴿ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ﴾ [٦] وَجَعَلَ ذَلِكَ الْمَسْجِدَ قِبْلَةً لِأَهْلِ المشرق والمغرب، فقال: ﴿ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾[٧] وَشَرَّفَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ بِقَوْلِهِ: ﴿ وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [٨] وَأَمَرَ النَّاسَ بِحَجِّ الْبَيْتِ فَقَالَ: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ﴾ [٩] وَقَالَ فِي الْبَيْتِ: ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا ﴾ [١٠] وَقَالَ: ﴿ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا ﴾ [١١] وَقَالَ: ﴿ وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴾ [١]

---

(١) التحرير والتنوير ٣٣٨/٢٩ .
(٢) سورة القيامة:٣ .
(٣) الكشاف ٦٥٩/٤ .
(٤) سورة البلد: ١ .
(٥) الكشاف ٧٥٣/٤-٧٥٤.
(٦) سورة آل عمران من الآية : ٧٩.
(٧) سورة البقرة من الآية : ١٤٤.
(٨) سورة البقرة من الآية : ١٢٥.
(٩) سورة آل عمران من الآية : ٩٧.
(١٠) سورة البقرة من الآية : ١٢٥.
(١١) سورة الحج من الآية : ٢٦.

وَحَرَّمَ فِيهِ الصَّيْدَ، وَجَعَلَ الْبَيْتَ الْمَعْمُورَ بِإِزَائِهِ، وَدُحِيَتِ الدُّنْيَا مِنْ تَحْتِهِ، فَهَذِهِ الْفَضَائِلُ وَأَكْثَرُ مِنْهَا لَمَّا اجْتَمَعَتْ فِي مَكَّةَ لَا جَرَمَ أَقْسَمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهَا، فَأَمَّا قَوْلُهُ: ﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾[٢] فَالْمُرَادُ مِنْهُ أُمُورٌ

أَحَدُهَا: وَأَنْتَ مُقِيمٌ بِهَذَا الْبَلَدِ نَازِلٌ فِيهِ حَالٌّ بِهِ، كَأَنَّهُ تَعَالَى عَظَّمَ مَكَّةَ مِنْ جِهَةِ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مُقِيمٌ بِهَا

وَثَانِيهَا: الْحِلُّ بِمَعْنَى الْحَلَالِ، أَيْ أَنَّ الْكُفَّارَ يَحْتَرِمُونَ هَذَا الْبَلَدَ وَلَا يَنْتَهِكُونَ فِيهِ الْمُحَرَّمَاتِ، ثُمَّ إِنَّهُمْ مَعَ ذَلِكَ وَمَعَ إِكْرَامِ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاكَ بِالنُّبُوَّةِ يَسْتَحِلُّونَ إِيذَاءَكَ وَلَوْ تَمَكَّنُوا مِنْكَ لَقَتَلُوكَ، فَأَنْتَ حِلٌّ لَهُمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ لَا يَرَوْنَ لَكَ مِنَ الْحُرْمَةِ مَا يَرَوْنَهُ لِغَيْرِكَ، عَنْ شُرَحْبِيلَ: يُحَرِّمُونَ أن يقتلوا بها صيدا أو يعضدوا بِهَا شَجَرَةً وَيَسْتَحِلُّونَ إِخْرَاجَكَ وَقَتْلَكَ، وَفِيهِ تَثْبِيتٌ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبَعْثٌ عَلَى احْتِمَالِ مَا كَانَ يُكَابِدُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، وَتَعْجِيبٌ لَهُ مِنْ حَالِهِمْ فِي عُدْوَانِهِمْ لَهُ.

وَثَالِثُهَا: قَالَ قَتَادَةُ: وَأَنْتَ حِلٌّ أَيْ لَسْتَ بِآثِمٍ، وَحَلَالٌ لَكَ أَنْ تَقْتُلَ بِمَكَّةَ مَنْ شِئْتَ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى فَتَحَ عَلَيْهِ مَكَّةَ وَأَحَلَّهَا لَهُ، وَمَا فُتِحَتْ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَهُ، فَأَحَلَّ مَا شَاءَ وَحَرَّمَ مَا شَاءَ وَفَعَلَ مَا شَاءَ، فَقَتَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ خَطَلٍ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، وَمَقِيسَ بْنَ صُبَابَةَ وَغَيْرَهُمَا، وَحَرَّمَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ، ثُمَّ قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خلق السموات وَالْأَرْضَ، فَهِيَ حَرَامٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ لَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَلَنْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ بَعْدِي، وَلَمْ تَحِلَّ إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ، فَلَا يُعْضَدُ شَجَرُهَا، وَلَا يُخْتَلَى خلالها، وَلَا يُنَفَّرُ صَيْدُهَا، وَلَا تَحِلُّ لُقْطَتُهَا إِلَّا لِمُنْشِدٍ. فَقَالَ الْعَبَّاسُ: إِلَّا الْإِذْخِرَ يَا رَسُولَ اللَّهِ فَإِنَّهُ لِبُيُوتِنَا وَقُبُورِنَا، فَقَالَ إِلَّا الْإِذْخِرَ»[٣]،[٤]

وتظهر براعة الاستهلال هنا في أن هذه السورة (حوت من الأغراض التنويه بمكة. وبمقام النبي ﷺ بها. وبركته فيها وعلى أهلها. والتنويه بأسلاف النبي ﷺ من سكانها الذين كانوا من الأنبياء مثل إبراهيم وإسماعيل أو من أتباع الحنيفية مثل عدنان ومضر.

والتخلص إلى ذم سيرة أهل الشرك. وإنكارهم البعث. وما كانوا عليه من التفاخر

---

(١) سورة الحج من الآية : ٢٧.

(٢) سورة البلد:٢.

(٣) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه ك: المغازي ب:... ٥/ ١٥٣.

(٤) تفسير الرازي ٣١/١٦٤-١٦٥.

المبالغ فيه، وما أهملوه من شكر النعمة على الحواس، ونعمة النطق، ونعمة الفكر، ونعمة الإرشاد فلم يشكروا ذلك بالبذل في سبل الخير وما فرطوا فيه من خصال الإيمان وأخلاقه.

ووعيد الكافرين وبشارة الموقنين.) [1]

وأنه تعالى أقسم بهذا البلد لأن المكان يشرف بمن يسكن فيه، فقد سكن المكان من قبل إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، ثم جاء من بعد قوم أشركوا فذمهم الله على شركهم وعبادتهم الأصنام ثم جاء من بعد خير البرية ﷺ وهو من هو في الشرف والفضل فـ(أقسم سبحانه بالبلد الحرام وقيده بحلول الرسول ﷺ فيه إظهاراً لمزيد فضله، وإشعاراً بأن شرف المكان بشرف أهله.) [2]

السورة الثامنة عشرة: سورة عبس.

﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ [3]

ذكر ابن عطية الأندلسي رحمه الله ما يشير إلى براعة الاستهلال في هذه السورة فقال:(قصص هذه السورة التي لا تتفهم السورة إلا به أن رسول الله ﷺ كان شديد الحرص على إسلام قريش وأشرافهم، وكان يتحفى بدعائهم إلى الله تعالى، فبينما هو يوما مع رجل من عظمائهم قيل الوليد بن المغيرة المخزومي، وقيل عتيبة بن ربيعة، وقيل شيبة وقيل العباس، وقيل أمية بن خلف، وقال ابن عباس: كان في جمع منهم فيهم عتبة والعباس وأبو جهل إذ أقبل عبد الله بن أم مكتوم القرشي الفهري من بني عامر بن لؤي وهو رجل أعمى يقوده رجل آخر فأومأ رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخر عنه ففعل فدفعه عبد الله ﷺ نحو رسول الله ﷺ ، وقال: استدنني يا محمد، علمني مما علمك الله، وكان في ذلك كله قطع لحديث رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور من قريش، وكان رسول الله ﷺ قد قرأ عليه القرآن، ثم قال له: أترى بما أقول بأسا، فكان ذلك الرجل يقول: لا والدمى يعني الأصنام، ويروى: لا والدماء، يعني الذبائح للأصنام، فلما شغب عليه أمر عبد الله بن أم مكتوم ﷺ عبس وأعرض عنه، وذهب ذلك الرجل فروي أن النبي ﷺ انصرف إلى بيته فلوى رأسه وشخص بصره،وأنزلت عليه هذه السورة. قال سفيان الثوري ﷺ: فكان بعد ذلك إذا رأى ابن أم مكتوم بسط له

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٤٥-٣٤٦.

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ٥/٣١٣.

(٣) سورة عبس:١.

رداءه، وقال له أنس بن مالك ﷺ: رأيته يوم القادسية وعليه درع ومعه راية سوداء، واستخلفه النبي ﷺ على المدينة مرتين.) (١)

(وفي الإخبار عما فرط منه، ثم الإقبال عليه بالخطاب: دليل على زيادة الإنكار) (٢)

قال ابن عطية: في مخاطبته بلفظ الغائب مبالغة في العتب لأن في ذلك بعض الإعراض) (٣)

وعند ابن جزي:

(هو إكرام للنبي ﷺ وتنزيه له عن المخاطبة بالعتاب وهذا أحسن) (٤)

ولعل فيما ذكره الطاهر ابن عاشور من أغراض تلك السورة المباركة ما يقرر براعة الاستهلال فيها بما استهلت به حيث قال:(أغراضها تعليم الله رسوله – ﷺ – الموازنة بين مراتب المصالح ووجوب الاستقراء لخفياتها.

ولذلك يقول علماء أصول الفقه: إن على المجتهد أن يبحث عن معارض الدليل الذي لاح له.

والإشارة إلى اختلاف الحال بين المشركين المعرضين عن هدي الإسلام وبين المسلمين المقبلين على تتبع مواقعه.

وقرن ذلك بالتذكير بإكرام المؤمنين وسمو درجتهم عند الله تعالى.

والثناء على القرآن وتعليمه لمن رغب في علمه.

وانتقل من ذلك إلى وصف شدة الكفر من صناديد قريش بمكابرة الدعوة التي شغلت النبي ﷺ عن الالتفات إلى رغبة ابن أم مكتوم ﷺ.

والاستدلال على إثبات البعث وهو مما كان يدعوهم إليه حين حضور ابن أم مكتوم ﷺ وذلك كان من أعظم ما عني به القرآن من حيث إن إنكار البعث هو الأصل الأصيل في تصميم المشركين على وجوب الإعراض عن دعوة القرآن توهما منهم بأنه يدعو إلى المحال، فاستدل عليهم بالخلق الذي خلقه الإنسان، واستدل بعده بإخراج النبات والأشجار من أرض ميتة.

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٤٣٦.

(٢) الكشاف ٤/٧٠١.

(٣) المحرر الوجيز ٥/٤٣٦.

(٤) التسهيل لعلوم التنزيل لابن جزي ٢/٤٥٢.

وأعقب الاستدلال بالإنذار بحلول الساعة والتحذير من أهوالها وبما يعقبها من ثواب المتقين وعقاب الجاحدين.

والتذكير بنعمة الله على المنكرين عسى أن يشكروه.

والتنويه بضعفاء المؤمنين وعلو قدرهم ووقوع الخير من نفوسهم والخشية، وأنهم أعظم عند الله من أصحاب الغنى الذين فقدوا طهارة النفس، وأنهم أحرياء بالتحقير والذم، وأنهم أصحاب الكفر والفجور.) (١)

السورة التاسعة عشرة:سورة القدر.

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴾ (٢)

المراد أن الله (أنزل القرآن الكريم جملة واحدة إلى سماء الدنيا، من اللوح المحفوظ في ليلة القدر، يعني: في ليلة القضاء، وإنما سميت ليلة القدر، لأن الله تعالى، يقدر في تلك الليلة ما يكون من السنة القابلة، من أمر الموت والأجل، والرزق. وغيره ويسلمه إلى مدبرات الأمور، وهم أربعة من الملائكة (إسرافيل وجبريل، وميكائيل وملك الموت عليهم السلام.)

وفي آية أخرى ﴿ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ﴾ (٣) وإنما سميت ليلة مباركة، يعني: ليلة القدر، لأنه ينزل فيها الخير والبركة والمغفرة.) (٤)

وتظهر براعة الاستهلال هنا في التنويه بشأن القرآن والزمن الذي أنزل فيه ،

ولذلك قال صاحب البحر المديد: (نوّه بشأن القرآن، حيث أسند إنزاله إليه بإسناده إلى نون العظمة، المنبىء عن كمال العناية به، وجاء بضميره دون اسمه الظاهر للإيذان بغاية ظهوره، كأنه حاضر في جميع الأذهان .... وعظَّم الوقت الذي أنزله فيه بقوله:﴿ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴾(٥) لِما فيه من الدلالة على أنَّ علو قدرها خارج عن دائرة دراية الخلق، لا يدريها إلاّ علاَّم الغيوب، كما يُشعر به قوله تعالى:﴿ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴾(٦) أي: ليس فيها ليلة القدر، فإنه بيان إجمالي لشأنها إثر تشويقه

---

(١) التحرير والتنوير ١٠٢/٣٠.

(٢) سورة القدر:١.

(٣) سورة الدخان من الآية:٣.

(٤) بحر العلوم للسمرقندي ٦٠١/٣.

(٥) سورة القدر:٢.

(٦) سورة القدر: ٣.

ﷺ إلى درايتها، فإنَّ ذلك مُعْرِب عن الوعد بإدرائها على ما تقدّم.وفي إظهار ليلة القدر في الموضعين من تأكيد التفخيم ما لا يخفى) [١]

ويقرر هذا الأمر الطاهر ابن عاشور فيقول:

(اشتملت هذه الآية على تنويه عظيم بالقرآن فافتتحت بحرف (إنّ) وبالإخبار عنها بالجملة الفعلية، وكلاهما من طرق التأكيد والتقوي.

ويفيد هذا التقديم قصرا وهو قصر قلب للرد على المشركين الذي نفوا أن يكون القرآن منزلا من الله تعالى.

وفي ضمير العظمة وإسناد الإنزال إليه تشريف عظيم للقرآن.

وفي الإتيان بضمير القرآن دون الاسم الظاهر إيماء إلى أنه حاضر في أذهان المسلمين لشدة إقبالهم عليه فكون الضمير دون سبق معاد إيماء إلى شهرته بينهم

ومن تسديد ترتيب المصحف أن وضعت سورة القدر عقب سورة العلق مع أنها أقل عدد آيات من سورة البينة وسور بعدها، كأنه إيماء إلى أن الضمير في أنزلناه يعود إلى القرآن الذي ابتدئ نزوله بسورة العلق.

ويجوز أن يكون الضمير عائدا على المقدار الذي أنزل في تلك الليلة وهو الآيات الخمس من سورة العلق، فإن كل جزء من القرآن يسمى قرآنا، وعلى كلا الوجهين فالتعبير بالمضي في فعل أنزلناه لا مجاز فيه.

وقيل: أطلق ضمير القرآن على بعضه مجازا بعلاقة البعضية.

والآية صريحة في أن الآيات الأول من القرآن نزلت ليلا وهو الذي يقتضيه حديث بدء الوحي في «الصحيحين» لقول عائشة فيه: «فكان يتحنث في غار حراء الليالي ذوات العدد» [٢] فكان تعبده ليلا، ويظهر أن يكون الملك قد نزل عليه إثر فراغه من تعبده، وأما قول عائشة: «فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده» فمعناه أنه خرج من غار حراء إثر الفجر بعد انقضاء تلقينه الآيات الخمس إذ يكون نزولها عليه في آخر تلك الليلة وذلك أفضل أوقات الليل كما قال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[٣]

---

(١) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد لابن عجيبة: ٣٣١/٧. بتصرف

(٢) متفق عليه أخرجه البخاري في صحيحه ك: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ٧/١، ومسلم في صحيحه ك: الإيمان ب:بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٣٩/١.

(٣) سورة آل عمران من الآية :١٧.

وليلة القدر: اسم جعله الله لليلة التي ابتدئ فيها نزول القرآن. ويظهر أن أول تسميتها بهذا الاسم كان في هذه الآية ولم تكن معروفة عند المسلمين وبذلك يكون ذكرها بهذا الاسم تشويقا لمعرفتها ولذلك عقب بقوله:﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ﴾ (١)

والمقصود من تشريف الليلة التي كان ابتداء إنزال القرآن فيها تشريف آخر للقرآن بتشريف زمان ظهوره، تنبيها على أنه تعالى اختار لابتداء إنزاله وقتا شريفا مباركا لأن عظم قدر الفعل يقتضي أن يختار لإيقاعه أفضل الأوقات والأمكنة، فاختيار أفضل الأوقات لابتداء إنزاله ينبىء عن علو قدره عند الله تعالى) (٢)

السورة العشرون: البينة.

﴿ لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلۡبَيِّنَةُ ﴾ (٣)

يشير البقاعي رحمه الله إلى براعة الاستهلال هنا من خلال بيان ارتباط هذه السورة بالتي قبلها فيقول: (لما أخبر سبحانه وتعالى أن الليلة الشريفة التي صانها بنوع خفاء في تنزل من يتنزل فيها وفي تعيينها لا تزال قائمة على ما لها من تلك الصفة حتى يأتي الفجر الذي يحصل به غاية البيان، أخبر أن أهل الأديان سواء كان لها أصل من الحق أم لا لم يصح في العادة الجارية على حكمة الأسباب في دار الأسباب أن يتحولوا عما هم فيه إلا بسبب عظيم يكون بيانه أعظم من بيان الفجر ،وهو القرآن المذكور في القدر والرسول المنزل عليه ذلك فقال:﴿ لَمۡ يَكُنِ ﴾ أي في مطلق الزمان الماضي والحال والاستقبال كوناً هو كالجبلة والطبع، وهذا يدل على ما كانوا عليه قبل ذلك من أنهم يبدلون ما هم عليه من الكفر أو الإيمان بكفر أو بدعة ثم لا يثبتون عليه لأن ذلك ليس في جبلاتهم، وإنما هو خاطر عارض كما هو محكيّ عن سيرتهم من بعد موسى عليه الصلاة والسلام لما كانت تسوسهم الأنبياء عليهم السلام كما دل على بعض ذلك قوله تعالى: ﴿ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ﴾(٤) وكذا المشركون كانوا يبدلون دين إسماعيل عليه الصلاة والسلام ولا ينفصلون عنه بالكلية، وتارة يعبدون الأصنام، وتارة الملائكة، وأخرى الجن، ولم يكونوا يثبتون

---

(١) سورة القدر:٢.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٤٥٦-٤٥٧-٤٥٨ ز بتصرف

(٣) سورة البينة: ١.

(٤) سورة المائدة من الآية: ٧١.

على حالة واحدة ثباتاً كلياً مثل ثباتهم على الإسلام بعد مجيء البينة) [١]
ولما كان من أهم أغراض السورة (توبيخ المشركين وأهل الكتاب على تكذيبهم بالقرآن والرسول ﷺ .
والتعجيب من تناقض حالهم إذ هم ينتظرون أن تأتيهم البينة فلما أتتهم البينة كفروا بها.
وتكذيبهم في ادعائهم أن الله أوجب عليهم التمسك بالأديان التي هم عليها.
ووعيدهم بعذاب الآخرة.والتسجيل عليهم بأنهم شر البرية.) [٢]
ناسب أن تكون بدايتها بما بدأت به وعليه فهذا البدء بلغ مبلغا عظيما في البراعة ، وقد جاء في السورة الثناء على المؤمنين وبيان رضا الله عنهم ورضاهم عنه .
كما لا يخفى أن اسم السورة له دور كبير في براعة استهلالها فالبينة فيها دلالة الفصل والتوضيح وهذا ما أشار إليه مطلع السورة الكريمة حيث بينت موقف الذين كفروا والمشركين من الإيمان.

السورة الحادية والعشرون: القارعة.

﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾ [٣]

(القارعة اسم من أسماء القيامة، لأنها تفزع القلوب بالقرع، وتفزع أعداء الله بالعذاب.) [٤]

وقوله :﴿ ٱلْقَارِعَةُ ﴾

(فيه وجهان: أحدهما: أنها العذاب ، لأنها تقرع قلوب الناس بهولها.
ويحتمل ثانياً: أنها الصيحة لقيام الساعة ، لأنها تقرع بشدائدها.
وقد تسمى بالقارعة كل داهية ، كما قال تعالى: ﴿ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾ [٥]،[٦]

ولقد أشار الرازي رحمه الله تعالى إلى براعة الاستهلال هنا من خلال بيان وجه اتصال هذه السورة بما سبقها فقال:(اعْلَمْ أَنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لَمَّا خَتَمَ السُّورَةَ الْمُتَقَدِّمَةَ

(١)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ١٨٦/٢٢-١٨٧.
(٢)التحرير والتنوير ٣٠ / ٤٦٨.
(٣) القارعة:١.
(٤) التفسير الوسيط للواحدي ٥٤٦/٤.
(٥) سورة الرعد من الآية:٣١.
(٦) النكت والعيون ٣٢٧/٦.

بِقَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ﴾[1] فَكَأَنَّهُ قِيلَ: وَمَا ذَلِكَ الْيَوْمُ؟ فَقِيلَ هِيَ القارعة.) [2]

وما ذكره الطاهر ابن عاشور من أغراض لهذه السورة يشير إلى براعة الاستهلال فيها أيضا ، حيث قال:(ذكر فيها إثبات وقوع البعث وما يسبق ذلك من الأهوال.
وإثبات الجزاء على الأعمال وأن أهل الأعمال الصالحة المعتَبرة عند الله في نعيم، وأهل الأعمال السيئة التي لا وزن لها عند الله في قعر الجحيم.) [3]
ولمّا كان ما يحصل يوم القيامة ، وفي علاماته من شدة وفزع ناسب أن يختار الحق تعالى ما يناسب هذا الهول والفزع فجاء بالقارعة حتى يتناسب المقال مع الحال فسبحان من هذا كلامه.

السورة الثانية والعشرون: التكاثر.

﴿ أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ﴾ [4]

في سبب نزول هذه السورة ذكر ابن الجوزي قولين:
(أحدهما: أنّ اليهود قالوا: نحن أكثر من بني فلان، وبنو فلان أكثر من بني فلان، فألهاهم ذلك حتى ماتوا ضلّالا، فنزلت هذه فيهم، قاله قتادة.
والثاني: أنّ حيين من قريش: بني عبد مناف، وبني سهم كان بينهما لحاء، فقال هؤلاء: نحن أكثر سيّدا، وأعزّ نفرا. وقال أولئك مثل هذا، فتعادّوا السّادة والأشراف أيّهم أكثر، فكثّرهم بنو عبد مناف، ثم قالوا: نعدّ موتانا، فزاروا القبور، فعدّوا موتاهم، فكثّرهم بنو سهم، لأنهم كانوا أكثر عددا في الجاهلية، فنزلت هذه فيهم قاله ابن السائب ومقاتل) [5]
ولبيان براعة الاستهلال هنا نذكر ما قاله العلماء في مقصود هذه السورة

---

(١) سورة العاديات :١١.
(٢) تفسير الرازي ٣٢/٢٦٥.
(٣) التحرير والتنوير ٣٠/٥٠٩.
(٤) سورة التكاثر: ١.
(٥) زاد المسير في علم التفسير ٤ / ٤٨٥، وقد أورد هذين السببين كثير من المفسرين منهم :البغوي في معالم التنزيل ٥/٢٩٨، والواحدي في الوسيط ٤/٥٤٨، والقرطبي في الجامع لأحكام القرآن ٢٠/١٦٨-١٦٩.

قال البقاعي:(مقصودها التصريح بما أشارت إليه العاديات من أن سبب الهلاك يوم الجمع. الذي صورته القارعة. الجمع للمال، والإخلاد إلى دار الزوال، واسمها واضح الدلالة على ذلك ...

ولما أثبت في القارعة أمر الساعة، وقسم الناس فيها إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب ليكون من القسم الأول، فقال ما حاصله: انقسمتم فكان قسم منكم هالكاً لأنه {ألهكم} أي أغفلكم إلا النادر منكم غفلة عظيمة عن الموت الذي هو وحده كاف في البعث على الزهد فكيف بما بعده) [١]

وقال الطاهر ابن عاشور: (اشتملت على التوبيخ على اللهو عن النظر في دلائل القرآن ،ودعوة الإسلام بإيثار المال والتكاثر به والتفاخر بالأسلاف وعدم الإقلاع عن ذلك إلى أن يصيروا في القبور كما صار من كان قبلهم، وعلى الوعيد على ذلك.

وحثهم على التدبر فيما ينجيهم من الجحيم.

وأنهم مبعوثون ومسؤولون عن إهمال شكر المنعم العظيم.) [٢]

السورة الثالثة والعشرون: الكوثر.

﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ﴾[٣]

تظهر براعة الاستهلال في هذه السورة من خلال بيان أنها تتحدث عن نعم جليلة أعطاها الملك سبحانه لخير عباده وهو نبينا محمدﷺ ولما كانت تلك النعم لا يمنحها إلا هو سبحانه، صدّر الحديث عنها بحرف التوكيد المقترن بنون العظمة ليتناسب ذلك مع قيمة النعم التي منحها للنبي ﷺ .

قال الخطيب الشربيني:({إنا} أي: بما لنا من العظمة {أعطيناك} أي: خوّلناك مع التمكين العظيم يا أشرف الخلق {الكوثر} أي: نهراً في الجنة هو حوضه ﷺ ترد عليه أمّته) [٤]

ومن ثم فسر العلماء الكوثر بـ(الخير الكثير، من شرف النبوة الجامعة لخير الدارين، والرئاسة العامة، وسعادة الدنيا والآخرة) [١]

---

(١) نظم الدرر ٢٢/٢٢٥.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥١٨.

(٣) سورة الكوثر: ١ .

(٤) السراج المنير ٤/٥٩٥.

والكوثر: (الشيء البالغ في الكثرة حد الإفراط، والعرب تسمى كل شيء كثر عدده، وعظم شأنه: كوثرا، وقد قيل لأعرابية بعد رجوع ابنها من سفر: بم آب ابنك؟ قالت: آب بكوثر. أى: بشيء كثير.) [٢]

(١) البحر المديد ٣٦١/٧.
(٢) التفسير الوسيط د/ طنطاوي ٥٢٢/١٥.

المطلب الخامس: السور المفتتحة بالقسم(١).

جاء القسم في القرآن الكريم :(فِي خَمْسَ عَشْرَةَ سُورَةً سُورَةٌ أَقْسَمَ فِيهَا بِالْمَلَائِكَةِ وَهِيَ "وَالصَّافَّاتِ" وَسُورَتَانِ بِالْأَفْلَاكِ الْبُرُوجُ وَالطَّارِقُ وَسِتُّ سُوَرٍ بِلَوَازِمِهَا فَالنَّجْمُ قَسَمٌ بِالثُّرَيَّا وَالْفَجْرُ بِمَبْدَأِ النَّهَارِ وَالشَّمْسُ بِآيَةِ النَّهَارِ وَاللَّيْلُ بِشَطْرِ الزَّمَانِ وَالضُّحَى بِشَطْرِ النَّهَارِ وَالْعَصْرِ بِالشَّطْرِ الْآخَرِ أَوْ بِجُمْلَةِ الزَّمَانِ وَسُورَتَانِ بِالْهَوَاءِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ الْعَنَاصِرِ وَالذَّارِيَاتِ وَالْمُرْسَلَاتِ وَسُورَةٌ بِالتُّرْبَةِ الَّتِي هِيَ مِنْهَا

أَيْضًا وَهِيَ: الطُّورُ وَسُورَةٌ بِالنَّبَاتِ وَهِيَ: وَالتِّينِ وَسُورَةٌ بِالْحَيَوَانِ النَّاطِقِ وَهِيَ: وَالنَّازِعَاتِ وَسُورَةٌ بِالْبَهِيمِ وَهِيَ: وَالْعَادِيَاتِ.) (٢)

وسيكون الحديث عن تلك السور مرتَّبا على النحو المذكور آنفا، وليس على ترتيب السور في القرآن الكريم.

السورة الأولى: الصافات.

﴿ وَٱلصَّٰٓفَّٰتِ صَفّٗا ﴾ (٣)

(أقسم الله تعالى ذكره بالصافات، والزاجرات، والتاليات ذكرا؛ فأما الصافات: فإنها الملائكة الصافات لربها في السماء وهي جمع صافَّة، فالصافات: جَمْعُ جَمْعٍ، وبذلك جاء تأويل أهل التأويل.) (٤)

---

(١) قال السيوطي:(الْقَسَمُ:هُوَ أَنْ يُرِيدَ الْمُتَكَلِّمُ الْحَلِفَ عَلَى شَيْءٍ فَيَحْلِفُ بِمَا يَكُونُ فِيهِ فَخْرٌ لَهُ أَوْ تَعْظِيمٌ لِشَأْنِهِ أَوْ تَنْوِيهٌ لِقَدْرِهِ أَوْ ذَمٌّ لِغَيْرِهِ أَوْ جَارِيًا مجرى الغزل والترقق أَوْ خَارِجًا مَخْرَجَ الْمَوْعِظَةِ وَالزُّهْدِ كَقَوْلِهِ: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} أقسم سبحانه وتعالى بقسم يوجب الْفَخْرُ لِتَضَمُّنِهِ التَّمَدُّحَ بِأَعْظَمِ قُدْرَةٍ وَأَجَلِّ عَظَمَةٍ {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} أَقْسَمَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بِحَيَاةِ نَبِيِهِ ﷺ تَعْظِيمًا لِشَأْنِهِ وَتَنْوِيهًا بِقَدْرِهِ.) الإتقان في علوم القرآن ٣/٣٢٠

وعند الشيخ الشعراوي: (القَسَم: هو اليمين والحَلِف، والإنسان يُقسم ليؤكد المقسَم عليه يريد أن يطمئن المخاطب على أن المقسَم عليه حَقٌّ) تفسير الشعراوي ١٧/ ١٠٣١٠ .

وهو في اصطلاح الفقهاء (تَحْقِيق الْأَمر أَو توكيده بِذكر الله تَعَالَى أَو صفة من صِفَاته.) كفاية الأخيار في حل غاية الاختصار تقي الدين الشافعي صـ٥٣٩ .

أو(تَحْقِيقُ أَمْرٍ غَيْرِ ثَابِتٍ مَاضِيًا كَانَ أَوْ مُسْتَقْبَلًا نَفْيًا أَوْ إثْبَاتًا مُمْكِنًا كَحَلِفِهِ لَيَدْخُلَن الدَّارَ أَوْ مُمْتَنِعًا كَحَلِفِهِ لَيَقْتُلَن الْمَيِّتَ صَادِقَةً كَانَتْ أَوْ كَاذِبَةً مَعَ الْعِلْمِ بِالْحَالِ أَوْ الْجَهْلِ بِهِ.) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع ٢/٦٠٠، وحاشية البجيرمي على الخطيب المسماة تحفة الحبيب على شرح الخطيب ٤/٣٥٥.

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣/٣٦٢ .

(٣) سورة الصافات: ١ .

(٤) جامع البيان ٢١/٥٥٧

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾ [1]جواب القسم، أقسم الله تعالى بهذه الأقسام أنه واحد ليس له شريك.) [2]

وتتجلى براعة الاستهلال في تلك السورة ببيان أغراضها كما ذكر الطاهر ابن عاشور رحمه الله تعالى فقال:

(أغراضها

إثبات وحدانية الله تعالى، وسوق دلائل كثيرة على ذلك دلت على انفراده بصنع المخلوقات العظيمة التي لا قبل لغيره بصنعها وهي العوالم السماوية بأجزائها وسكانها ولا قبل لمن على الأرض أن يتطرق في ذلك.

وإثبات أن البعث يعقبه الحشر والجزاء.

ووصف حال المشركين يوم الجزاء ووقوع بعضهم في بعض.

ووصف حسن أحوال المؤمنين ونعيمهم. ومذاكرتهم فيما كان يجري بينهم وبين بعض المشركين من أصحابهم في الجاهلية ومحاولتهم صرفهم عن الإسلام.

ثم انتقل إلى تنظير دعوة محمد ﷺ قومه بدعوة الرسل من قبله، وكيف نصر الله رسله ورفع شأنهم وبارك عليهم. وأُدمج في خلال ذلك شيء من مناقبهم وفضائلهم وقوتهم في دين الله وما نجاهم الله من الكروب التي حفت بهم. وخاصة منقبة الذبيح، والإشارة إلى أنه إسماعيل. ووصف ما حل بالأمم الذين كذبوهم. ثم الإنحاء على المشركين فساد معتقداتهم في الله ونسبتهم إليه الشركاء.

وقولهم: الملائكة بنات الله، وتكذيب الملائكة إياهم على رؤوس الأشهاد. وقولهم في النبي ﷺ والقرآن، وكيف كانوا يودون أن يكون لهم كتاب. ثم وعد الله رسوله بالنصر كدأب المرسلين ودأب المؤمنين السابقين، وأن عذاب الله نازل بالمشركين، وتخلص العاقبة الحسنى للمؤمنين.

وكانت فاتحتها مناسبة لأغراضها بأن القسم بالملائكة مناسب لإثبات الوحدانية لأن الأصنام لم يدعوا لها ملائكة، والذي تخدمه الملائكة هو الإله الحق ولأن الملائكة من جملة المخلوقات الدال خلقها على عظم الخالق، ويؤذن القسم بأنها أشرف المخلوقات العلوية.

---

(١) سورة الصافات: ٤ .

(٢) التفسير الوسيط للواحدي ٣/٥٢١ .

ثم إن الصفات التي لو حظت في القسم بها مناسبة للأغراض المذكورة بعدها، فـ(الصافات) يناسب عظمة ربها، و(الزاجرات) يناسب قذف الشياطين عن السماوات، ويناسب تسيير الكواكب وحفظها من أن يدرك بعضها بعضا، ويناسب زجرها الناس في المحشر.) [١]

والذي يؤكد ماذهب إليه الطاهر رحمه الله تعالى جواب القسم في هذه السورة فهو كما ذكرنا قوله: ﴿إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَٰحِدٌ﴾[٢] وهذا يقرر مبدأ التوحيد ويؤكد أن الملائكة مخلوقة لله منقادة لأمره وأن من ادعى إلهيتها ورفعتها فقد ضل سواء السبيل.

السورة الثانية:البروج

﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [٣]

أقسم الله جلّ ثناؤه بالسماء ذات البروج.

واختلف أهل التأويل في معنى البروج في هذا الموضع، فقال بعضهم: عُنِي بذلك: والسماء ذات القصور. قالوا: والبروج: القصور.

وقال آخرون: عُنِي بذلك: والسماء ذات النجوم، وقالوا: نجومها: بروجها.

وقال آخرون: بل معنى ذلك: والسماء ذات الرمل والماء.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: معنى ذلك: والسماء ذات منازل الشمس والقمر، وذلك أن البروج جمع برج، وهي منازل تتخذ عالية عن الأرض مرتفعة، ومن ذلك قول الله:﴿وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [٤] هي منازل مرتفعة عالية في السماء، وهي اثنا عشر برجًا، فمسير القمر في كلّ برج منها يومان وثلث، فذلك ثمانية وعشرون منزلا ثم يستسرّ ليلتين،ومسير الشمس في كلّ برج منها شهر) [٥]

والحديث في السورة عن أصحاب الأخدود وما فعلوه وما يصيروا إليه وأنهم في وقت جبروتهم وطغيانهم ظنوا أنهم بمعزل عن العقاب عما ارتكبوه فأقسم الله بالسماء التي هي أعظم بكثير من خلقهم كما قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا﴾ [٦]

---

(١) التحرير والتنوير ٢٣/٨١-٨٢ .

(٢) سورة الصافات : ٤ .

(٣) سورة البروج : ١ .

(٤) سورة النساء من الآية:٧٨.

(٥) جامع البيان ٢٤م ٣٣١-٣٣٢ .

(٦) سورة النازعات:٢٧ .

يؤكد هذا ما ذكره المفسرون في جواب القسم، ولهم فيه أقوال كلها تخدم المعنى:
(أولها: قال الفراء: جواب القسم ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾، ثانيها: الجواب ﴿ إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ ﴾[1]
وَثَالِثُهَا: أَنَّ جواب القسم قوله: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ كَمَا تَقُولُ:وَاللَّهِ إِنَّ زَيْدًا لَقَائِمٌ، إِلَّا أَنَّهُ اعْتَرَضَ بَيْنَ الْقَسَمِ وَجَوَابِهِ، قَوْلُهُ: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾
وَرَابِعُهَا: مَا ذَكَرَهُ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَقَدِّمِينَ أَنَّ جَوَابَ الْقَسَمِ مَحْذُوفٌ، وَهَذَا اخْتِيَارُ صَاحِبِ «الْكَشَّافِ» إِلَّا أَنَّ الْمُتَقَدِّمِينَ، قَالُوا: ذَلِكَ الْمَحْذُوفُ هُوَ أَنَّ الْأَمْرَ حَقٌّ فِي الْجَزَاءِ عَلَى الْأَعْمَالِ وَقَالَ صَاحِبُ «الْكَشَّافِ» : جَوَابُ الْقَسَمِ هُوَ الَّذِي يَدُلُّ عَلَيْهِ قَوْلُهُ: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾ كَأَنَّهُ قِيلَ: أَقْسَمَ بِهَذِهِ الْأَشْيَاءِ، أَنَّ كُفَّارَ قُرَيْشٍ مَلْعُونُونَ كَمَا لُعِنَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ السُّورَةَ وَرَدَتْ فِي تَثْبِيتِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَصْبِيرِهِمْ عَلَى أَذَى أَهْلِ مَكَّةَ وَتَذْكِيرِهِمْ بِمَا جَرَى عَلَى مَنْ تَقَدَّمَهُمْ مِنَ التَّعْذِيبِ عَلَى الْإِيمَانِ حَتَّى يَقْتَدُوا بِهِمْ وَيَصْبِرُوا عَلَى أَذَى قَوْمِهِمْ، وَيَعْلَمُوا أَنَّ كَفَّارَ مَكَّةَ عِنْدَ اللَّهِ بِمَنْزِلَةِ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الْأُمَمِ السَّالِفَةِ يَحْرِقُونَ أَهْلَ الْإِيمَانِ بِالنَّارِ، وَأَحِقَّاءُ بِأَنْ يُقَالَ فِيهِمْ: قُتِلَتْ قُرَيْشٌ كَمَا: ﴿ قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ ﴾[2]
و(في افتتاح السورة بهذا القسم تشويق إلى ما يرد بعده وإشعار بأهمية المقسم عليه، وهو مع ذلك يلفت ألباب السامعين إلى الأمور المقسم بها، لأن بعضها من دلائل عظيم القدرة الإلهية المقتضية تفرد الله تعالى بالإلهية وإبطال الشريك، وبعضها مذكِّر بيوم البعث الموعود، ورمز إلى تحقيق وقوعه، إذ القسم لا يكون إلا بشيء ثابت الوقوع وبعضها بما فيه من الإبهام يوجه أنفس السامعين إلى تطلب بيانه.
ومناسبة القسم لما أقسم عليه أن المقسم عليه تضمن العبرة بقصة أصحاب الأخدود ولما كانت الأخاديد خطوطا مجعولة في الأرض مستعرة بالنار أقسم على ما تضمنها بالسماء بقيد صفة من صفاتها التي يلوح فيها للناظرين في نجومها ما سماه العرب بروجا وهي تشبه دارات متلألئة بأنوار النجوم اللامعة الشبيهة بتلهب النار.

(١) النكت والعيون ٦/٢٤١ .
(٢) التفسير الكبير للرازي ٣١/١٠٩ .

والقسم بالسماء بوصف ذات البروج يتضمن قسما بالأمرين معا لتلتفت أفكار المتدبرين إلى ما في هذه المخلوقات وهذه الأحوال من دلالة على عظيم القدرة وسعة العلم الإلهي إذ خلقها على تلك المقادير المضبوطة لينتفع بها الناس في مواقيت الأشهر والفصل. كما قال تعالى في نحو هذا: ﴿ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (١)

وأما مناسبة القسم باليوم الموعود فلأنه يوم القيامة باتفاق أهل التأويل لأن الله وعد بوقوعه قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْيَوْمُ ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ﴾ (٢) مع ما في القسم به من إدماج الإيماء إلى وعيد أصحاب القصة المقسم على مضمونها، ووعيد أمثالهم المعرض بهم.

ومناسبة القسم بـ(شاهد ومشهود) ظاهرة بينه وبين ما في المقسم عليه من قوله: ﴿ وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ ﴾ ، وقوله: ﴿ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ ﴾ أي حضور.) (٣)

الثالثة: سوة الطارق.

﴿ وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ﴾ (٤)

(عظّم قدر السماء في أعين الخلق لكونها معدن رزقهم ومسكن ملائكته وفيها خلق الجنة فأقسم بها وبالطارق والمراد جنس النجوم أو جنس الشهب التي يرجم بها لعظم منفعتها ثم فسره بالنجم الثاقب أى المضئ كانه يثقب الظلام يضوئه فينفذ فيه ووُصف بالطارق لأنه يبدو بالليل كما يقال للآتي ليلاً طارق أو لأنه يطرق الجني أي يصكه.) (٥)

وقد أخبر الله نبيه ﷺ عن حقيقة الطارق كما جاء في السورة بأنه النجم الثاقب (قَالَ سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ: كُلُّ شَيْءٍ فِي الْقُرْآنِ "مَا أَدْرَاكَ" فَقَدْ أَخْبَرَ الرَّسُولُ بِهِ وَكُلُّ شَيْءٍ فِيهِ "مَا يُدْرِيكَ" لَمْ يُخْبِرْ بِهِ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴾) (٦)، (٧)

---

(١) سورة المائدة من الآية :٩٧ .

(٢) سورة المعارج من الآية :٤٤ .

(٣) التحرير والتنوير ٢٣٧/٣٠-٢٣٨-٢٣٩.

(٤) سورة الطارق: ١.

(٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي ٦٢٧/٣.

(٦) مفاتيح الغيب ١١٧/٣١.

(٧) سورة الشورى من الآية: ١٧.

والقسم هنا بالسماء التي هي من أكبر الدلائل على عظمة الخالق سبحانه ولا يحفظها ويمسكها سواه قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ (١) والإنسان العجيب في خلقه محفوظ بحفظ الله كما قال تعالى: ﴿ إِن كُلُّ نَفۡسٖ لَّمَّا عَلَيۡهَا حَافِظٞ ﴾ (٢)

هنا قسم بالسماء أو ربها وبالنجم الثاقب، وهو نجم متفرد في نفسه، كما أن الإنسان متفرد دون المخلوقات والسورة ، تلفت نظر هذا الإنسان إلى أصل خلقته فالعلاقة بين البدء وباقي السورة ظاهرة واضحة، ويتضح هذا حين يدرك القاريء أن القرآن الكريم عُني بالإنسان عناية فائقة وهذا أوضح من أن يُلتمس له دليل.

و(افتتاح السورة بالقسم تحقيق لما يقسم عليه وتشويق إليه كما تقدم في سوابقها. ووقع القسم بمخلوقين عظيمين فيهما دلالة على عظيم قدرة خالقهما هما: السماء، والنجوم، أو نجم منها عظيم منها معروف، أو ما يبدو انقضاضه من الشهب.) (٣)

السورة الرابعة: سورة النجم.

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ (٤)

قال الطبري رحمه الله

(اختلف أهل التأويل في تأويل قوله ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ فقال بعضهم: عُنِيَ بالنجم: الثُّريا،وهذا قول مجاهد أيضا.

وقال آخرون: معنى ذلك: والقرآن إذا نزل.

والصواب من القول في ذلك عندي ما قاله مجاهد من أنه عُنى بالنجم في هذا الموضع: الثريا) (٥)

ولبيان براعة الاستهلال في هذه السورة أذكر ما قاله العلماء من مناسبة بينها وبين سابقتها ففيه تقريب للمعنى وبيان له

قال أبو حيان: (مُنَاسَبَتُهَا لآخر ما قبلها ظَاهِرَةٌ، لِأَنَّهُ قَالَ: ﴿ أَمۡ يَقُولُونَ نَقَوَّلَهُۥ ﴾ (٦)

---

(١) سورة فاطر:٤١.

(٢) سورة الطارق:٤.

(٣) التحرير والتنوير ٢٥٨/٣٠.

(٤) سورة النجم: ١ .

(٥) جامع البيان ٤٩٥/٢٢-٤٩٧. بتصرف.

(٦) سورة الطور:٣٣.

أَيِ اخْتَلَقَ الْقُرْآنَ، وَنَسَبُوهُ إِلَى الشِّعْرِ وَقَالُوا: هُوَ كَاهِنٌ وَمَجْنُونٌ فَأَقْسَمَ تَعَالَى أَنَّهُ ﷺ مَا ضَلَّ، وَأَنَّ مَا يَأْتِي بِهِ هُوَ وَحْيٌ مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ أَوَّلُ سُورَةٍ أَعْلَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَا فِي الْحَرَمِ، وَالْمُشْرِكُونَ يَسْتَمِعُونَ، فِيهَا سَجَدَ، وَسَجَدَ مَعَهُ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُشْرِكُونَ وَالْجِنُّ وَالْإِنْسُ غَيْرَ أَبِي لَهَبٍ، فَإِنَّهُ رَفَعَ حَفْنَةً مِنْ تُرَابٍ إِلَى جَبْهَتِهِ وَقَالَ: يَكْفِي هَذَا. وَسَبَبُ نُزُولِهَا قَوْلُ الْمُشْرِكِينَ: إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ يَخْتَلِقُ الْقُرْآنَ.) [١]

وفي صحيح البخاري أن الذي لم يسجد أمية بن خلف[٢] .

وقال البقاعي نقلا عن أبي جعفر بن الزبير :(لما قطع سبحانه تعليقهم بقوله: ساحر وشاعر ومجنون – إلى ما هو به مما علموا أنه لا يقوم على ساق، ولكن شأن المنقطع المبهوت أن يستريح إلى ما أمكنه وإن لم يغن عنه، أعقب الله سبحانه بقسمة على تنزيه نبيه وصفيه من خلقه عما تقوله وتوهمه الضعفاء فقال تعالى: ﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ﴾[٣] ثم أتبع سبحانه هذا القسم ببسط الحال في تقريبه عليه السلام وإدنائه وتلقيه لما يتلقاه من ربه وعظيم منزلته لديه، وفي إبداء ذلك يحركهم عزّ وجلّ ويذكرهم ويوبخهم على سوء نكاياتهم بلطف واستدعاء كريم منعم فقال تعالى:﴿ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ﴾[٤] والتحمت الآي على هذه الأغراض إلى الإعلام بانفراده سبحانه بالإيجاد والقهر والإعزاز والانتقام، لا يشاركه في شيء من ذلك غيره فقال:

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضۡحَكَ وَأَبۡكَىٰ ﴾[٥] ولما بين ذلك فقال: ﴿ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ﴾[٦] أي في أيّ نعمة تشكون أم بأي آية تكذبون؟ ثم قال: ﴿ هَٰذَا نَذِيرٞ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلۡأُولَىٰٓ ﴾[٧] وإذا كان عليه الصلاة والسلام. . . فشأن مكذبيه شأن مكذبي غيره – انتهى.) [٨]

---

(١) البحر المحيط ٩/١٠.

(٢) صحيح البخاري ك: التفسير ب: قول الله "فاسجدوا لله واعبدوا" ١٤٢/٦.

(٣) سورة النجم: ١-٢.

(٤) سورة النجم:١٩.

(٥) سورة النجم:٤٣.

(٦) سورة النجم:٥٥.

(٧) سورة النجم:٥٦.

(٨) نظم الدرر ٤٣/١٩-٤٤.

ويشير صاحب الظلال إلى وجه براعة الاستهلال هنا ببيان موضوع السورة الذي تعالجه فيقول: (موضوع السورة الذي تعالجه هو موضوع السور المكية على الإطلاق: العقيدة بموضوعاتها الرئيسية: الوحي والوحدانية والآخرة. والسورة تتناول الموضوع من زاوية معينة تتجه إلى بيان صدق الوحي بهذه العقيدة ووثاقته، ووهن عقيدة الشرك وتهافت أساسها الوهمي الموهون! والمقطع الأول في السورة يستهدف بيان حقيقة الوحي وطبيعته، ويصف مشهدين من مشاهده، ويثبت صحته وواقعيته في ظل هذين المشهدين ويؤكد تلقي الرسول– ﷺ– عن جبريل– عليه السلام– تلقي رؤية وتمكن ودقة، واطلاعه على آيات ربه الكبرى.

ويتحدث المقطع الثاني عن آلهتهم المدعاة: اللات والعزى ومناة. وأوهامهم عن الملائكة. وأساطيرهم حول بنوتها لله. واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني من الحق شيئاً. بينما الرسول– ﷺ– يدعوهم إلى ما دعاهم إليه عن تثبت ورؤية ويقين.) (١)

ويذكر الطاهر ابن عاشور سر البدء بالقسم بالنجم إذا هوى فيقول:

(ومناسبة القسم بـ النجم إذا هوى، أن الكلام مسوق لإثبات أن القرآن وحي من الله منزّل من السماء فشابه حال نزوله الاعتباري حال النجم في حالة هويه مشابهة تمثيلية حاصلة من نزول شيء منير إنارة معنوية نازل من محل رفعة معنوية، شبه بحالة نزول نجم من أعلى الأفق إلى أسلفه وهو من تمثيل المعقول بالمحسوس، أو الإشارة إلى مشابهة حالة نزول جبريل من السماوات بحالة نزول النجم من أعلى مكانه إلى أسفله، أو بانقضاض الشهاب تشبيه محسوس بمحسوس، وقد يشبهون سرعة الجري بانقضاض الشهاب) (٢)

ونلاحظ أن بداية السورة تتلقي مع نهايتها في الحديث عن هذا القرآن وأنه من عند الله قال تعالى:

﴿ أَفَمِنْ هَٰذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴾ (٣)

وإذا أضفنا إلى ما سبق أن السورة أشارت إلى معجزة من أهم المعجزات التي حدثت في تاريخ الإسلام وهي معجزة المعراج، والعروج يكون إلى المكان العالي ناسب أن

(١) في ظلال القرآن ٦/٤٣٠٥.
(٢) التحرير والتنوير ٣٧/٩١-٩٢.
(٣) سورة النجم ٥٩-٦٠-٦١-٦٢.

يقسم بالنجم الذي في السماء ليلفت نظر الناس إلى أن السماء مسخرة بأمره وما أمر الصعود بالنبي ﷺ إليها بالأمر العسير عليه سبحانه، ثم إنه لما حدّث عما وقع في معجزتي الإسراء والمعراج صدق وصدّقه القرآن حيث جاء جواب القسم في تلك السورة ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴾ (١)

السورة الخامسة: سورة الفجر.

﴿ وَالْفَجْرِ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ (٢)

قبل الحديث عن براعة الاستهلال هنا، يحسن بيان المقسم عليه، ففيه عون على بيان وجه البراعة في البدء بما بُدئت به السورة الكريمة

قال السمين الحلبي:

(جوابُ هذا القَسَم قيل: مذكورٌ وهو قولُه ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ ﴾(٣) قاله ابن الأنباري.

وقيل: محذوفٌ لدلالةِ المعنى عليه، أي: لَنُجازِيَنَّ كل أحدٍ بما عَمل بدليلِ تعديدِه ما فعلَ بالقرونِ الخاليةِ.

وقدَّر الزمخشري: «ليُعَذِّبَنَّ» قال: «يَدُلُّ عليه ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴾ (٤) إلى قولِه: ﴿ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾(٥).

وقُدّر بما دَلَّتْ عليه خاتمةُ السورةِ قبلَه، لإيابُهم إلينا وحِسابُهم علينا.) (٦)

ولبيان براعة الاستهلال نعرض لمقصود تلك السورة وسياقها فمقصودها الاستدلال على أمر البعث الذي يستبعده فئة من الناس ، كما قال البقاعي رحمه الله:(مقصودها الاستدلال على آخر الغاشية الإياب والحساب، وأدل ما فيها على هذا المقصود الفجر بانفجار الصبح عن النهار الماضي بالأمس من غير فرق في شيء من الذات وانبعاث النُيّام من الموت الأصغر وهو النوم بالانتشار في ضياء النهار لطلب المعايش للمجازاة في الحساب بالثواب والعقاب

ولما خُتمت سورة الغاشية بأنه لا بد من الإياب والحساب، وكان تغيير الليل والنهار وتجديدُ كل منهما بعد إعدامه دالاً على القدرة على البعث، وكان الحج قد جعله الله

---

(١) سورة النجم: ٢. وينظر الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ٨٣/١٠

(٢) سورة الفجر: ١-٢.

(٣) سورة الفجر: ١٤.

(٤) سورة الفجر: ٦.

(٥) سورة الفجر: ١٣.

(٦) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون ١٠/ ٧٧٧.

في شرعه له على وجه التجرد عن المخيط ولزوم التلبية والسير إلى الأماكن المخصوصة آية مذكرة بذلك قال: ﴿ وَٱلْفَجْرِ ﴾ أي الكامل في هذا الوصف لما له من العظمة حتى كأنه لا فجر غيره، وهو فجر يوم النحر الذي هو أول الأيام الآخذة في الإياب إلى بيت الله الحرام بدخول حرمه والتحلل من محارمه.

ولما ذكر هذا اليوم بما العبارة به عنه أدل على البعث لأنه ينفجر عن صبح قد أضاء، ونهار قد انبرم، وانقضى، لا فرق بينه وبين ما مضى، عم فقال معبراً بالمقابل: ﴿ وَلَيَالٍ عَشْرٍ ﴾ هي أعظم ليالي العام. وهي آية الله على البعث بالقيام إلى إجابة داعي الله تعالى على هيئة الأموات) (١)

والقسم بالفجر وليال عشر، فيه إشارة إلى أن ظلم الطغاة مهما بلغ، فلابد من زواله، كما أن نور الفجر الصادق يبدد غياهب الظلام ، وأن ظلم عاد وطغيانهم إلى زوال، وانظر إلى قول الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَادِ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴾(٢) كما أنك أيها القاريء الكريم لاحظت القسم بليال عشر، (ليال) منكرة ومحددة (بعشر)، ألا ترى أن التنكير علامة على التقليل، ثم إنها محددة بعدد ، هذا فيه دلالة على أن أعمار الطغاة والأباطرة محدودة، وهي في جانب عمر الدنيا القليل قليلة، أفلا ينتبه هؤلاء المغيبون بمعصيتهم عن الحق الذي ينبغي أن يعيشوا به وله؟ ولذلك تأمل معي قول الله : ﴿ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَـٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴾(٣)

وهذا ما دفع الطاهر ابن عاشور أن يقول:

(حوت من الأغراض:

ضرب المثل لمشركي أهل مكة في إعراضهم عن قبول رسالة ربهم بمثل عاد وثمود وقوم فرعون.

وإنذارهم بعذاب الآخرة.

وتثبيت النبي ﷺ مع وعده باضمحلال أعدائه.

---

(١) **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور ٢٢/٢١-٢٢.**

(٢) **سورة الفجر : ٦: ١٣.**

(٣) **سورة الفجر ٢٣: ٢٦.**

وإبطال غرور المشركين من أهل مكة إذ يحسبون أن ما هم فيه من النعيم علامة على أن الله أكرمهم وأن ما فيه المؤمنون من الخصاصة علامة على أن الله أهانهم.
وأنهم أضاعوا شكر الله على النعمة فلما يواسوا ببعضها الضعفاء وما زادتهم إلا حرصا على التكثر منها.
وأنهم يندمون يوم القيامة على أن لم يقدموا لأنفسهم من الأعمال ما ينتفعون به يوم لا ينفع نفسا مالها ولا ينفعها إلا إيمانها وتصديقها بوعد ربها. وذلك ينفع المؤمنين بمصيرهم إلى الجنة.) [1]
والقسم بالفجر لأنه ابتداء النهار، وهو انتقال من ظلمة دامسة إلى فجر ساطع، وأقسم الله به لأنه لا يقدر على الإتيان بهذا الفجر إلا الله عز وجل، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ ۗ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴾) [2]
ولا شك أن تلك الاجتهادات السابقة في عرض براعة الاستهلال لها قيمتها العالية.

السورة السادسة:سورة الشمس.

﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴾
افتتحت هذه السورة بالقسم بالشمس وضحاها، وقد ذكر الفخر الرازي :(أن المقصود من هذه السورة الترغيب في الطاعات والتحذير من المعاصي ، والحق سبحانه ينبه عباده دائما بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمنة للمنافع العظيمة حتى يتأمل المكلف فيها ويشكر عليها، لأن الذي يُقسم الله تعالى به يحصل له وقع في القلب ، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى) [3]
وعليه فالرازي يرى أن القسم بالشمس وهي من آيات الله الدالة على قدرته وعظمته تدفع المكلف للتأمل والشكر لا سيما وأن السورة تتحدث عن فلاح من زكّى نفسه وخيبة من أغواها، والآيات المبثوثة في الكون واضحة لا تحتاج إلى عناء وجهد في الوصول إليها فناسب أن يقسم بالشمس الواضحة والتي يشترك الناس جميعا في النفع بها كما أن الآيات للجميع .

(١) التحرير والتنوير ٣٠/ ٣١١-٣١٢.
(٢) سورة القصص: ٧١.
(٣) التفسير الكبير للرازي ١٧٣/٣١.

وقد أشار إلى مثل هذا أيضا الطاهر ابن عاشور فقال :(وابتدئ بالشمس لمناسبة المقام إيماء للتنويه بالإسلام، لأن هديه كنور الشمس لا يترك للضلال مسلكا، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، وأتبع بالقمر لأنه ينير في الظلام كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره في ظلمة الشرك، ثم ذكر

النهار والليل معه لأنهما مثلٌ لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك) [1]
فسبحان من أنار ظلمة القلوب بنور هديه كما أنار الكون بشمسه وقمره.

السورة السابعة: سورة الليل.

﴿ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ﴾ [2]

(مناسبة المقسم به للمقسم عليه أن سعي الناس ، منه خير ومنه شر، وهما يماثلان النور والظلمة ،وأن سعي الناس ينبثق عن نتائج منها النافع ومنها الضار كما ينتج الذكر والأنثى ذرية صالحة وغير صالحة.

وفي القسم بالليل وبالنهار التنبيه على الاعتبار بهما في الاستدلال على حكمة نظام الله في هذا الكون وبديع قدرته، وخص بالذكر ما في الليل من الدلالة من حالة غشيانه الجانب الذي يغشاه من الأرض. ويغشى فيه من الموجودات فتعمها ظلمته فلا تبدو للناظرين، لأن ذلك أقوى أحواله، وخص بالذكر من أحوال النهار حالة تجليته عن الموجودات وظهوره على الأرض كذلك.

وقد تقدم بيان الغشيان والتجلي في تفسير قوله: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ﴾ في سورة الشمس . [3]

واختِير القسم بالليل والنهار لمناسبته للمقام لأن غرض السورة بيان البَون بين حال المؤمنين والكافرين في الدنيا والآخرة.

وابتدئ في هذه السورة بذكر الليل ثم ذكر النهار عكس ما في سورة الشمس لأن هذه السورة نزلت قبل سورة الشمس بمدة وهي سادسة السور وأيامئذ كان الكفر مخيما على الناس إلا نفرا قليلا، وكان الإسلام قد أخذ في التجلي فناسب تلك الحالة بالإشارة إلى

---

(١) التحرير والتنوير ٣٠/٣٦٧.
(٢) سورة الليل :١.
(٣) سورة الشمس :٣-٤.

تمثيلها بحالة الليل حين يعقبه ظهور النهار، ويتضح هذا في جواب القسم بقوله: ﴿إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾. (١)،(٢)

وهذه قمة البراعة في استهلال تلك السورة المباركة.

السورة الثامنة:سورة الضحى.

هذه السورة الكريمة ذات طابع خاص ولها وقع في النفس ومطلعها يصور الحالة التي عاشها النبي ﷺ ولبيان وجه البراعة في استهلالها يذكر الأستاذ/ سيد قطب رحمه الله فيقول: (هذه السورة بموضوعها، وتعبيرها، ومشاهدها، وظلالها وإيقاعها، لمسة من حنان. ونسمة من رحمة.

وطائف من ود. ويد حانية تمسح على الآلام والمواجع، وتنسم بالروح والرضى والأمل. وتسكب البرَد والطمأنينة واليقين.

إنها كلها خالصة للنبي– ﷺ– كلها نجاء له من ربه، وتسرية وتسلية وترويح وتطمين. كلها أنسام من الرحمة وأنداء من الود، وألطاف من القربى، وهدهدة للروح المتعب، والخاطر المقلَق، والقلب الموجوع.

ورد في روايات كثيرة أن الوحي فتَر عن رسول الله– ﷺ– وأبطأ عليه جبريل– عليه السلام– فقال المشركون: ودّع محمدا ربُه! فأنزل الله تعالى هذه السورة..

والوحي ولقاء جبريل والاتصال بالله، كانت هي زاد الرسول– ﷺ– في مشقة الطريق.

وسقياه في هجير الجحود. وروحه في لأواء التكذيب. وكان– ﷺ– يحيا بها في هذه الهاجرة المُحْرِقة التي يعانيها في النفوس النافرة الشاردة العصية العنيدة. ويعانيها في المكر والكيد والأذى المصبوب على الدعوة، وعلى الإيمان، وعلى الهدى من طغاة المشركين.

فلما فتر الوحي انقطع عنه الزاد، وانحبس عنه الينبوع، واستوحش قلبه من الحبيب. وبقي للهاجرة وحده.

بلا زاد. وبلا ري. وبغير ما اعتاد من رائحة الحبيب الودود. وهو أمر أشد من الاحتمال من جميع الوجوه..

---

(١) سورة الليل :٤:١١.

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣٧٨.

عندئذ نزلت هذه السورة. نزل هذا الفيض من الود والحب والرحمة والإيناس والقربى والأمل والرضى والطمأنينة واليقين..

يقسم الله سبحانه– بهذين الآنين الرائقين الموحيين. فيربط بين ظواهر الكون ومشاعر النفس. ويوحي إلى القلب البشري بالحياة الشاعرة المتجاوبة مع هذا الوجود الجميل الحي، المتعاطف مع كل حي. فيعيش ذلك القلب في أُنْس من هذا الوجود، غير موحش ولا غريب فيه فريد... وفي هذه السورة بالذات يكون لهذا الأنس وقعُه. فظل الأنس هو المراد مدُّه. وكأنما يوحي الله لرسوله– ﷺ– منذ مطلع السورة، أن ربه أفاض من حوله الأنس في هذا الوجود، وأنه مِنْ ثم غير مجفوّ فيه ولا فريد!) [1]

ويقول الطاهر ابن عاشور رحمه الله:

(ومناسبة القسم بـ "الضحى والليل" أن الضحى وقت انبثاق نور الشمس فهو إيماء إلى تمثيل نزول الوحي وحصول الاهتداء به، وأن الليل وقت قيام النبي ﷺ بالقرآن، وهو الوقت الذي كان يسمع فيه المشركون قراءته من بيوتهم القريبة من بيته أو من المسجد الحرام.

ولذلك قيد الليل بظرف إذا سجى فلعل ذلك وقت قيام النبي ﷺ قال تعالى: ﴿ قُمِ ٱلَّيۡلَ إِلَّا قَلِيلٗا نِّصۡفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصۡ مِنۡهُ قَلِيلًا ﴾) [2]

وبراعة الستهلال بالقسم بهذين الوقتين ظاهرة لمن تأملها.

السورة التاسعة: سورة العصر.

﴿ وَٱلۡعَصۡرِ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ﴾ [3]

تعددت أقوال المفسرين في بيان المراد بـ العصر في السورة الكريمة

رجح الطبري رحمه الله :أن الصواب من القول في ذلك: أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر (وَالْعَصْرِ) اسم للدهر، وهو العشيّ والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكلّ ما لزِمه هذا الاسم، فداخل فيما أقسم به جلّ ثناؤه.) [4]

وعليه (فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله تعالى في خلق العالم

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٩٢٥/٣٩٢٦. بتصرف .

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٣٩٤-٣٩٥ .والآيتان من سورة المزمل :٢-٣.

(٣) سورة العصر:١-٢.

(٤) جامع البيان ٢٤/٥٨٩

وأحواله) [١]

(وأشهر إطلاق لفظ العصر أنه علم بالغلبة لوقت ما بين آخر وقت الظهر وبين اصفرار الشمس، فمبدؤه إذا صار ظل الجسم مثله بعد القدر الذي كان عليه عند زوال الشمس، ويمتد إلى أن يصير ظل الجسم مثلي قدره بعد الظل الذي كان له عند زوال الشمس. وذلك وقت اصفرار الشمس، والعصر مبدأ العشي. ويعقبه الأصيل والاحمرار وهو ما قبل غروب الشمس.....

وفي ذلك الوقت يتهيأ الناس للانقطاع عن أعمالهم في النهار كالقيام على حقولهم وجناتهم، وتجاراتهم في أسواقهم، فيذكِّر بحكمة نظام المجتمع الإنساني وما ألهم الله في غريزته من دأب على العمل ونظام لابتدائه وانقطاعه. وفيه يتحفز الناس للإقبال على بيوتهم لمبيتهم والتأنس بأهليهم وأولادهم. وهو من النعمة أو من النعيم، وفيه إيماء إلى التذكير بمثل الحياة حين تدنو آجال الناس بعد مضي أطوار الشباب والاكتهال والهرم.) [٢]

(ويطلق العصر على الصلاة الموقتة بوقت العصر. وهي صلاة معظمة. قيل: هي المراد بالوسطى في قوله تعالى: ﴿ حَـٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَـٰنِتِينَ ﴾ [٣] .

وجاء في الحديث: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»[٤] .

وورد في الحديث الصحيح: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة» فذكر «ورجل حلف يمينا فاجرة بعد العصر على سلعة لقد أعطي بها ما لم يعط»)[٥]،[٦]

(ويطلق العصر على مدة معلومة لوجود جبل من الناس، أو ملك أو نبي، أو دين، ويعين بالإضافة، فيقال: عصر الفطحل، وعصر إبراهيم، وعصر الإسكندر، وعصر الجاهلية، فيجوز أن يكون مراد هذا الإطلاق هنا ويكون المعني به عصر النبي ﷺ،

---

(١) التحرير والتنوير ٥٢٨/٣٠.

(٢) التحرير والتنوير ٥٢٨/٣٠.

(٣) سورة البقرة :٢٣٨.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (مسند عبدالله بن عمر رضي الله عنهما) ٥٧/١٠. والنسائي في سننه ك: الصلاة ب:صلاة العصر في السفر ٢٣٧/١.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه ك: المساقاة ب: من رأى أن صاحب الحوض والقربة أحق بمائه ١١٢/٣.

(٦) التحرير والتنوير ٥٢٨/٣٠.

والتعريف فيه تعريف العهد الحضوري مثل التعريف في (اليوم) من قولك: فعلت اليوم كذا، فالقسم به كالقسم بحياته في قوله تعالى:
﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١)،(٢)
قال الفخرالرازي: فهو تعالى أقسم بزمانه في هذه الآية وبمكانه في قوله تعالى:
﴿ وَأَنتَ حِلٌّ بِهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ﴾ (٣) وبعمره في قوله: ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾اهـ.) (٤)
(ويجوز أن يراد عصر الإسلام كله وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم وقد مثل النبي ﷺ عصر الأمة الإسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى بما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بقوله: « " مثل المسلمين، واليهود، والنصارى، كمثل رجل استأجر قوما يعملون له عملا يوما إلى الليل، على أجر معلوم، فعملوا له إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك الذي شرطت لنا وما عملنا باطل، فقال لهم: لا تفعلوا، أكملوا بقية عملكم، وخذوا أجركم كاملا، فأبوا، وتركوا، واستأجر أجيرين بعدهم، فقال لهما: أكملا بقية يومكما هذا ولكما الذي شرطت لهم من الأجر، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر، قالا: لك ما عملنا باطل، ولك الأجر الذي جعلت لنا فيه، فقال لهما: أكملا بقية عملكما ما بقي من النهار شيء يسير، فأبيا، واستأجر قوما أن يعملوا له بقية يومهم، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما، فذلك مثلهم، ومثل ما قبلوا من هذا النور " (٥)
. فلعل ذلك التمثيل النبوي له اتصال بالرمز إلى عصر الإسلام في هذه الآية.) (٦)
(ومناسبة القسم بالعصر لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام بين من كفر به ومن آمن واستوفى حظه من الأعمال التي جاء بها الإسلام، ويعرف منه حال من أسلموا وكان في أعمالهم تقصير متفاوت، أما أحوال الأمم التي كانت قبل الإسلام فكانت مختلفة بحسب مجيء الرسل إلى بعض الأمم، وبقاء بعض الأمم بدون شرائع متمسكة بغير دين الإسلام من

(١) سورة الحجر :٧٢.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٢٩-٥٣٠.
(٣) سورة البلد:٢.
(٤) التفسير الكبير ٣٢/٢٧٩
(٥) صحيح البخاري ك: الإجارة ب: الإجارة من العصر إلى الليل ٣/٩٠.
(٦) التحرير والتنوير ٣٠/٣٥٠.

الشرك أو بدين جاء الإسلام لنسخه مثل اليهودية والنصرانية قال تعالى: ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ (١)، (٢)
وأشارت بنت الشاطيء إلى مثل هذا حيث قالت:(المعنى الأصلي للعصر لغة: الضغط لاستخلاص العصارة.
واستعمل العصر مجازياً في الحبس بملحظ من الضغط.
ومن هذه الدلالة اللغوية الأصلية على الضغط والإعتصار، سمي الدهر عصراً، بملحظ من استخلاصه عصارة الإنسان بالضغط والتجربة والمعاناة.
كما سمى وقت الأصيل إلى غروب الشمس عصراً، ملحوظاً فيه مع الدلالة الزمنية أنه تصفية للنهار. وفي المصطلح الديني الإسلامي، سميت صلاة العصر لوقوعها في هذا الوقت من النهار، كما سميت سائر الصلوات الخمس بأسماء أوقاتها.
وسياق الآية في السورة يلفت إلى ما يعتصر الزمن من خلاصة الإنسان، بالضغط والمعاناة، فيكشف عن خيره أو شره.) (٣) وسياق السورة قائم على كشف أحوال الناس فهم بين أمرين ، خسران وفوز.

السورة العاشرة: سورة الذاريات.

﴿ وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا ﴾ (٤)

(والذاريات ذروا يعني: الرياح تذرو التراب، وهشيم النبات، أي: تفرقه.
فالحاملات وقرًا يعني: السحاب يحمل ثقلًا من الماء.
فالجاريات يسرًا يعني: السفن تجري مُيَسرة في الماء، جريًا سهلًا.
فالمقسمات أمرًا يعني: الملائكة يقسمون الأمر بين الخلق على ما أمروا به، أقسم الله تعالى بهذه الأشياء، لما فيها من الدلالة على صنيعه وقدرته.) (٥)
وما أجمل ما ذكره صاحب الظلال في بيان وجه براعة الاستهلال حيث قال:
(هذه السورة: بافتتاحها على هذا النحو، ثم بسياقها كله، تستهدف أمرا واضحا في سياقها كله.. ربط القلب البشري بالسماء وتعليقه بغيب الله المكنون وتخليصه من

(١) سورة آل عمران :٨٥.
(٢) التحرير والتنوير ٣٠/٥٣٠.
(٣) التفسير البياني للقرآن الكريم د/ عائشة عبدالرحمن ٢/٧٥-٧٧.
(٤) سورة الذاريات :١.
(٥) التفسير الوسيط للواحدي ٤/١٧٣.

أوهاق الأرض، وإطلاقه من كل عائق يحول بينه وبين التجرد لعبادة الله، والانطلاق إليه جملة، والفرار إليه كلية، استجابة لقوله في السورة: ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴾ .. [1] وتحقيقا لإرادته في عباده: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴾.. [2]

ولما كان الانشغال بالرزق وما يخبئه القدر عنه هو أكثف تلك العوائق وأشدها فقد عني في هذه السورة بإطلاق الحس من إساره، وتطمين النفس من جهته، وتعليق القلب بالسماء في شأنه، لا بالأرض وأسبابها القريبة.

وتكررت الإشارة إلى هذا الأمر في السورة في مواضع متفرقة منها. إما مباشرة كقوله: ﴿ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾..إلى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾.. [3] وإما تعريضا كقوله يصور حال عباده المتقين مع المال:﴿ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾.. [4]

ووصفه لجود إبراهيم وسخائه وهو يقري ضيوفه القلائل– أو من حسبهم ضيوفه من الملائكة– بعجل سمين، يسارع به إليهم عقب وفودهم إليه، وبمجرد إلقاء السلام عليه، وهو لم يعرفهم إلا منذ لحظة! فتخليص القلب من أوهاق الأرض، وإطلاقه من إسار الرزق، وتعليقه بالسماء، ترف أشواقه حولها، ويتطلع إلى خالقها في علاه، بلا عائق يحول بينه وبين الانطلاق، ويعوقه عن الفرار إلى الله. هو محور السورة بكل موضوعاتها وقضاياها التي تطرقها. ومن ثم كان هذا الافتتاح، وكان ذلك الإيقاع الغامض في أولها، وكان القسم بعده بالسماء، وكان تكرار الإشارة إلى السماء أيضا..

وفي هذا كانت صورة المتقين التي يرسمها في مطلع السورة: ﴿ إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٍ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡۚ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَبۡلَ ذَٰلِكَ مُحۡسِنِينَ كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ ﴾ .. [5] فهي صورة التطلع إلى الله، والتجرد له، والقيام في عبادته بالليل، والتوجه إليه في الأسحار. مع إرخاص المال، والتخلص من ضغطه، وجعل نصيب السائل والمحروم حقا فيه.

---

(١) سورة الذاريات: ٥٠.
(٢) سورة الذاريات :٥٦.
(٣) سورة الذاريات :٢٢:٥٨.
(٤) سورة الذاريات:١٩.
(٥) سورة الذاريات:١٥:١٩،

وفي هذا كان التوجيه إلى آيات الله في الأرض وفي الأنفس مع تعليق القلوب بالسماء في شأن الرزق، لا بالأرض وما فيها من أسبابه القريبة: ﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ ﴾ .. (١)

وفي هذا كانت الإشارة إلى بناء الله للسماء على سعة، وتمهيده للأرض في يسر، وخلقه ما فيها من أزواج، والتعقيب على هذا كله بالفرار إلى الله: ﴿ وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ ﴾. (٢)

وفي هذا كان الإيقاع الأخير البارز في السورة، عن إرادة الله سبحانه في خلق الجن والإنس، ووظيفتهما الرئيسية الأولى: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴾.. (٣)

فهو إيقاع واحد مطرد. ذو نغمات متعددة. ولكنها كلها تؤلف ذلك الإيقاع، وتطلق ذلك الحداء. الحداء بالقلب البشري إلى السماء!) (٤)

السورة الحادية عشرة: سورة المرسلات.

﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴾ (٥)

(قوله تعالى: ﴿ وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا ﴾ فيه أربعة أقوال :

أحدها: أنها الرياح يَتْبَعُ بعضُها بعضاً.

والثاني: أنها الملائكة التي أرسلت بالمعروف من أمر الله ونهيه.

وقوله عزّ وجلّ: عُرْفاً فإنها: أُرْسِلتْ بالمعروف، ويقال: تَتَابَعَتْ كعُرْفِ الفَرَسِ.

والثالث: أنهم الرسل بما يعرفون به من المعجزات.

والرابع: أنها الملائكة والريح، ومعنى «عرفا» : يتبع بعضها بعضا.) (٦)

(والصواب من القول في ذلك عندنا أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالمرسلات عرفا، وقد ترسل عُرْفا الملائكة، وترسل كذلك الرياح، ولا دلالة تدلّ على أن المعنيّ بذلك أحد الحِزْبين دون الآخر، وقد عمّ جلّ ثناؤه بإقسامه بكل ما كانت صفته ما وصف، فكلّ من كان صفته كذلك، فداخل في قسمه ذلك مَلَكا أو ريحا أو

---

(١) سورة الذاريات ٢١:٢٣.

(٢) سورة الذاريات ٤٧-٤٨.

(٣) سورة الذاريات ٥٦:٥٨.

(٤) في ظلال القرآن ٦/٣٣٧٣-٣٣٧٤.

(٥) سورة المرسلات:١.

(٦) زاد المسير في علم التفسير ٤/٣٨٢-٣٨٣. بتصرف.

رسولا من بني آدم مرسلا.) [1]

ويشير إلى براعة الاستهلال في السورة الزمخشري فيقول: (أقسم سبحانه بطوائف من الملائكة، أرسلهنّ بأوامره فعصفن في مضيهن كما تعصف الرياح، تخففا في امتثال أمره، وبطوائف منهم نشرن أجنحتهن في الجو عند انحطاطهن بالوحي. أو نشرن الشرائع في الأرض. أو نشرن النفوس الموتى بالكفر والجهل بما أوحين، ففرّقن بين الحق والباطل، فألقين ذكرا إلى الأنبياء عُذْراً للمحقين أَوْ نُذْراً للمبطلين. أو أقسم برياح عذاب أرسلهن. فعصفن، وبرياح رحمة نشرن السحاب في الجوّ ففرّقن بينه، كقوله: ﴿ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا ﴾ [2] أو بسحائب نشرن الموات، ففرّقن بين من يشكر الله تعالى وبين من يكفر، كقوله ﴿ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ﴾ [3] فألقين ذكرا إمّا عذرا للذين يعتذرون إلى الله بتوبتهم واستغفارهم إذا رأوا نعمة الله في الغيث ويشكرونها، وإما إنذارا الذين يغفلون الشكر لله وينسبون ذلك إلى الأنواء، وجعلن ملقيات للذكر لكونهن سببا في حصوله إذا شكرت النعمة فيهن
أو كفرت.) [4]

وذلك لأن السورة تحدثت كثيرا عن المكذبين فحسن البدء بما يناسبهم تخويفا لهم من ملائكة العذاب أو ريح الهلاك.

ولذلك يقول الأستاذ / سيد قطب:

(هذه السورة حادة الملامح، عنيفة المشاهد، شديدة الإيقاع، كأنها سياط لاذعة من نار. وهي توقف القلب وقفة المحاكمة الرهيبة، حيث يواجه بسيل من الاستفهامات والاستنكارات والتهديدات، تنفذ إليه كالسهام المسنونة! وتعرض السورة من مشاهد الدنيا والآخرة، وحقائق الكون والنفس، ومناظر الهول والعذاب ما تعرض.

وعقب كل معرض ومشهد تلفح القلب المذنب لفحة كأنها من نار: ﴿ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴾! [5] ويتكرر هذا التعقيب عشر مرات في السورة. وهو لازمة الإيقاع فيها. وهو أنسب تعقيب لملامحها الحادة، ومشاهدها العنيفة، وإيقاعها الشديد.) [1]

---

(١) جامع البيان ٢٤/١٢٤-١٢٥.

(٢) سورة الروم من الآية:٤٨.

(٣) سورة الجن من الآيتين:١٦-١٧.

(٤) الكشاف ٤/٦٧٧.

(٥) تكررت هذه الآية في سورة المرسلات عشر مرات في الآية (١٥-١٩-٢٤-٢٨-٣٤-٣٧-٤٠-٤٥-٤٧-٤٩) وذُكرت نصا مرة واحدة في سورة المطففين في الآية :١٠.

السورة الثانية عشرة: الطور.

﴿ وَٱلطُّورِ ﴾ (٢)

(أقسم الله تعالى بالجبل وكل جبل فهو طور بلغة النبط(٣) ويقال:بلغة السريانية. (٤)
ولكن عني به الجبل الذي كلّم اللهُ عليه موسى- عليه السلام- بمدين.) (٥)
(وهو طور سيناء أقسم الله به لفضله على الجبال.....
وهذه مخلوقات-الطور وما بعدها- أقسم الله بها تنبيها منه وتشريفا، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله.) (٦)

و(هذه السورة تمثل حملة عميقة التأثير في القلب البشري. ومطاردة عنيفة للهواجس والشكوك والشبهات والأباطيل التي تساوره وتتدسس إليه وتختبئ هنا وهناك في حناياه. ودحض لكل حجة وكل عذر قد يتخذه للحيدة عن الحق والزيغ عن الإيمان.. حملة لا يصمد لها قلب يتلقاها، وهي تلاحقه حتى تلجئه إلى الإذعان والاستسلام! وهي حملة يشترك فيها اللفظ والعبارة، والمعنى والمدلول، والصور والظلال، والإيقاعات الموسيقية لمقاطع السورة وفواصلها على السواء. ومن بدء السورة إلى ختامها تتوالى آياتها كما لو كانت قذائف، وإيقاعاتها كما لو كانت صواعق، وصورها وظلالها كما لو كانت سياطا لاذعة للحس لا تمهله لحظة واحدة من البدء إلى الختام! وتبدأ السورة بقسم من

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٧٨٩.

(٢) سورة الطور:١.

(٣)بفتح النون والباء المنقوطة بواحدة وفي آخرها طاء مهملة، هذه النسبة إلى النبط، وهم قوم من العجم، والمنتسب إليهم مقاتل بن حيان النبطي، مولى لبكر بن وائل بن ربيعة، وقد قيل مولى تيم الله بن ثعلبة، ويقال: مولى بنى شيبان. الأنساب للسمعاني (١٣ / ٢٦)

(٤)السريانية: لهجة آرامية ارتبطت بالمسيحية، ولذا يحب أبناؤها تمييزها عن اللهجات الآرامية الأخرى، وقد انتشرت السريانية بعد أن كانت في منطقة محدودة في شمال الشام لتصبح لغة جماعة كبيرة في شمال العراق والشام، وتكون السريانية مع لغة التلمود البابلي والمندعية مجموعة آرامية واحدة يطلق عليها المجموعة الشرقية، فهذه اللهجات الثلاث تتفق في عدد كبير من الخصائص اللغوية وهي متقاربة كل التقارب من ناحية البنية اللغوية. ومن الطبيعي أن تتأثر آرامية التلمود البابلي بالعبرية، وأن تأخذ مندعية الصابئة اتجاها خاصا بها، وأن تتأثر السريانية المسيحية بالثقافة السائدة في منطقة الشام والأفكار المسيحية. علم اللغة العربية د/ محمود فهمي حجازي(ص: ١٧٦) دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع

(٥) بحر العلوم للسمرقندي ٣/٣٥٠.

(٦) المحرر الوجيز ٥/١٨٥.

الله سبحانه بمقدسات في الأرض والسماء. بعضها مكشوف معلوم! وبعضها مغيب مجهول) [١]

(ومناسبة الأمور المقسم بها للمقسم عليه أن هذه الأشياء المقسم بها من شؤون بعثة موسى عليه السلام إلى فرعون وكان هلاك فرعون ومن معه من جراء تكذيبهم موسى عليه السلام.) [٢]

السورة الثالثة عشرة: سورة التين.

﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ﴾ [٣]

(التين: هو التين الذي يُؤكل، والزيتون: هو الزيتون الذي يُعصر منه الزيت، لأن ذلك هو المعروف عند العرب، ولا يُعرف جبل يسمى تينا، ولا جبل يقال له زيتون، إلا أن يقول قائل: أقسم ربنا جلّ ثناؤه بالتين والزيتون.) [٤]

(أقسم بالتين لأنها فاكهة مُخَلَّصة من شائب التنغيص، وهو يدل على قدرة من هيَّأه على تلك الصفة، وجعل الواحد منه على مقدار اللقمة، وإنما أقسم بالزيتون لكثرة الانتفاع به.) [٥]

القسم في هذه السورة جاء بالتين والزيتون وطور سينين وبالبلد الأمين،(والإشارة بالأمور المقسم بها إلى أطوار الشرائع الأربعة إيماء إلى أن الإسلام جاء مصدقا لها وأنها مشاركة أصولها لأصول دين الإسلام.

فالتين إيماء إلى رسالة نوح وهي أول شريعة لرسول، والزيتون إيماء إلى شريعة إبراهيم فإنه بنى المسجد الأقصى كما ورد في الحديث ، وطور سينين إيماء إلى شريعة التوراة، والبلد الأمين إيماء إلى مهبط شريعة الإسلام، ولم يقع إيماء إلى شريعة عيسى لأنها تكملة لشريعة التوراة.

وبراعة الاستهلال واضحة في أن السورة عُنيت بالتنويه بحسن جزاء الذين اتبعوا الإسلام في أصوله وفروعه.

وشملت الامتنان على الإنسان بخلقه على أحسن نظام في جثمانه ونفسه.) [٦]

---

(١) **في ظلال القرآن ٦/٣٣٩١.**

(٢) **التحرير والتنوير ٢٧/٣٦.**

(٣) **سورة التن:١.**

(٤) **جامع البيان ٢٤/٥٠٣.**

(٥) **زاد المسير في علم التفسير ٤/٤٦٣.**

(٦) **التحرير والتنوير ٣٠/٤٢٠-٤٢٢. بتصرف**

ولا يكون الحُسْن للبشر بمعزل عن هدي الإيمان على لسان الأنبياء والمرسلين.

السورة الرابعة عشرة: سورة النازعات.

﴿ وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا ﴾ (١)

في المراد بالنازعات(ستة أقاويل: أحدها: هي الملائكة تنزع نفوس بني آدم ، الثاني: هو الموت ينزع النفوس، الثالث: هي النفوس حين تنزع، الرابع: هي النجوم تنزع من أفق إلى أفق، ومن المشرق إلى المغرب، والخامس: هي القسيّ تنزع بالسهم، السادس: هي الوحش تنزع من الكلأ وتنفر، ومعنى (غرقاً) أي إبعاداً في النزع.) (٢)

(والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال: إن الله تعالى ذكره أقسم بالنازعات غرقا، ولم يخصص نازعة دون نازعة، فكلّ نازعة غرقا، فداخلة في قسمه، ملكا كان أو موتا، أو نجما، أو قوسا، أو غير ذلك. والمعنى: والنازعات إغراقا كما يغرق النازع في القوس.) (٣)

وعند كثير من المفسرين أن المراد بالنازعات الملائكة تنزع الأرواح (٤) (والمقسم عليه محذوف، وهو «لتبعثن» لدلالة ما بعده عليه من ذكر القيامة.) (٥)

(والقسم على هذا الوجه مناسب للغرض الأهم من السورة وهو إثبات البعث لأن الموت أول منازل الآخرة فهذا من براعة الاستهلال.) (٦)

السورة الخامسة عشرة: سورة العاديات.

﴿ وَٱلۡعَٰدِيَٰتِ ضَبۡحٗا ﴾ (٧)

(يعنى بالعاديات ههنا الخيل، وهذا قسم جوابه: (إن الإنسان لربه لكنود) .

---

(١) سورة النازعات:١.

(٢) النكت والعيون ١٩٢/٦.

(٣) جامع البيان ١٨٦/٢٤.

(٤) ينظر الكشاف ٦٩٢/٤،والمحرر الوجيز ٤٣٠/٥. وقال: قال ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم: النازعات: الملائكة تنزع نفوس بني آدم.، وهذا القول قدمه ابن الجوزي في تفسيره ٣٩٣/٤، والرازي ٢٨/٣١،والقرطبي ١٩٠/١٩،والبيضاوي في أنوار التنزيل ٢٨٢/٥، والنسفي ٥٩٥/٣،والثعالبي في الجواهر الحسان ٥٤٧/٥،والخطيب الشربيني في السراج المنير ٤٧٥/٤.

(٥)الكشاف ٦٩٣/٤.

(٦) التحرير والتنوير ٦٢/٣٠.

(٧) سورة العاديات:١.

وقوله: (ضبحا) .معناه والعاديات تضبح ضبحا، وضبحها صوت أجوافها إذا عَدَتْ.) [١]

ومن العلماء من يرى أنها الإبل في الحج ، قاله عليٌّ وابن مسعودرضي الله عنهما ومنه قول صفية بنت عبد المطلب:

(فلا والعاديات غَداة جَمْعٍ ... بأيديها إذا صدع الغبار)

وأما الإبل فضبحها بالنفَس) [٢]

(يجري سياق هذه السورة في لمسات سريعة عنيفة مثيرة، ينتقل من إحداها إلى الأخرى قفزا وركضا ووثبا، في خفة وسرعة وانطلاق، حتى ينتهي إلى آخر فقرة فيها فيستقر عندها اللفظ والظل والموضوع والإيقاع! كما يصل الراكض إلى نهاية المطاف! وتبدأ بمشهد الخيل العادية الضابحة، القادحة للشرر بحوافرها، المغيرة مع الصباح، المثيرة للنقع وهو الغبار، الداخلة في وسط العدُوّ فجأة تأخذه على غرة، وتثير في صفوفه الذعر والفرار! يليه مشهد في النفس من الكنود والجحود والأثرة والشح الشديد! ثم يعقبه مشهد لبعثرة القبور وتحصيل ما في الصدور! وفي الختام ينتهي النقع المثار، وينتهي الكنود والشح، وتنتهي البعثرة والجمع.. إلى نهايتها جميعا. إلى الله.

فتستقر هناك: «إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ» ...) [٣]

(ومناسبة القسم بهذه الموصوفات دون غيرها إن أريد رواحل الحجيج وهو الوجه الذي فسر به علي بن أبي طالب هو أن يصدّق المشركون بوقوع المقسم عليه لأن القسم بشعائر الحج لا يكون إلا بارا حيث هم لا يصدقون بأن القرآن كلام الله ويزعمونه قول النبي ﷺ .

وإن أريد بـ العاديات وما عطف عليها خيل الغزاة، فالقسم بها لأجل التهويل والترويع لإشعار المشركين بأن غارة تترقبهم وهي غزوة بدر، مع تسكين نفس النبي ﷺ من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المنذر بن عمرو إذا صح خبرها فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجا للاطمئنان.) [٤]

---

(١) **معاني القرآن وإعرابه للزجاج ٣٥٣/٥.**

(٢) **النكت والعيون ٣٢٣/٦-٣٢٤. بتصرف.**

(٣) **في ظلال القرآن ٦ / ٣٩٥٧.**

(٤) **التحرير والتنوير ٣٠ / ٥٠٢.**

مع الأخذ في الاعتبار أن السورة تحدثت عن خروج الناس من قبورهم بعد رحلة حياتية مليئة بالكد والركض فناسب أن يكون البدء حديثا عن الخيل الراكضة ولابد وأن يأتي يوم تسكن هذه الحركة وتنتهي وهذه سنة الله في خلقه.

المطلب السادس: السور المفتتحة بالشرط .

قال السيوطي: (الشَّرْطُ فِي سَبْعِ سُوَرٍ: "الْوَاقِعَةُ"، وَالْمُنَافِقُونَ وَالتَّكْوِيرُ وَالِانْفِطَارُ وَالِانْشِقَاقُ وَالزَّلْزَلَةُ وَالنَّصْرُ.) (١)

(هذه السور السبع يمكن أن نصطلح على تسميتها: المجموعة الشرطية – أو القسم الشرطي من سور القرآن الكريم– وهي تشترك في عدة خصائص:

أولاً: أن الطابع الغالب عليها أنها مكية النزول، ما عدا " الزلزلة " فهى مدنية باتفاق، وما عدا " النصر " ففيها رأيان. مكية باعتبار المكان لنزولها بعد الهجرة. وما عدا " المنافقين " فمدنية باتفاق.

ثانياً: أن في معظم هذه السور حديثاً عن القيامة ومقدماتها. مع ما اقترن به الحديث عنها من أغراض أخرى لها بالمقام نسب ورحم.

ثالثاً: أن الشرط فيها قد تردد كثيراً في السورة الواحدة، ولم يقتصر وروده على مطلع السورة فحسب وذلك أمر ظاهر من مجرد تلاوة هذه السور السبع وتتبع أساليب التعبير فيها.

رابعاً: أن هذه السور السبع – المجموعة الشرطية أو القسم الشرطي – موضوعاتها أمور مستقبَلة في الغالب. استقبالاً حقيقياً كما سيحدث من مقدمات القيامة وأهوال الحشر، أو استقبالاً باعتبار الحكاية كمجيء نصر الله فى مطلع سورة " النصر ". إلا ما دعا إليه المقام من الأغراض الأخرى كتقرير أمر واقع، أو لمحة من أخبار تكمل بها الصورة ويتضح بها المقام.

خامساً: أن الحديث فيها إذا كان عن مشهد من مشاهد القيامة. أو عن أمر يتكرر من مظاهر الطبيعة وسُنة الله في الكون، أو عن مصير عام محتوم، أو ما قارب هذه الأمور فالأداة المفضلة هي " إذا " المؤذنة بتحقيق شرطها وجوابها. وإن لم يكن الحديث عن هذه الأمور بل غيرها: فالأداة غيرها " إن " أو " لو " وما شابه ذلك. والقيمة البيانية لهذا المطلع الشرطي التي من أجلها – والله أعلم – آثر القرآن افتتاح هذه السور بها. هي أن الأسلوب الشرطي يمتاز بربطه بين أجزاء الكلام ربطاً ملاحَظاً فيه ترتب السبب على السبب. .فإذا ذكِرت أداة الشرط وأردفت بفعل الشرط تشوقت النفس إلى ذكر ما سيكون. .فإذا ذكِر الجواب بعد هذه الإثارة وهذا التشويق تمكن أيما تمكن.

---

(١) الإتقان ٣/٣٦٢.

والذي يزيد من هذه القيمة البيانية لأسلوب الشرط في القرآن الكريم أمران:
الأول: أن القرآن في غالب الفواتح من هذا النوع لا يكتفى بفعل شرط واحد – كما هو الحال في غيره – بل يقرن به أشباهاً ونظائر يطول تأمل السامع فيها وتضاعف من تشوقه إلى الجواب كلما انتقل من جزء إلى جزء. فيأتيه الجواب بعد تلهف وطول ترقب.
الثاني: أن أجزاء الأسلوب الشرطي في القرآن ليست من جنس ما يستعمله الناس من أمور عادية قد لا يهتم بها إنسان. أو ليس للوقوف عنده على مدلولاتها كبير معنى – أو ربما تنبأ – سَلفاً – بما سيكون عليه الحال فلا يفيد منها فائدة جديدة.
وليس الحال كذلك في القرآن. بل فيه – فوق دقة النظم وجمال التركيب– غرابة وجزالة.) [1]

السورة الأولى : الواقعة.

(الواقعة.. اسم للسورة وبيان لموضوعها معا. فالقضية الأولى التي تعالجها هذه السورة المكية هي قضية النشأة الآخرة، ردا على قولة الشاكين فيها، المشركين بالله، المكذبين بالقرآن:
﴿ أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ أَوَآبَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴾.. [2]
ومن ثم تبدأ السورة بوصف القيامة. وصفها بصفتها التي تنهي كل قول، وتقطع كل شك، وتشعر بالجزم في هذا الأمر.. الواقعة﴿ إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴾.. [3] وتذكر من أحداث هذا اليوم ما يميزه عن كل يوم، حيث تتبدل أقدار الناس، وأوضاع الأرض، في ظل الهول الذي يبدل الأرض غير الأرض، كما يبدل القيم غير القيم سواء: ﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴾... إلخ» .) [4]
ويقول الطاهر ابن عاشور:

---

(١) **خصائص التعبير القرآني وسماته البلاغية (١ / ٢٠٧-٢٠٩) .**
(٢) **سورة الواقعة :٤٧-٤٨.**
(٣) **سورة الواقعة :١-٢.**
(٤) **سورة الواقعة : ٣:٧. وينظر في ظلال القرآن ٦ / ٣٤٦١.**

(افتتاح السورة بالظرف المتضمن الشرط، افتتاح بديع لأنه يسترعي الألباب لترقب ما بعد هذا الشرط الزمانيّ مع ما في الاسم المسند إليه من التهويل بتوقع حدث عظيم يحدث.) (١)

ويقرر هذا المعنى الدكتور طنطاوي فيقول:

(وقد اختير الافتتاح بالظرف المتضمن معنى الشرط، لأنه ينبه الأذهان ويحرك النفوس لترقب الجواب.

والواقعة من أسماء القيامة كالقارعة، والحاقة، والآزفة..) (٢)

قال الجمل: وفي إذا هنا أوجه: أحدها: أنها ظرف محض، ليس فيها معنى الشرط، والعامل فيها ليس، من حيث ما فيها من معنى النفي، كأنه قيل: ينتفى التكذيب بوقوعها إذا وقعت.

والثاني: أن العامل فيها اذكر مقدرا. الثالث: أنها شرطية وجوابها مقدر، أى: إذا وقعت الواقعة كان، كيت وكيت، وهو العامل فيها..) (٣)

السورة الثانية: المنافقون.

﴿ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ ۘ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ﴾ (٤)

(هذه السورة التي تحمل هذا الاسم الخاص «المنافقون» الدال على موضوعها.. ليست هي السورة الوحيدة التي فيها ذِكْرُ النفاق والمنافقين، ووصف أحوالهم ومكائدهم. فلا تكاد تخلو سورة مدنيّة من ذكر المنافقين تلميحا أو تصريحا. ولكن هذه السورة تكاد تكون مقصورة على الحديث عن المنافقين، والإشارة إلى بعض
الحوادث والأقوال التي وقعت منهم ورويت عنهم.

وهي تتضمن حملة عنيفة على أخلاق المنافقين وأكاذيبهم ودسائسهم ومناوراتهم، وما في نفوسهم من البغض والكيد للمسلمين، ومن اللؤم والجبن وانطماس البصائر والقلوب.

---

(١) التحرير والتنوير ٢٨١/٢٧.

(٢)التفسير الوسيط د/ طنطاوي ١٥٨/١٤.

(٣) الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية سليمان بن عمر العجيلي ٢٦٩/٤-٢٧٠ ط: دار إحياء التراث العربي

(٤) سورة المنافقون:١.

وليس في السورة عدا هذا إلا لفتة في نهايتها إلى الذين آمنوا لتحذيرهم من كل ما يلصق بهم صفة من صفات المنافقين، ولو من بعيد. وأدنى درجات النفاق عدم التجرد لله، والغفلة عن ذكره اشتغالا بالأموال والأولاد، والتقاعس عن البذل في سبيل الله حتى يأتي اليوم الذي لا ينفع فيه البذل والصدقات.

وحركة النفاق التي بدأت بدخول الإسلام المدينة، واستمرت إلى قرب وفاة رسول الله– ﷺ– ولم تنقطع في أي وقت تقريبا، وإن تغيرت مظاهرها ووسائلها بين الحين والحين.. هذه الحركة ذات أثر واضح في سيرة هذه الفترة التاريخية وفي أحداثها وقد شغلت من جهد المسلمين ووقتهم وطاقتهم قدرا كبيرا وورد ذكرها في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف مرات كثيرة تدل على ضخامة هذه الحركة، وأثرها البالغ في حياة الدعوة في ذلك الحين.) [١]

ولا شك أن المنافقين جاءوا وقالوا بأفواههم ما ليس في قلوبهم وفضحهم الله فناسب أن يأتي التعبير بإذا التي تفيد تحقق الوقوع.

السورة الثالثة :التكوير.

﴿ إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ﴾ [٢]

معنى كورت: «تُكَوَّرُ حَتَّى يَذْهَبَ ضَوْءُهَا فَلَا يَبْقَى لَهَا ضَوْءٌ»[٣]

وفي تفسير الوسيط للواحدي:(قال ابن عباس: يكور الله الشمس، والقمر، والنجوم يوم القيامة في البحر، ثم يبعث عليها ريحًا، فتضربها فتصير نارًا.) [٤]

و(هذه السورة ذات مقطعين اثنين تعالج في كل مقطع منهما تقرير حقيقة ضخمة من حقائق العقيدة:

الأولى حقيقة القيامة، وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل كامل، يشمل الشمس والنجوم والجبال والبحار، والأرض والسماء، والأنعام والوحوش، كما يشمل بني الإنسان.

والثانية حقيقة الوحي، وما يتعلق بها من صفة الملَك الذي يحمله، وصفة النبي الذي يتلقاه، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي معه، ومع المشيئة الكبرى التي فطرتهم ونزلت لهم الوحي.

---

(١) في ظلال القرآن ٦ / ٣٥٧٢ .

(٢) سورة التكوير:١.

(٣) تفسير مجاهد صـ٧٠٧.

(٤) تفسير لوسيط للواحدي ٤٢٨/٤.

والإيقاع العام للسورة أشبه بحركة جائحة. تنطلق من عقالها، فتقلب كل شيء، وتنثر كل شيء وتهيج.

ومن ثم فالسورة بإيقاعها العام وحده تخلع النفس من كل ما تطمئن إليه وتركن، لتلوذ بكنف الله، وتأوي إلى حماه، وتطلب عنده الأمن والطمأنينة والقرار..

وفي السورة– مع هذا– ثروة ضخمة من المشاهد الرائعة، سواء في هذا الكون الرائع الذي نراه، أو في ذلك اليوم الآخر الذي ينقلب فيه الكون بكل ما نعهده فيه من أوضاع. وثروة كذلك من التعبيرات الأنيقة! المنتقاة لتلوين المشاهد والإيقاعات. وتلتقي هذه وتلك في حيز السورة الضيق، فتضغط على الحس وتنفذ إليه في قوة وإيحاء.) [١]

ويقول الطاهر ابن عاشور:

(الافتتاح بـ (إذا) افتتاح مشوق لأن إذا ظرف يستدعي متعلقا، ولأنه أيضا شرط يؤذن بذكر جواب بعده، فإذا سمعه السامع ترقب ما سيأتي بعده فعند ما يسمعه يتمكن من نفسه كمال تمكن، وخاصة بالإطناب بتكرير كلمة "إذا" وتعدد الجمل التي أضيف إليها اثنتي عشرة مرة، فإعادة كلمة "إذا" بعد واو العطف في هذه الجمل المتعاطفة إطناب، وهذا الإطناب اقتضاه قصد التهويل، والتهويل من مقتضيات الإطناب والتكرير) [٢]

أيضا البدء بالشمس وتكويرها يلفت أنظار الناس جميعا إلى حقيقة مهمة وهي أن الشمس مع عظمها كما وكيفا فهي في مقدور علام الغيوب فعلى البشر أن يستعدوا لذلك اليوم المهيب.

السورة الرابعة:الانفطار.

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾ [٣]

انفطرت:(أي انشقت، تتشقق السماء يوم القيامة بالغمام) [٤]

انفجرت لهيبة الرب تبارك وتعالى ويقال:انفجرت لنزول الملائكة لقوله تعالى ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾ [٥]، [٦]

---

(١) في ظلال القرآن ٦/٣٨٣٦-٣٨٣٧. بتصرف

(٢) التحرير والتنوير ٣٠/١٤٠.

(٣) سورة الانفطار:١.

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/٢٩٥.

(٥) سورة الفرقان:٢٥.

(٦) بحر العلوم ٣/٥٥٤.

(هذه أوصاف يوم القيامة، و «انفطار السماء» : تشققها على غير نظام مقصود إنما هو انشقاق لتزول بنيتها.) [١]

(قَوْلُهُ: ﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ ﴾[٢] أَيِ انْشَقَّتْ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا ﴾[٣] ،﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾[٤] ،﴿ فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴾[٥] ،﴿ وَفُتِحَتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ أَبْوَٰبًا ﴾[٦] ،﴿ ٱلسَّمَآءُ مُنفَطِرٌۢ بِهِۦ كَانَ وَعْدُهُۥ مَفْعُولًا ﴾[٧] ، [٨]

و(الافتتاح بـ" إذا" افتتاح مشوق لما يَرِدُ بعدها من متعلقها الذي هو جواب ما في (إذا) من معنى الشرط كما تقدم في أول سورة إذا الشمس كورت، سوى أن الجمل المتعاطفة المضاف إليها هي هنا أقل من اللاتي في سورة التكوير لأن المقام لم يقتض تطويل الإطناب كما اقتضاه المقام في سورة التكوير وإن كان في كلتيهما
مقتض للإطناب لكنه متفاوت لأن سورة التكوير من أول السور نزولا .....
وأما سورة الانفطار فبينها وبين سورة التكوير أربع وسبعون سورة تكرر في بعضها إثبات البعث والجزاء والإنذار وتقرر عند المخاطبين فأغنى عن تطويل الإطناب والتهويل.
و"إذا" ظرف للمستقبل متضمن معنى الشرط.) [٩]

السورة الخامسة:سورة الانشقاق.

﴿ إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ ﴾ [١٠]

هذه السورة تتحدث عن بعض علامات الساعة وذكرت حال الناس وأنهم فريقان فريق ناج وآخر هالك ولما كان أمر الساعة محقق لا محالة عُبر هنا بإذا المفيدة تحقق الوقوع .قال الطاهر ابن عاشور:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/٤٤٦.
(٢) سورة الانفطار :١.
(٣) سورة الفرقان:٢٥.
(٤) سورة الانشقاق:١.
(٥) سورة الرحمن :٣٧.
(٦) سورة النبأ:١٩.
(٧) سورة المزمل:١٨
(٨) مفاتيح الغيب : ٣١ / ٧٢.
(٩) التحرير والتنوير ٣٠ / ١٧٠.
(١٠) سورة الانشقاق:١.

(ابتدئت بوصف أشراط الساعة وحلول يوم البعث واختلاف أحوال الخلق يومئذ بين أهل نعيم وأهل شقاء.

وقدم المسند إليه على المسند الفعلي في قوله: إذا السماء انشقت دون أن يقال: إذا انشقت السماء لإفادة تقوي الحكم وهو التعليق الشرطي، أي أن هذا الشرط محقق الوقوع، زيادة على ما يقتضيه إذا في الشرطية من قصد الجزم بحصول الشرط بخلاف (إن) .) [١]

السوة السادسة: الزلزلة.

﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾[٢]

يشير الرازي رحمه الله إلى وجه براعة الاستهلال في هذه السورة ببيان وجه اتصالها بما سبقها فيقول: (ذَكَرُوا فِي الْمُنَاسَبَةِ بَيْنَ أَوَّلِ هَذِهِ السُّورَةِ وَآخِرِ السُّورَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ وُجُهين أَحَدُهَما: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا قَالَ: ﴿ جَزَآؤُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾[٣] فَكَأَنَّ الْمُكَلَّفَ قَالَ: وَمَتَى يَكُونُ ذَلِكَ يَا رَبِّ فَقَالَ: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴾فَالْعَالَمُونَ كُلُّهُمْ يَكُونُونَ فِي الْخَوْفِ، وَأَنْتَ في ذلك الوقت تنال جزاءك وَتَكُونُ آمِنًا فِيهِ، كَمَا قَالَ:﴿ وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ﴾ [٤]

ثَانِيهَا: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا ذَكَرَ فِي السُّورَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَعِيدَ الْكَافِرِ وَوَعْدَ الْمُؤْمِنِ أَرَادَ أَنْ يَزِيدَ فِي وَعِيدِ الْكَافِرِ، فَقَالَ: أُجَازِيهِ حِينَ يَقُولُ الْكَافِرُ السَّابِقُ ذكره: ما للأرض تزلزل، نظيره قَوْلِهِ: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [٥] ثُمَّ ذَكَرَ الطَّائِفَتَيْنِ فَقَالَ: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [٦]﴿ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ ﴾ [٧] ثم جمع بينهما فِي آخِرِ السُّورَةِ فَذَكَرَ الذَّرَّةَ مِنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ.) [٨]

ويشير الطاهر رحمه الله إلى أغراض تلك السورة فيقول:

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٢١٧-٢١٨)

(٢) سورة الزلزلة:١.

(٣) سورة البينة من الآية:٨.

(٤) سورة النمل من الآية: ٨٩.

(٥) سورة آل عمران من الآية: ١٠٦.

(٦) سورة آل عمران من الآية : ١٠٦.

(٧) سورة آل عمران من الآية :١٠٧.

(٨) مفاتيح الغيب (٣٢ / ٢٥٣) كما اشار إلى ذلك أبو حيان في تفسيره ٥٢١/١٠.والنيسابوري ٥٤٦/٦.

(إثبات البعث وذكر أشراطه وما يعتري الناس عند حدوثها من الفزع.
وحضور الناس للحشر وجزاؤهم على أعمالهم من خير أو شر وهو تحريض على فعل الخير واجتناب الشر.
وافتتاح الكلام بظرف الزمان مع إطالة الجمل المضاف إليها الظرف تشويق إلى متعلق الظرف إذ المقصود ليس توقيت صدور الناس أشتاتا ليروا أعمالهم بل الإخبار عن وقوع ذلك وهو البعث، ثم الجزاء، وفي ذلك تنزيل وقوع البعث منزلة الشيء المحقق المفروغ منه بحيث لا يهم الناس إلا معرفة وقته وأشراطه فيكون التوقيت كناية عن تحقيق وقوع الموقت.) [1]

السورة السابعة: النصر.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [2]

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: إذا جاءك نصر الله يا محمد على قومك من قريش، والفتح: فتح مكة (وَرَأَيْتَ النَّاسَ) من صنوف العرب وقبائلها أهل اليمن منهم، وقبائل نزار ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ يقول: في دين الله الذي ابتعثك به،وطاعتك التي دعاهم إليها أفواجًا، يعني: زُمَرًا، فوجًا فوجًا) [3]

وبراعة الاستهلال في تلك السورة واضحة من خلال رواية البخاري بسنده عن ابن عباس، قال: كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدني ابن عباس، فقال له عبد الرحمن بن عوف: إن لنا أبناء مثله، فقال: إنه من حيث تعلم، فسأل عمر ابن عباس عن هذه الآية، ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ، فقال: «أجل رسول الله ﷺ أعلمه إياه» قال: ما أعلم منها إلا ما تعلم) [4]

والتعبير بإذا التي تفيد تحقق الوقوع من أن النصر قد تحقق ودخل الناس في دين الله جماعات وانتشر دين الله في مشارق الأرض ومغاربها ومانعيت إلى النبي ﷺ نفسه إلا لأن مهمته انتهت والرسالة أديت. (وَلِذَلِكَ سُمِّيَتْ سُورَةَ التَّوْدِيعِ) [5]

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٤٩٠)
(٢) سورة النصر:١.
(٣) جامع البيان (٢٤ / ٦٦٧)
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه ك: المناقب ب: علامات النبوة في الإسلام ٤/٢٠٤.
(٥) مفاتيح الغيب (٣٢ / ٣٣٩)

و(مقصودها الإعلام بتمام الدين اللازم عن مدلول اسمها النصر، اللازم عنه موت النبي ﷺ ، اللازم عنه العلم بأنه ما برز إلى عالم الكون والفساد إلا لإعلاء كلمة الله تعالى وإدحاض كلمة الشيطان – لعنة الله تعالى عليه – اللازم عنه أنه ﷺ خلاصة الوجود، وأعظم عبد للولي الودود، وعلى ذلك أيضا دل اسمها التوديع وحال نزولها وهو أيام التشريق من سنة حجة الوداعه) [1]

المطلب السَّابِعُ: السور المفتتحة بالْأَمْرُ[2]

جاء الافتتاح بالأمر فِي سِتِّ سُوَرٍ: **(قُلْ أوحي)، (اقرأ)، (قل يا أيها الْكَافِرُونَ)، (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ)، (قُلْ أَعُوذُ)** الْمُعَوِّذَتَيْنِ.

وهذه السور الست بدأت بالفعل الأمر الصريح ، خمسة منها بالفعل (قل) وواحدة بالفعل (اقرأ)، والغالب على تلك السور أنها مكية ، على أن هناك أقوالا تقول بمدنية البعض منها على قلة، وأن الفعل (قل) له دلالات منها:

أن النبي ﷺ مبلغ فقط ولا دخل له في هذا الكتاب سوى البلاغ والبيان .

كما أن هذا الفعل يوحي بأهمية ما يأتي بعده.

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢ / ٣١٢)

(٢) الأمر : طلب الفعل ممن هو دونك وبعثه عليه. وبه سمى الأمر الذي هو واحد الأمور لأن الداعي الذي يدعو إليه من يتولاه شبه بآمر يأمره به، فقيل له: أمر، تسمية للمفعول به بالمصدر كأنه مأمور به، كما قيل له شأن. والشأن: الطلب والقصد. يقال: شأنت شأنه، أى قصدت قصده. الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (١ / ١٢١) وما جاء في القرآن بمعنى الشأن أيضا قوله : (وإليه يرجع الأمر كله) سورة هود من الآية : ١٢٣.ويقال للإبداع أمر كما في قوله تعالى : (ألا له الخلق والأمر) من سورة الأعراف من الآية :٥٤.وهذا يختص بالله تعالى دون الخلائق) مفردات الراغب الأصفهاني ٨٨/١.

وللأمر صيغ أربع :

الأولى: فعل الأمر الصريح نحو قوله تعالى : (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) البقرة من الآية:٢١.

الثانية: المضارع المقترن بلام الأمر كما في قوله تعالى: (وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافا خافوا عليهم فليتقوا الله وليقولوا قولا سديدا) سورة النساء:٩.

الثالثة: اسم فعل الأمر نحو قوله تعالى : (عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) المائدة من الآية :١٠٥.

الرابعة : المصدر النائب عن فعل الأمر نحو قوله تعالى ك (وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) سورة البقرة من الآية:٢٨٥. أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية يوسف عبدالله الأنصاري ١١-١٢.رسالة ماجستير في جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤١٠هـ١٩٩٠م

والسور المفتتحة بالأمر في القرآن الكريم جاءت بالفعل الصريح .

وأن هذا البدء يناسب المرحلة الدعوية المكية حيث كان الجهاد فيها بالكلمة، ولمّا يؤمر النبي ﷺ بالقتال بعد، وأن تلك المرحلة تقتضي بيانا وإيضاحا لقوم لم يعهدوا هذا الأمر لبعد الفترة الزمنية بينهم وبين آخر الأنبياء قبل نبينا محمد ﷺ ،وهو عيسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام.

أولا سورة الجن:

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴾ (١)

أخرج البخاري ومسلم بسندهما إلى عبد الله بن عباس رضي الله عنهما، قال: " انطلق النبي ﷺ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها، فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي ﷺ وهو بنخلة عامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، وقالوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا يَهْدِيٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴾(٢) ، فأنزل الله على نبيه ﷺ: ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ ﴾(٣) وإنما أوحي إليه قول الجن ")(٤)

قال ابن عطية: (وهي مكية بإجماع من المفسرين.) (٥)

(قَوْلَهُ تَعَالَى: (قُلْ) أَمْرٌ مِنْهُ تَعَالَى لِرَسُولِهِ أَنْ يُظْهِرَ لِأَصْحَابِهِ مَا أَوْحَى اللَّهُ فِي وَاقِعَةِ الْجِنِّ.

وَفِيهِ فَوَائِدُ إِحْدَاهَا: أَنْ يَعْرِفُوا بِذَلِكَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَمَا بُعِثَ إِلَى الْإِنْسِ، فَقَدْ بُعِثَ إِلَى الْجِنِّ.

---

(١) سورة الجن:١.

(٢) سورة الجن :١-٢.

(٣) سورة الجن:١.

(٤) أخرجه الشيخان البخاري في صحيحه ك: الأذان ب: الجهر بقراءة صلاة الفجر ١/١٥٤، ومسلم في صحيحه ك: الصلاة ب: الجهر بالقراءة في الصبح والقراءة على الجن ١/٣٣١.

(٥) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٣٧٨).

وَثَانِيهَا: أَنْ يَعْلَمَ قُرَيْشٌ أَنَّ الْجِنَّ مَعَ تَمَرُّدِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ عَرَفُوا إِعْجَازَهُ، فَآمَنُوا بِالرَّسُولِ ﷺ.

وَثَالِثُهَا: أَنْ يَعْلَمَ الْقَوْمُ أَنَّ الْجِنَّ مُكَلَّفُونَ كَالْإِنْسِ.

وَرَابِعُهَا: أَنْ يَعْلَمَ أَنَّ الْجِنَّ يَسْتَمِعُونَ كَلَامَنَا وَيَفْهَمُونَ لُغَاتِنَا.

وَخَامِسُهَا: أَنْ يُظْهِرَ أَنَّ الْمُؤْمِنَ مِنْهُمْ يَدْعُو غَيْرَهُ مِنْ قَبِيلَتِهِ إِلَى الْإِيمَانِ، وَفِي كُلِّ هَذِهِ الْوُجُوهِ مصالح كثيرة إذا عرفها الناس.) (١)

ويذكر أبو حيان مناسبة هذه السورة لما قبلها وبه إشارة إلى براعة الاستهلال فيها فيقول: (وَوَجْهُ مُنَاسَبَتِهَا لِمَا قَبْلَهَا: أَنَّهُ لَمَّا حَكَى تَمَادِي قَوْمِ نُوحٍ فِي الْكُفْرِ وَعُكُوفِهِمْ عَلَى عِبَادَةِ الْأَصْنَامِ، وَكَانَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَوَّلَ رَسُولٍ إِلَى الْأَرْضِ كَمَا أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ آخِرُ رَسُولٍ إِلَى الْأَرْضِ، وَالْعَرَبُ الَّذِي هُوَ مِنْهُمْ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانُوا عُبَّادَ أَصْنَامٍ كَقَوْمِ نُوحٍ، حَتَّى أَنَّهُمْ عَبَدُوا أَصْنَامًا مِثْلَ أَصْنَامِ أُولَئِكَ فِي الْأَسْمَاءِ، وَكَانَ مَا جَاءَ بِهِ مُحَمَّدُ ﷺ من الْقُرْآنِ هَادِيًا إِلَى الرُّشْدِ، وَقَدْ سَمِعَتْهُ الْعَرَبُ، وَتَوَقَّفَ عَنِ الْإِيمَانِ بِهِ أَكْثَرُهُمْ، أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى سُورَةَ الْجِنِّ إِثْرَ سُورَةِ نُوحٍ، تَبْكِيتًا لِقُرَيْشٍ وَالْعَرَبِ فِي كونهم تباطؤا عَنِ الْإِيمَانِ، إِذْ كَانَتِ الجن خيرا لهم وَأَقْبَلَ لِلْإِيمَانِ، هَذَا وَهُمْ مِنْ غَيْرِ جِنْسِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَعَ ذَلِكَ فَبِنَفْسِ مَا سَمِعُوا الْقُرْآنِ اسْتَعْظَمُوهُ وَآمَنُوا بِهِ لِلْوَقْتِ، وَعَرَفُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ نَمَطِ كَلَامِ النَّاسِ، بِخِلَافِ الْعَرَبِ فَإِنَّهُ نَزَلَ بِلِسَانِهِمْ وَعَرَفُوا كَوْنَهُ مُعْجِزًا، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ مُكَذِّبُونَ لَهُ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حَسَدًا وَبَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ.) (٢)

ثم إن الأغراض العامة لتلك السورة تدور حول إثبات كرامة للنبي ﷺ بأن دعوته بلغت إلى جنس الجن وإفهامهم فهم معان من القرآن الذي استمعوا للنبي ﷺ وفهم ما يدعو إليه من التوحيد والهدى، وعلمهم بعظمة الله وتنزيهه عن الشريك والصاحبة والولد.

وإبطال عبادة ما يعبد من الجن.

وإبطال الكهانة وبلوغ علم الغيب إلى غير الرسل الذين يطلعهم الله على ما يشاء.

وإثبات أن لله خلقا يدعون الجن وأنهم أصناف منهم الصالحون ومنهم دون ذلك بمراتب، وتضليل الذين يتقولون على الله ما لم يقله، والذين يعبدون الجن، والذين ينكرون البعث، وأن الجن لا يفلتون من سلطان الله تعالى.

---

(١) مفاتيح الغيب (٣٠ / ٦٦٥)

(٢) البحر المحيط في التفسير (١٠ / ٢٩٢)

وتعجبهم من الإصابة برجوم الشهب المانعة من استراق السمع، وفي المراد من هذا المنع والتخلص من ذلك إلى ما أوحى الله إلى رسوله ﷺ من في شأن القحط الذي أصاب المشركين لشركهم ولمنعهم مساجد الله، وإنذارهم بأنهم سيندمون على تألبهم على النبي ﷺ ومحاولتهم منه العدول عن الطعن في دينهم.)[١]

فناسب أن يكون البدء بقوله: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾ [٢]

(وافتتاح السورة بالأمر بالقول يشير إلى أن ما سيذكر بعده حدث غريب وخاصة بالنسبة للمشركين الذين هم مظنة التكذيب به كما يقتضيه قوله: ﴿كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا﴾) [٣]

السورة الثانية: العلق.

﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [٤]

(هذه أول سورة نزلت من القرآن) [٥]

أخرج البخاري ومسلم بسندهما إلى عائشة أم المؤمنين أنها قالت: أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» ، قال: " فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، قلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ [٦] فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده.....) [٧]

---

(١) التحرير والتنوير ٢١٧/٢٩.

(٢) سورة الجن:١.

(٣) التحرير والتنوير ٢١٨/٢٩.

(٤) سورة العلق:١.

(٥) بحر العلوم (٣ / ٥٩٧)

(٦) سورة العلق:١-٣.

(٧) صحيح البخاري ك: الإيمان ب:بدء الوحي ٧/١، ومسلم ك: الإيمان ب: بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ١٣٩/١، واللفظ للبخاري رحمه الله.

وعليه فـ (صدرها أول آية نزلت من القرآن، كما صحت بذلك الأخبار. وأما أول سورة نزلت كاملة فهي الفاتحة. ويروى في الأوائل غيرها، ولا منافاة. لأن الأولية حقيقية ونسبية.) [١]

(وهي مكية بإجماع.) [٢]

وبراعة الاستهلال في البدء بالأمر بالقراءة مستعينا باسم الرب سبحانه أمر يتطلب تأملا عميقا .

(تبدأ باسم الله. وتوجه الرسول- ﷺ- أول ما توجه، في أول لحظة من لحظات اتصاله بالملأ الأعلى، وفي أول خطوة من خطواته في طريق الدعوة التي اختير لها..

توجهه إلى أن يقرأ باسم الله: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ» ..

وتبدأ من صفات الرب بالصفة التي بها الخلق والبدء: «الَّذِي خَلَقَ» .

ثم تخصص: خلق الإنسان ومبدأه: «خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ عَلَقٍ» .. من تلك النقطة الدموية الجامدة العالقة بالرحم. من ذلك المنشأ الصغير الساذج التكوين. فتدل على كرم الخالق فوق ما تدل على قدرته. فمن كرمه رفع هذا العلق إلى درجة الإنسان

وإنها لنقلة بعيدة جدا بين المنشأ والمصير.

ومن ثم كانت هذه النقلة التي تدير الرؤوس! وإلى جانب هذه الحقيقة تبرز حقيقة التعليم.. تعليم الرب للإنسان «بِالْقَلَمِ» ... لأن القلم كان وما يزال أوسع وأعمق أدوات التعليم أثرا في حياة الإنسان..

بهذا المقطع الواحد الذي نزل في اللحظة الأولى من اتصال الرسول- ﷺ- بالملأ الأعلى، بهذا المقطع وضعت قاعدة التصور الإيماني العريضة..

كل أمر. كل حركة. كل خطوة. كل عمل. باسم الله. وعلى اسم الله. باسم الله تبدأ. وباسم الله تسير. وإلى الله تتجه، وإليه تصير.) [٣]

(وافتتاح السورة بكلمة "اقرأ" إيذان بأن رسول الله ﷺ سيكون قارئا، أي تاليا كتابا بعد أن لم يكن قد تلا كتابا قال تعالى:

﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ ﴾[٤] ، أي من قبل نزول القرآن، ولهذا قال النبي ﷺ لجبريل حين قال له اقرأ: «ما أنا بقارئ»

وفي هذا الافتتاح براعة استهلال للقرآن.) [٥]

---

(١) محاسن التأويل (٩ / ٥٠٦)

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٠١)

(٣) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٣٨-٣٩٣٩) بتصرف.

(٤) سورة العنكبوت من الآية:٤٨.

(٥) التحرير والتنوير (٣٠ / ٤٣٥).

السورة الثالثة: الكافرون.

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ (١)

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، وكان المشركون من قومه فيما ذكر عرضوا عليه أن يعبدوا الله سنة، على أن يعبد نبيّ الله ﷺ آلهتهم سنة، فأنزل الله مُعرّفه جوابهم في ذلك) (٢)

(وَهِي مَكِّيَّة كلهَا) (٣)

و براعة الاستهلال هنا تظهر من خلال عرض الغرض العام لتلك السورة

فـ (الغرض الذي اشتملت عليه تأييسهم من أن يوافقهم في شيء مما هم عليه من الكفر بالقول الفصل المؤكد في الحال والاستقبال وأن دين الإسلام لا يخالط شيئا من دين الشرك.

افتتاحها بـ" قل" للاهتمام بما بعد القول بأنه كلام يراد إبلاغه إلى الناس بوجه خاص منصوص فيه على أنه مرسل بقول يبلغه وإلا فإن القرآن كله مأمور بإبلاغه، ولهذه الآية نظائر في القرآن مفتتحة بالأمر بالقول في غير جواب عن سؤال منها: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ هَادُوٓاْ إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَآءُ لِلَّهِ ﴾ في سورة الجمعة .

وابتدئ خطابهم بالنداء لإبلاغهم، لأن النداء يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم.) (٤)

السورة الرابعة: سورة الإخلاص.

﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٥)

(ذُكر أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب ربّ العزّة، فأنزل الله هذه السورة جوابا لهم. وقال بعضهم: بل نزلت من أجل أن اليهود سألوه، فقالوا له: هذا الله خلق الخلق، فمن خلق الله؟ فأُنزلت جوابا لهم.) (٦)

(هذه السورة مكية، قاله مجاهد بخلاف عنه وعطاء وقتادة، وقال ابن عباس

---

(١) سورة الكافرون:١.

(٢) جامع البيان (٢٤ / ٦٦١) .

(٣) ينظر تفسير القرآن العزيز لابن أبي زمنين (٥ / ١٦٩) .والهداية على بلوغ النهاية لمكي بن أبي طالب ٨٤٧٣/١٢.، ومعالم التنزيل للبغوي ٣١٧/٥.

(٤) التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٨٠-٥٨١)

(٥) سورة الإخلاص:١.

(٦) جامع البيان (٢٤ / ٦٨٧).

والقرظي وأبو العالية هي مدنية.) [١]

ومجيء الأمر بالقول في هذه السورة لأن (هذا التوحيد يقول به تارة ويؤمر بأن يدعو إليه أخرى.) [٢]

وعن نظم هذه السورة مع التي قبلها يقول أبو حيان: (لَمَّا تَقَدَّمَ فِيمَا قَبْلَهَا عَدَاوَةُ أَقْرَبِ النَّاسِ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ، وَهُوَ عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ، وَمَا كَانَ يُقَاسِي مِنْ عُبَّادِ الْأَصْنَامِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مَعَ اللَّهِ آلِهَةً، جَاءَتْ هَذِهِ السُّورَةُ مُصَرِّحَةً بِالتَّوْحِيدِ، رَادَّةً عَلَى عُبَّادِ الْأَوْثَانِ وَالْقَائِلِينَ بِالثَّنَوِيَّةِ وَبِالتَّثْلِيثِ وَبِغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْمُخَالِفَةِ لِلتَّوْحِيدِ.) [٣]

ولعل هذا من براعة الاستهلال هنا.

ويذكر الطاهر ابن عاشور أغراض تلك السورة ويبين وجه البراعة فيها فيقول:

(أغراضها:

إثبات وحدانية الله تعالى.

وأنه لا يقصد في الحوائج غيره وتنزيهه عن سمات المحدثات.

وإبطال أن يكون له ابن.

وإبطال أن يكون المولود إلها مثل عيسى عليه السلام.....

وافتتاح هذه السورة بالأمر بالقول لإظهار العناية بما بعد فعل القول ..... ولذلك الأمر في هذه السورة فائدة أخرى، وهي أنها نزلت على سبب قول المشركين: انسب لنا ربك، فكانت جوابا عن سؤالهم فلذلك قيل له: قل كما قال تعالى: ﴿ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي ﴾ [٤] فكان للأمر بفعل "قل" فائدتان.) [٥]

السورة الخامسة: سورة الفلق.

﴿ قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ ﴾ [٦]

يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد، أستجير بربّ الفلق من شرّ ما خلق من الخلق.

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٣٦).

(٢)أنوار التنزيل وأسرار التأويل (٥ / ٣٤٧).

(٣) البحر المحيط في التفسير (١٠ / ٥٧٠).

(٤) سورة الإسراء من الآية:٨٥.

(٥)التحرير والتنوير (٣٠ / ٦١٢)

(٦) سورة الفلق :١.

واختلف أهل التأويل في معنى (الفلق) فقال بعضهم: هو سجن في جهنم يسمى هذا الاسم.

وقال آخرون: هو اسم من أسماء جهنم.

وقال آخرون: الفلق: الصبح.

وقال آخرون: (الفلَق) : الخلق، ومعنى الكلام: قل أعوذ بربّ الخلق.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله جلّ ثناؤه أمر نبيه محمدًا ﷺ أن يقول: (أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ) والفلق في كلام العرب: فلق الصبح، تقول العرب: هو أبين من فَلَق الصُّبح، ومن فرق الصبح. وجائز أن يكون في جهنم سجن اسمه فَلَق. وإذا كان ذلك كذلك، ولم يكن جلّ ثناؤه وضعَ دلالة على أنه عُنِي بقوله: (بِرَبِّ الْفَلَقِ) بعض ما يُدْعَى الفلق دون بعض، وكان الله تعالى ذكره ربّ كل ما خلق من شيء، وجب أن يكون معنيا به كل ما اسمه الفَلَق، إذ كان ربّ جميع ذلك.) (١)

(الخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو آحاد أمته) (٢)

وفي تفسير الواحدي: (قال مقاتل، والكلبي: إن لبيد بن أعصم اليهودي، سحر النبي ﷺ في إحدى عشرة عقدة في حبل معقد، ودسه في بئر يقال له: ذروان.

فمرض رسول الله ﷺ، واشتد ذلك عليه ثلاث ليال، فنزلت المعوذتان لذلك، وأخبره جبريل بمكان السحر، فأرسل رسول الله ﷺ عليًا، رضي الله عنه، فجاء بها، فقال جبريل للنبي، ﷺ: حل عقدة واقرأ آية.) (٣)

وعليه فإن براعة الاستهلال ظاهرة واضحة يؤيدها ما جاء في صحيح البخاري بسنده عن زر بن حبيش، قال: سألت أبي بن كعب عن المعوذتين؟ فقال: سألت رسول الله ﷺ فقال: «قيل لي فقلت» فنحن نقول كما قال رسول الله ﷺ ")(٤)

وبيان غرضها يشير إلى سر البدء بهذا الفعل فـ (الغرض منها تعليم النبي ﷺ كلمات للتعوذ بالله من شر ما يتقى شره من المخلوقات الشريرة، والأوقات التي يكثر فيها حدوث الشر، والأحوال التي يستتر أفعال الشر من ورائها لئلا يرمى فاعلوها بتبعاتها،

---

(١) جامع البيان (٢٤ / ٦٩٩-٧٠٢) بتصرف.

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٥٣٨) .

(٣) التفسير الوسيط للواحدي (٤ / ٥٧٢)

(٤) صحيح البخاري ك: التفسير ب:سورة قل أعوذ برب الفلق (٦ / ١٨١)

فعلم الله نبيئه هذه المعوذة ليتعوذ بها، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان يتعوذ بهذه السورة وأختها ويأمر أصحابه بالتعوذ بهما، فكان التعوذ بهما من سنة المسلمين.....
والأمر بالقول يقتضي المحافظة على هذه الألفاظ لأنها التي عينها الله للنبي ﷺ ليتعوذ بها فإجابتها مرجوة) (١)

السورة السادسة : سورة الناس.

﴿ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ﴾ (٢)

(شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلا أن سورة الفلق تعوذ من شرور المخلوقات من حيوان وناس، وسورة الناس تعوذ من شرور مخلوقات خفية وهي الشياطين.
والقول في الأمر بالقول، وفي المقول، وفي أن الخطاب للنبي ﷺ، والمقصود شموله أمته، كالقول في نظيرة من سورة الفلق سواء.
وقد تضمنت هذه السورة:
إرشاد النبي ﷺ لأن يتعوذ بالله ربه من شر الوسواس الذي يحاول إفساد عمل النبي ﷺ وإفساد إرشاده الناس ويلقي في نفوس الناس الإعراض عن دعوته. وفي هذا الأمر إيماء إلى أن الله تعالى معيذه من ذلك فعاصمه في نفسه من تسلط وسوسة الوسواس عليه، ومتمم دعوته حتى تعم في الناس. ويتبع ذلك تعليم المسلمين التعوذ بذلك، فيكون لهم من هذا التعوذ ما هو حظهم من قابلية التعرض إلى الوسواس، ومع
السلامة منه بمقدار مراتبهم في الزلفى.) (٣)

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٦٢٥)
(٢) سورة الناس:١.
(٣) التحرير والتنوير (٣٠ / ٦٣٢) بتصرف.

المطلب الثَّامِنُ: السور المفتتحة بالِاسْتِفْهَامُ[1] .

(جاء الاستفهام فِي سِتِّ سُوَرٍ: (الإنسان)،(عم **يَتَسَاءَلُونَ)** ، **(هَلْ أَتَاكَ**)، **أَلَمْ نَشْرَحْ)** ، **(أَلَمْ تَرَ**)، **(أَرَأَيْتَ).)** [2]

السورة الأولى : الإنسان.

﴿ هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴾ [3]

(يعني جلّ ثناؤه بقوله: (هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ) قد أتى على الإنسان، وهل في هذا الموضع فيها قولان ، الأول: خبر لا جحد، وذلك كقول القائل لآخر يقرّره: هل أكرمتك؟ وقد أكرمه؛ أو هل زرتك؟ وقد زاره، وقد تكون جحدا في غير هذا الموضع، وذلك كقول القائل لآخر: هل يفعل مثل هذا أحد؟ بمعنى: أنه لا يفعل ذلك أحد.) [4]

---

(١) الاستفهام:(من أنواع الإنشاء الطّلبي، والأصل فيه طلَبُ الإفْهامِ والإعْلاَمِ لتَحْصِيلِ فائدةٍ عمليّةٍ مجهولةٍ لدَى الْمُستَفْهِم.

وقَد يُراد بِالاستفهام غيْرُ هذا المعنى الأصليّ الذي وضع له، ويُسْتَدلُّ على المعنى المراد بالقرائن القوليّة أو الحالية

وللاستفهام طائفةٌ من الأدوات، وهي تقع في ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما يُسْتَفْهَمُ به عن التصوُّر والتصديق، وهو "همزة الاستفهام" فقط، وهو حرفٌ لا يكون له محلٌّ من الإعراب في الجملة.

القسم الثاني: ما يُستَفْهَمُ به عن التصديق فقط وهو لفظ "هَلْ" وهو حرفٌ أيضاً، لا يكونُ له محلٌّ من الإعراب في الجملة.

القسم الثالث: ما يُسْتَفهَمُ به عن التَّصَوُّر فقط، وهي سائر أدوات الاستفهام، وهذه جميعُها أسماء، وهي: "مَا – مَنْ – أَيٌّ – كَمْ – كَيْفَ – أَيْنَ – أَنَّى – مَتَى – أَيَّانَ".

ويقصد بالتّصوّر: هو إدْراكُ المفرد، ويُطْلَبُ بالاستفهام عن التصّور إدْراكُ المسند إليه، أو إدْراكُ المسند، لتعيينه، ويكونُ الجوابُ بتعيينِ المسؤول عنه، مُسْنداً كان أو مُسنداً إليه. مثل:أضَرَبَ خالدٌ أَمْ أكل؟ والجواب: ضرب – أو – أَكل.

والتصديق: هو إدْراك النسبة الحكميّة بين المسند والْمُسْنَد إليه، موجبةً كانت أو سالبة. مثل:هل بُعِثَ خَاتم المرسلين؟ والجواب: نعم، بُعِث.) البلاغة العربية د/ عبدالرحمن حبنكة الميداني (١ / ٢٥٨-٢٥٩) .

(٢) الإتقان في علوم القرآن ٣/٣٦٢.

(٣) سورة الإنسان:١.

(٤) تفسير الطبري (٢٤ / ٨٧).

الثاني: أنه بمعنى (أتى على الإنسان) الآية، على وجه الاستفهام) [١]
وهذا ما قرره الزمخشري حيث قال: هل بمعنى «قد» في الاستفهام خاصة ،
فالمعنى: أقد أتى؟ على التقرير والتقريب جميعا، أى: أتى على الإنسان قبل زمان قريب حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ فيه شَيْئاً مَذْكُوراً أى كان شيئا منسيا غير مذكور نطفة في الأصلاب) [٢]
وقال ابن عطية:(هَلْ في كلام العرب قد يجيء بمعنى «قد» . حكاه سيبويه. لكنها لا تخلو من تقرير وبابها المشهور الاستفهام المحض والتقرير أحيانا. فقال ابن عباس وقتادة هي هنا بمعنى «قد»)[٣]
(والإنسان الذي قال جل ثناؤه في هذا الموضع: (هَلْ أَتَى عَلَى الإنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ) : هو آدم ﷺ كذلك.) [٤]
(ويجوز أن يكون يعنى به جميع الناس، ويكون المعنى أنهم كانوا نطفا ثم علقا ثم مضغا إلى أن صاروا شيئا مذكورا.) [٥]
(و «الحين» : هي المدة التي بقي طينا قبل أن ينفخ فيه الروح أي أنه شيء ولم يكن مذكورا منوها به في العالم وفي حالة العدم المحض قبل لَمْ يَكُنْ شَيْئاً ولا مَذْكُوراً، وقال أكثر المتأولين: هَلْ تقرير، و «الإنسان» اسم الجنس، أي إذا تأمل كل إنسان نفسه علم بأنه قد مر حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ عظيم لَمْ يَكُنْ هو فيه شَيْئاً مَذْكُوراً، أي لم يكن موجودا، وقد يسمى الموجود شَيْئاً فهو مذكور بهذا الوجه، و «الحين» هنا: المدة من الزمن غير محدودة تقع للقليل والكثير، وإنما تحتاج إلى تحديد الحين في الأيمان) [٦]
ولبيان براعة الاستهلال هنا في تلك السورة يقول البقاعي:
(لما تقدم في آخر القيامة التهديد على مطلق التكذيب، وأن المرجع إلى الله وحده، والإنكار على من ظن أنه يترك سدى والاستدلال على البعث وتمام القدرة عليه، تلاه أول هذه بالاستفهام الإنكاري على ما يقطع معه بأن لا يترك سدى، فقال مفصلاً ما له سبحانه عليه من نعمة الإيجاد والإعداد والإمداد والإسعاد: {هل أتى

(١) تفسير الماوردي = النكت والعيون (٦ / ١٦١).
(٢) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤ / ٦٦٥).
(٣)المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٤٠٨).
(٤) تفسير الطبري (٢٤ / ٨٧).
(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥ / ٢٥٧).
(٦) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٤٠٨).

على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا}[1]
وببيان أغراض تلك السورة تتضح البراعة وتتجلى وقد أشار إلى تلك الأغراض الطاهر ابن عاشور وذكر سر الافتتاح بالاستفهام فيها فقال: (أغراضها:
التذكير بأن كل إنسان كون بعد أن لم يكن فكيف يقضي باستحالة إعادة تكوينه بعد عدمه.
وإثبات أن الإنسان محقوق بإفراد الله بالعبادة شكرا لخالقه ومحذر من الإشراك به.
وإثبات الجزاء على الحالين مع شيء من وصف ذلك الجزاء بحالتيه والإطناب في وصف جزاء الشاكرين.
وأدمج في خلال ذلك الامتنان على الناس بنعمة الإيجاد ونعمة الإدراك والامتنان بما أعطيه الإنسان من التمييز بين الخير والشر وإرشاده إلى الخير بواسطة الرسل فمن الناس من شكر نعمة الله ومنهم من كفرها فعبد غيره.
وتثبيت النبي ﷺ على القيام بأعباء الرسالة والصبر على ما يلحقه في ذلك، والتحذير من أن يلين للكافرين، والإشارة إلى أن الاصطفاء للرسالة نعمة عظيمة يستحق الله الشكر عليها بالاضطلاع بها اصطفاه له وبالإقبال على عبادته.
والأمر بالإقبال على ذكر الله والصلاة في أوقات من النهار.
وهذا الاستفهام تقريري والاستفهام من أقسام الخطاب وهو هنا موجه إلى غير معين ومستعمل في تحقيق الأمر المقرر به على طريق الكناية لأن الاستفهام طلب الفهم، والتقرير يقتضي حصول العلم بما قرر به وذلك إيماء إلى استحقاق الله أن يعترف الإنسان له بالواحدانية في الربوبية إبطالا لإشراك المشركين.
وتقديم هذا الاستفهام لما فيه من تشويق إلى معرفة ما يأتي بعده من الكلام.) [2]

السورة الثانية: سورة النبأ.

﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [3]

قال الطبري: (عن أي شيء يتساءل هؤلاء المشركون بالله ورسوله من قريش يا محمد، وقيل ذلك له ﷺ، وذلك أن قريشا جعلت فيما ذُكر عنها تختصم وتتجادل في

(١)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١ / ١٢٠-١٢١) .
(٢) التحرير والتنوير (٢٩ / ٣٧١).
(٣) سورة النبأ:١.

الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ من الإقرار بنبوّته، والتصديق بما جاء به من عند الله، والإيمان بالبعث، فقال الله لنبيه: فيم يتساءل هؤلاء القوم ويختصمون، و"في" و"عن" في هذا الموضع بمعنى واحد.) (١)

ويرى الزجاج أن:(اللفظ لفظ الاستفهام، والمعنى تفخيم القصة) (٢)

وعند ابن عطية: (هذا الاستفهام بـ "عَمَّ" هو استفهام توقيف وتعجب منهم) (٣)

و(ما) لفظة وضعت لطلب ماهيات الأشياء وحقائقها، تقول ما الملك؟ وما الروح؟ وما الجن؟ والمراد طلب ماهياتها وشرح حقائقها، وذلك يقتضي كون ذلك المطلوب مجهولا. ثم إن الشيء العظيم الذي يكون لعظمه وتفاقم مرتبته ويعجز العقل عن أن يحيط بكنهه يبقى مجهولا، فحصل بين الشيء المطلوب بلفظ "ما" وبين الشيء العظيم مشابهة من هذا الوجه والمشابهة إحدى أسباب المجاز، فبهذا الطريق جعل (ما) دليلا على عظمة حال ذلك المطلوب وعلو رتبته ومنه قوله تعالى ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٌ ﴾ (٤) ، ﴿ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴾ (٥) وتقول زيد وما زيد.) (٦)

(وفي {النبأ العظيم} أربعة أقاويل:

أحدها: القرآن. الثاني: يوم القيامة. الثالث: البعث بعد الموت. الرابع: عن أمر النبي ﷺ.) (٧) والواقع أنهم اختلفوا في ذلك كله.

غير أن الرازي رجح القول بيوم القيامة فقال: (هو القيامة وهذا هو الأقرب ويدل عليه وجوه أحدها: قوله: سيعلمون والظاهر أن المراد منه أنهم سيعلمون هذا الذي يتساءلون عنه حين لا تنفعهم تلك المعرفة، ومعلوم أن ذلك هو القيامة) (٨)

(هذه السورة تفتتح بسؤال موح مثير للاستهوال والاستعظام وتضخيم الحقيقة التي يختلفون عليها، وهي أمر عظيم لا خفاء فيه، ولا شبهة ويعقب على هذا بتهديدهم يوم يعلمون حقيقته: ﴿ عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلۡعَظِيمِ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ مُخۡتَلِفُونَ كَلَّا سَيَعۡلَمُونَ ثُمَّ كَلَّا

---

(١) **تفسير الطبري (٢٤ / ١٤٩).**

(٢) **معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥ / ٢٧١).**

(٣) **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٤٢٣).**

(٤) **سورة المطففين:٨.**

(٥) **سورة البلد:١٢.**

(٦) **مفاتيح الغيب (٣١ / ٥-٦).**

(٧) **النكت والعيون (٦ / ١٨٢).**

(٨) **مفاتيح الغيب (٣١ / ٦).**

سَيَعْلَمُونَ ﴾ ..) [1]

ويعرض الطاهر ابن عاشور لأغراض تلك السورة مبينا وجه البراعة في استهلالها قائلا: (اشتملت هذه السورة على وصف خوض المشركين في شأن القرآن وما جاء به مما يخالف معتقداتهم، ومن ذلك إثبات البعث، وسؤال بعضهم بعضا عن الرأي في وقوعه مستهزئين بالإخبار عن وقوعه.

وتهديدهم على استهزائهم.

وفيها إقامة الحجة على إمكان البعث بخلق المخلوقات التي هي أعظم من خلق الإنسان بعد موته وبالخلق الأول للإنسان وأحواله.

ووصف الأهوال الحاصلة عند البعث من عذاب الطاغين مع مقابلة ذلك بوصف نعيم المؤمنين.

وصفة يوم الحشر إنذارا للذين جحدوا به والإيماء إلى أنهم يعاقبون بعذاب قريب قبل عذاب يوم البعث.

وأدمج في ذلك أن علم الله تعالى محيط بكل شيء ومن جملة الأشياء أعمال الناس.

وافتتاح الكلام بالاستفهام عن تساؤل جماعة عن نبأ عظيم، افتتاح تشويق ثم تهويل لما سيذكر بعده، فهو من الفواتح البديعة لما فيها من أسلوب عزيز غير مألوف ومن تشويق بطريقة الإجمال ثم التفصيل المحصلة لتمكن الخبر الآتي بعده في نفس السامع أكمل تمكن.

وإذ كان هذا الافتتاح مؤذنا بعظيم أمر كان مؤذنا بالتصدي لقول فصل فيه، ولما كان في ذلك إشعار بأهم ما فيه خوضهم يومئذ يجعل افتتاح الكلام به من براعة الاستهلال.) [2]

السورة الثالثة: الغاشية.

﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ ﴾ [3]

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: (هَلْ أَتَاكَ) يا محمد (حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) يعني: قصتها وخبرها.

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٨٠٢).

(٢) التحرير والتنوير (٣٠ / ٦).

(٣) سورة الغاشية:١.

واختلف أهل التأويل في معنى الغاشية، فقال بعضهم: هي القيامة تغشي الناس بالأهوال.

وقال آخرون: بل الغاشية: النار تغشَى وجوه الكَفَرة.

والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله قال لنبيه ﷺ: (هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ) لم يخبرنا أنه عنى غاشية القيامة، ولا أنه عنى غاشية النار. وكلتاهما غاشية، هذه تغشى الناس بالبلاء والأهوال والكروب، وهذه تغشي الكفار باللفح في الوجوه، والشُّواظ والنحاس، فلا قول في ذلك أصحّ من أن يقال كما قال جلّ ثناؤه، ويعمّ الخبر بذلك كما عمه.) (١)

وقد اضاف الماوردي معنى ثالثا فقال: (ويحتمل ثالثاً: أنها في هذا الموضع النفخة الثانية للبعث لأنها تغشى جميع الخلق.) (٢)

وما ذكره الطبري في الجمع بين ما قال يدخل فيه الذي ذكره الماوردي.

وفي معنى (هل) الاستفهامية قولان:

أحدهما: أنها في موضع قد ، وتقدير الكلام قد أتاك حديث الغاشية، قاله قطرب.

الثاني: أنها خرجت مخرج الاستفهام لرسوله، ومعناه ألم يكن قد أتاك حديث الغاشية، فقد أتاك) (٣)

والذين يرون أنها على بابها من الاستفهام فإن(فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقي الخبر) (٤)

فـ هو استفهامٌ أُريدَ به التعجيبُ ممَّا في حيزِه والتشويقُ إلى استماعِه والإشعارُ بأنَّه من الأحاديثِ البديعةِ التي حقُّها أنْ يتناقلها الرواة ويتنافس في تلقيها الوعاةُ مِنْ كلِّ حاضِرٍ وبادٍ) (٥)

و(هذه السورة واحدة من الإيقاعات العميقة الهادئة. الباعثة إلى التأمل والتدبر، وإلى الرجاء والتطلع، وإلى المخافة والتوجس، وإلى عمل الحساب ليوم الحساب! وهي تطوّف بالقلب البشري في مجالين هائلين: مجال الآخرة وعالمها الواسع، ومشاهدها

---

(١) تفسير الطبري (٢٤ / ٣٨١-٣٨٢).

(٢) النكت والعيون (٦ / ٢٥٧).

(٣) النكت والعيون (٦ / ٢٥٧).

(٤) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٥ / ٤٧٢).

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩ / ١٤٨).

المؤثرة. ومجال الوجود العريض المكشوف للنظر، وآيات الله المبثوثة في خلائقه المعروضة للجميع. ثم تذكرهم بعد هاتين الجولتين الهائلتين بحساب الآخرة، وسيطرة الله، وحتمية الرجوع إليه في نهاية المطاف..) [١]

و(الافتتاح بالاستفهام عن بلوغ خبر الغاشية مستعمل في التشويق إلى معرفة هذا الخبر لما يترتب عليه من الموعظة.

وكون الاستفهام بـ هل المفيدة معنى (قد) ، فيه مزيد تشويق فهو استفهام صوري يكنى به عن أهمية الخبر بحيث شأنه أن يكون بلغ السامع، وقد تقدم نظيره في قوله تعالى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُواْ ٱلْمِحْرَابَ ﴾ في سورة ص [٢] . وقوله: ﴿ هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ في سورة النازعات [٣] .

وتقدم هنالك إطلاق فعل الإتيان على فشو الحديث.

وتعريف ما أضيف إليه حديث بوصفه الغاشية الذي يقتضي موصوفا لم يذكر هو إبهام لزيادة التشويق إلى بيانه الآتي ليتمكن الخبر في الذهن كمال تمكن.) [٤]

السورة الرابعة: الشرح.

﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [٥]

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ، مذكِّره آلاءه عنده، وإحسانه إليه، حاضا له بذلك على شكره، على ما أنعم عليه، ليستوجب بذلك المزيد منه: (أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ) يا محمد، للهدى والإيمان بالله ومعرفة الحقّ (صَدْرِكَ) فنلِّين لك قلبك، ونجعله وعاء للحكمة) [٦]

ويرى السمرقندي أن (قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ [٧] هو معطوف على قوله ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ [٨]) [٩]

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٨٩٥).
(٢) سورة ص:٢١.
(٣) سورة النازعات:١٥.
(٤)التحرير والتنوير (٣٠ / ٢٩٤).
(٥) سورة الشرح:١.
(٦)تفسير الطبري (٢٤ / ٤٩٣).
(٧) سورة الشرح:١.
(٨) سورة الضحى:٦.
(٩) تفسير السمرقندي (٣ / ٥٩٣).

وأشار الماوردي إلى نوع الاستفهام فقال:(هذا تقرير من الله تعالى لرسوله ﷺ عند انشراح صدره لما حمله من نبوّته.) (١)

ويقول الزمخشري:

(استفهم عن انتفاء الشرح على وجه الإنكار، فأفاد إثبات الشرح وإيجابه، فكأنه قيل:شرحنا لك صدرك، ولذلك عطف عليه: وضعنا: اعتبارا للمعنى.) (٢)

والمقرر عند العلماء أن الاستفهام إذا دخل على النفي أفاد التقرير (٣)

وفي بيان المراد بشرح الصدر لرسولنا ﷺ قال الماوردي:

(في (نشرح) وجهان: أحدهما: أي أزال همك منك حتى تخلو لما أُمِرت به. الثاني: أي نفتح لك صدرك ليتسع لما حملته عنه فلا يضيق ، ومنه تشريح اللحم لأنه فتحه لتقديده.

وفيما شرح صدره ثلاثة أقاويل: أحدها: الإسلام ، قاله ابن عباس. الثاني: بأن ملىء حكمة وعلماً ، قاله الحسن. الثالث: بما منّ عليه من الصبر والاحتمال ، قاله عطاء. ويحتمل رابعاً: بحفظ القرآن وحقوق النبوّة.) (٤)

ويشير البقاعي إلى اتصال هذه السورة بالتي قبلها وفيه إشارة إلى براعة الاستهلال فيقول: (لما أمره ﷺ آخر الضحى بالتحديث بنعمته التي أنعمها عليه فصلها في هذه السورة فقال مثبتاً لها في استفهام إنكاري مبالغة في إثباتها عند من ينكرها والتقرير بها مقدماً المنة بالشرح في صورته قبل الإعلام بالمغفرة كما فعل ذلك في سورة الفتح

---

(١) النكت والعيون (٦ / ٢٩٦).

(٢)الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل (٤ / ٧٧٠).

(٣) قال السمين الحلبي:هذه همزةُ الاستفهامِ دَخَلَتْ على حرفِ النفيِ، فَصَيَّرَتِ النفيَ تقريراً، وكذا كلُّ استفهامٍ دخَلَ على نفي نحو: {أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ} [الانشراح: ١] {أَلَيْسَ الله بِكَافٍ عَبْدَهُ} [الزمر: ٣٦] فيمكن أن يكونَ المخاطبُ عَلِمَ بهذه القصةِ قبلَ نزولِ هذه الآيةِ، فيكونُ التقريرُ ظاهراً أي: قد رأيتَ حالَ هؤلاء، ويمكن أنه لم يَعْلَمْ بها إلا مِنْ هذه الآيةِ، فيكون معنى هذا الكلامِ التنبيهَ والتعجُّبَ من حالِ هؤلاءِ، والمخاطَبُ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو كُلُّ سامعٍ. ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بهذا الاستفهام التعجبَ من حالِ هؤلاءِ، وأكثرُ ما يَرِدُ كذلك: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الذين تَوَلَّوْاْ قَوْماً} [المجادلة: ١٤] {أَلَمْ تَرَ إلى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظل} [الفرقان: ٤٥] الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٢ / ٥٠٥).

(٤) النكت والعيون (٦ / ٢٩٦).

الذي هو نتيجة الشرح، لتكون البشارة بالإكرام أولاً لافتاً القول إلى مظهر العظمة تعظيماً للشرح.) [١]

ويقول العلامة أبو السعود: (التعبيرُ عن ثبوتِ الشَّرحِ بالاستفهامِ الإنكاريِّ عنِ انتفائِه للإيذانِ بأنَّ ثبوتَهُ منَ الظهورِ بحيثُ لا يقدرُ أحدٌ على أنْ يجيبَ عنْهُ بغيرِ "بَلَى" وزيادةُ الجارِّ والمجرورِ معَ توسيطِه بينَ الفعلِ ومفعولِه للإيذانِ من أولِ الأمرِ بأنَّ الشَّرحَ من منافِعِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ ومصالحِه مسارعةً إلى إدخالِ المسرةِ في قلبِه عليهِ الصَّلاةُ والسَّلامُ وتشويقاً لهُ إلى ما يعقبُهُ ليتمكَّنَ عندَهُ وقتَ ورودِه فضلَ تمكّنٍ) [٢]

السورة الخامسة: سورة الفيل.

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ [٣]

(يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ألم تنظر يا محمد بعين قلبك، فترى بها: ﴿كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ﴾ الذين قَدِموا من اليمن يريدون تخريب الكعبة من الحبشة ورئيسهم أبرهة الحبشيّ الأشرم) [٤]

(أعلم الله – عز وجل – رسوله ما كان مما سلف من الأقاصيص وما فيه دال على توحيد الله وتعظيمه أمر كعبته، وكان من قصة أصحاب الفيل أن قوما من العرب – وكانوا ببلاد النجاشي – وكانوا بحضرة بيت هو مصلى للنصارى وأصحاب النجاشي. فأججوا نارا استعملوها لبعض ما احتاجوا إليه، ثم رحلوا ولم يطفئوها فحملتها الريح حتى أحرقت البيت الذي كان مصلاهم ومثابة للنجاشي وأصحابه، فقصد مكة مقدرا أن يحرق بيت الحرام ويستبيح أهل مكة.) [٥]

ويذكر السمرقندي أن معنى :(ألم تر) (يعني: ألم تخبر بالقرآن. ويقال: ألم تر، يعني: ألم يبلغك الخبر. ويقال: اللفظ لفظ الاستفهام، والمراد به الإخبار، يعني: اعلم واعتبر بصنيع ربك) [٦]

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢ / ١١٥).

(٢) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩ / ١٧٢).

(٣) سورة الفيل:١.

(٤) تفسير الطبري (٢٤ / ٦٠٥).

(٥) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥ / ٣٦٣).

(٦) بحر العلوم (٣ / ٦١٨).

والسر في التعبير بقوله :("ألم تر" مع أن هذه الواقعة وقعت قبل المبعث بزمان طويل؟

الجواب: المراد من الرؤية العلم والتذكير، وهو إشارة إلى أن الخبر به متواتر فكان العلم الحاصل به ضروريا مساويا في القوة والجلاء للرؤية) [1]

و(الخطابُ لرسول الله ﷺ.

والهمزةُ لتقريرِ رؤيتِه عليهِ الصلاةُ والسلامُ بإنكارِ عَدَمِها .

وكيفَ معلقةٌ لفعلِ الرؤيةِ منصوبةٌ بما بعدَهَا.

والرؤيةُ عِلْميةٌ أيْ ألمْ تعلْم علماً رصيناً متاخماً للمشاهدةِ والعَيَانِ باستماعِ الأخبارِ المتواترةِ ومعاينةِ الآثارِ الظَّاهرةِ .

وَتعليقُ الرؤيةِ بكيفيةِ فعلِه عَزَّ وَجَلَّ لاَ بنفسِه بأَنْ يقالَ "ألْم ترَ ما فعلَ ربُّكَ الخ لتهويلِ الحادثةِ والإيذانِ بوقوعِها عَلَى كيفيةٍ هائلةٍ وهيئةٍ عجيبةٍ دالةٍ عَلَى عظمِ قُدرةِ الله تعالَى وكمالِ علمِه وحكمتِه وعزةِ بيتِه وشرفِ رسوله ﷺ فإنَّ ذلكَ منَ الإرهاصاتِ) [2]

(وقد تضمنت السورة التذكير بأن الكعبة حرم الله وأن الله حماه ممن أرادوا به سوءا أو أظهر غضبه عليهم فعذبهم لأنهم ظلموا بطمعهم في هدم مسجد إبراهيم وهو عندهم في كتابهم،وذلك ما سماه الله كيدا، وليكون ما حل بهم تذكرة لقريش

بأن فاعل ذلك هو رب ذلك البيت وأن لا حظ فيه للأصنام التي نصبوها حوله.

وتنبيه قريش أو تذكيرهم بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته.

ومن وراء ذلك تثبيت النبي ﷺ بأن الله يدفع عنه كيد المشركين فإن الذي دفع كيد من يكيد لبيته لأحق بأن يدفع كيد من يكيد لرسوله ﷺ ودينه ويشعر بهذا قوله:

﴿ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ [3].

ومن وراء ذلك كله التذكير بأن الله غالب على أمره، وأن لا تغر المشركين قوتهم ووفرة عددهم ولا يوهن النبي ﷺ تألب قبائلهم عليه فقد أهلك الله من هو أشد منهم قوة وأكثر جمعا.

---

(١) تفسير الرازي (٣٢ / ٢٨٩).

(٢)إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (٩ / ٢٠٠).

(٣) سورة الفيل:٢.

ولم يتكرر في القرآن ذكر إهلاك أصحاب الفيل خلافا لقصص غيرهم من الأمم لوجهين: أحدهما أن إهلاك أصحاب الفيل لم يكن لأجل تكذيب رسول من الله، وثانيهما أن لا يتخذ منه المشركون غرورا بمكانة لهم عند الله كغرورهم بقولهم المحكي في قوله تعالى: ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ﴾ الآية[1] وقوله: ﴿ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓاْ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [2].

واستهلت بالسورة بالاستفهام التقريري وكثيرا ما يكون على نفي المقرر بإثباته للثقة بأن المقرر لا يسعه إلا إثبات المنفي) [3]

السورة السادسة:الماعون.

﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ [4]

(يعني تعالى ذكره بقوله: ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴾ أرأيت يا محمد الذي يكذّب بثواب الله وعقابه، فلا يطيعه في أمره ونهيه.) [5]

وفي» أَرَأَيْتَ «هذه وجهان، أحدهما: أنَّها بَصَرِيَّةٌ فتتعدى لواحدٍ وهو الموصولُ، كأنه [قال] : أبْصَرْتَ المكذِّبَ.

والثاني: أنَّها بمعنى: أَخْبِرْني، فتتعدى لاثنينِ، فتقديره: أليس مُسْتَحِقّاً للعذابِ . ويَدُلُّ على ذلك قراءةُ عبدِ الله» أَرَأَيْتَك «بكافِ الخطابِ والكافُ لا تَلْحَقُ البَصَرِيَّةَ.) [6]

(واختلف فيمن نزل هذا فيه على خمسة أوجه:

أحدها: أنها نزلت في العاص بن وائل السهمي ، قاله الكلبي ومقاتل.

الثاني: في الوليد بن المغيرة ، قاله السدي.

الثالث: في أبي جهل.

الرابع: في عمرو بن عائذ ، قاله الضحاك.

الخامس: في أبي سفيان وقد نحر جزوراً ، فأتاه يتيم ، فسأله منها ، فقرعه بعصا ، قاله ابن جريج.) [1]

---

(١) سورة التوبة من الآية :١٩.

(٢) سورة الأنفال من الآية:٣٤.

(٣) التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٤٣-٥٤٤).

(٤) سورة الماعون:١.

(٥) تفسير الطبري (٢٤ / ٦٢٩) .

(٦) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١١/١١٩-١٢٠)

(وفي «الدين» أربعة أقوال: أحدها: أنه حكم الله عزّ وجلّ، قاله ابن عباس. والثاني: الحساب، قاله مجاهد، وعكرمة. والثالث: الجزاء، حكاه الماوردي. والرابع: القرآن، حكاه بعض المفسّرين.) [٢]

(وهذا اللفظ وإن كان في صورة الاستفهام، لكن الغرض بمثله المبالغة في التعجب كقولك:أرأيت فلانا ماذا ارتكب ولماذا عرض نفسه؟

ثم قيل: أنه خطاب للرسول ﷺ.

وقيل: بل خطاب لكل عاقل أي أرأيت يا عاقل هذا الذي يكذب بالدين بعد ظهور دلائله ووضوح تبيانه أيفعل ذلك لا لغرض، فيكف يليق بالعاقل جر العقوبة الأبدية إلى نفسه من غير غرض أو لأجل الدنيا، فكيف يليق بالعاقل أن يبيع الكثير الباقي بالقليل الفاني.) [٣]

(وهذا الاستفهامٌ أريدَ بهِ تشويقُ السامعِ إلى معرفةِ مَنْ سيقَ لَهُ الكلاَمُ والتعجيبُ منْهُ) [٤]

ولإظهار وجه البراعة فيها ذكر الطاهر ابن عاشور أهم أغراض تلك السورة فقال :(من مقاصدها التعجيب من حال من كذبوا بالبعث وتفظيع أعمالهم من الاعتداء على الضعيف واحتقاره والإمساك عن إطعام المسكين، والإعراض عن قواعد الإسلام من الصلاة والزكاة لأنه لا يخطر بباله أن يكون في فعله ذلك ما يجلب له غضب الله وعقابه.....

والاستفهام مستعمل في التعجيب من حال المكذبين بالجزاء، وما أورثهم التكذيب من سوء الصنيع. فالتعجيب من تكذيبهم بالدين وما تفرع عليه من دع اليتيم وعدم الحض على طعام المسكين، وقد صيغ هذا التعجيب في نظم مشوق لأن الاستفهام عن رؤية من ثبتت له صلة الموصول يذهب بذهن السامع مذاهب شتى من تعرف المقصد بهذا الاستفهام، فإن التكذيب بالدين شائع فيهم فلا يكون مثارا للتعجب فيترقب السامع ماذا

---

(١) **النكت والعيون** (٦ / ٣٥٠).
(٢) **زاد المسير في علم التفسير** (٤ / ٤٩٥) .
(٣) **تفسير الرازي** (٣٢ / ٣٠١).
(٤) **تفسير أبي السعود** (٩ / ٢٠٣) .

يرد بعده وهو قوله: فذلك الذي يدع اليتيم وفي إقحام اسم الإشارة واسم الموصول بعد الفاء زيادة تشويق حتى تقرع الصلة سمع السامع فتتمكن منه كمال تمكن.) [١]

المطلب التاسع: السور المفتتحة بالدُّعَاءُ[٢]

(وهو فِي ثَلَاثٍ: **(وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)** ، **(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ)** ، **(تَبَّتْ).**) [٣]

السورة الأولى: المطففين.

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾ [٤]

(الويل:الوادي الذي يسيل من صديد أهل جهنم في أسفلها للذين يُطَففون، يعني: للذين ينقصون الناس، ويبخسونهم حقوقهم في مكاييلهم إذا كالوهم، أو موازينهم إذا وزنوا لهم عن الواجب لهم من الوفاء، وأصل ذلك من الشيء الطفيف، وهو القليل النزر، والمطفِّف: المقلِّل حقّ صاحب الحقّ عما له من الوفاء والتمام في كيل أو وزن؛ ومنه قيل للقوم الذي يكونون سواء في حسبة أو عدد: هم سواء كطَفّ الصاع، يعني بذلك: كقرب الممتلئ منه ناقص عن الملء.) [٥]

(والويل كلمة تقال لكل من وقع في هلكة.) [٦]

ويشير البقاعي إلى براعة الاستهلال في هذه السورة ببيان صلتها بالتي قبلها فيقول: (لما قال سبحانه وتعالى في سورة الانفطار ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ﴾[٧] الآية وكان مقتضى ذلك الإشعار بوقوع الجزاء على جزئيات الأعمال وأنه لا يفوت

---

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٦٤).

(٢)الدُعاءُ: واحد الأَدْعِيَةِ، وأصله دعاؤ، لانه من دعوت إلا أن الواو لما جاءت بعد الألف همزت. وتقول للمراة: أنت تدعين، وفيه لغة ثانية: أنت تدعوين، وفيه لغة ثالثة أنت تدعين بإشمام العين الضمة، وللجماعة: أنتن تدعون مثل الرجال سواء. (الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية (٦ / ٢٣٣٧)

وأصل الدعاء طلب الفعل. (معجم الفروق اللغوية = الفروق اللغوية بترتيب وزيادة (ص: ٥٣٤) .

و ({الدعاء) ، بالضم ممدودا؛ (الرغبة إلى الله تعالى) فيما عنده من الخير والابتهال إليه بالسؤال؛ ومنه قوله تعالى: { ادعوا ربكم تضرعا وخفية} . (تاج العروس (٣٨ / ٤٦) .

(٣) ينظرالإتقان ٣٦٣/٣،ومعترك الأقران ٦٣/١.

(٤) سورة المطففين:١.

(٥) تفسير الطبري (٢٤ / ٢٧٧) .

(٦) معاني القرآن وإعرابه للزجاج (٥ / ٣٦١).

(٧) سورة الإنفطار:١٠-١١.

عمل كما قال تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (١)

أتبع الآية المتقدمة بجزاء عمل يتوهم فيه قرب المرتكب وهو من أكبر الجرائم، وذلك التطفيف في المكيال والميزان والانحراف عن إقامة القسط في ذلك، فقال تعالى: ﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴾) (٢)

وكعادة الطاهر ابن عاشور يسوق أغراض السورة ليدرك القاريء براعة الاستهلال من خلال بيان تلك الأغراض فيقول: (اشتملت على التحذير من التطفيف في الكيل والوزن وتفظيعه بأنه تحيل على أكل مال الناس في حال المعاملة أخذا وإعطاء.

وأن ذلك مما سيحاسبون عليه يوم القيامة.

وتهويل ذلك اليوم بأنه وقوف عند ربهم ليفصل بينهم وليجازيهم على أعمالهم وأن الأعمال محصاة عند الله.

ووعيد الذين يكذبون بيوم الجزاء والذين يكذبون بأن القرآن منزل من عند الله.

وقوبل حالهم بضده من حال الأبرار أهل الإيمان ورفع درجاتهم وإعلان كرامتهم بين الملائكة والمقربين وذكر صور من نعيمهم.

وانتقل من ذلك إلى وصف حال الفريقين في هذا العالم الزائل إذ كان المشركون يسخرون من المؤمنين ويلمزونهم ويستضعفونهم وكيف انقلب الحال في العالم الأبدي.

وافتتاح السورة باسم الويل مؤذن بأنها تشتمل على وعيد فلفظ "ويل" من براعة الاستهلال، ومثله قوله تعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾.) (٣)

السورة الثانية: الهمزة.

﴿ وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾ (٤)

(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ) الوادي يسيل من صديد أهل النار وقيحهم، (لِكُلِّ هُمَزَةٍ) : يقول: لكل مغتاب للناس، يغتابهم ويبغضهم، كما قال زياد الأعجم:

تُدلِي بوُدِّي إذا لاقَيْتَنِي كَذِبا ... وَإنْ أُغَيَّبْ فأنتَ الهامِزُ اللُّمَزَهْ .

---

(١) سورة الأنبياء:٤٧.

(٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢١ / ٣١٥).

(٣)التحرير والتنوير (٣٠ / ١٨٨-١٨٩). والآية :١.من سورة المسد

(٤) سورة الهمزة:١.

ويعني باللمزة: الذي يعيب الناس، ويطعن فيهم.) [١]
وذكر الماوردي أن في قوله : ﴿ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴾
(أربعة تأويلات: أحدها: أن الهمزة المغتاب ، واللمزة العيّاب .
الثاني: أن الهمزة الذي يهمز الناس ، واللمزة الذي يلمزهم بلسانه.
الثالث: أن الهمزة الذي يهمز في وجهه إذا أقبل ، واللمزة الذي يلمزه من خلفه إذا أدبر .
الرابع: أن الهمزة الذي يعيب جهراً بيد أو لسان ، واللمزة الذي يعيبهم سراً بعين أو حاجب) [٢]
وعن كون السورة نزلت في سبب خاص أم ماذا فقد قال الزمخشري:
(ويجوز أن يكون السبب خاصا والوعيد عاما، ليتناول كل من باشر ذلك القبيح، وليكون جاريا مجرى التعريض بالوارد فيه، فإنّ ذلك أزجر له وأنكى فيه) [٣]
ويذكر النيسابوري وجه اتصال تلك السورة بما قبلها فيقول
(لما ذكر حكم جنس الإنسان في خسرهم عقبه بمثال واحد.) [٤]
وهذا ما فصله البقاعي فقال:(لما قال سبحانه وتعالى {إن الإنسان لفي خسر} أتبعه بمثال من ذكر نقصه وقصوره واغتراره، وظنه الكمال لنفسه حتى يعيب غيره، واعتماده على ما جمعه من المال ظناً أنه يخلده وينجيه، وهذا كله هو عين النقص، الذي هو شأن الإنسان، وهو المذكور في السورة قبل، فقال تعالى {ويل لكل همزة لمزة} فافتتحت السورة بذكر ما أعد له من العذاب جزاء له على همزه ولمزه الذي أتم حسده) [٥]
وللقاريء الكريم أن يتساءل ما السر في تقديم هاتين الجريمتين على ما جاء بعدهما ، والجواب يشير إشارة واضحة إلى براعة الاستهلال، وهو ما ذكره الأستاذ / سيد قطب فقال: (تعكس هذه السورة صورة من الصور الواقعية في حياة الدعوة في عهدها الأول. وهي في الوقت ذاته نموذج يتكرر في كل بيئة.. صورة اللئيم الصغير النفس،

(١) تفسير الطبري (٢٤ / ٥٩٥) .
(٢) النكت والعيون (٦ / ٣٣٥-٣٣٦) .
(٣) الكشاف (٤ / ٧٩٥).
(٤) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (٦ / ٥٦١).
(٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (٢٢ / ٢٤٤).

الذي يؤتى المال فتسيطر نفسه به، حتى ما يطيق نفسه! ويروح يشعر أن المال هو القيمة العليا في الحياة. القيمة التي تهون أمامها جميع القيم وجميع الأقدار: أقدار الناس. وأقدار المعاني. وأقدار الحقائق. وأنه وقد ملك المال فقد ملك كرامات الناس وأقدارهم بلا حساب! كما يروح يحسب أن هذا المال إله قادر على كل شيء لا يعجز عن فعل شيء! حتى دفع الموت وتخليد الحياة. ودفع قضاء الله وحسابه وجزائه إن كان هناك في نظره حساب وجزاء! ومن ثم ينطلق في هوس بهذا المال يعده ويستلذ تعداده وتنطلق في كيانه نفخة فاجرة، تدفعه إلى الاستهانة بأقدار الناس وكراماتهم. ولمزهم وهمزهم.. يعيبهم بلسانه ويسخر منهم بحركاته. سواء بحكاية حركاتهم وأصواتهم، أو بتحقير صفاتهم وسماتهم.. بالقول والإشارة. بالغمز واللمز. باللفتة الساخرة والحركة الهازئة! وهي صورة لئيمة حقيرة من صور النفوس البشرية حين تخلو من المروءة وتعرى من الإيمان. والإسلام يكره هذه الصورة الهابطة من صور النفوس بحكم ترفعه الأخلاقي. وقد نهى عن السخرية واللمز والعيب في مواضع شتى. إلا أن ذكرها هنا بهذا التشنيع والتقبيح مع الوعيد والتهديد، يوحي بأنه كان يواجه حالة واقعية من بعض المشركين تجاه رسول الله- ﷺ- وتجاه المؤمنين.. فجاء الرد عليها في صورة الردع الشديد، والتهديد الرعيب. وقد وردت روايات بتعيين بعض الشخصيات. ولكنها ليست وثيقة. فنكتفي نحن بما قررناه عنها..) [1]

ومن ثم فلا غرابة في بدء تلك السورة بهذا الوعيد الشديد

فغرض هذه السورة وعيد جماعة من المشركين جعلوا همز المسلمين ولمزهم ضرب من ضروب أذاهم طمعا في أن يلجئهم الملل من أصناف الأذى، إلى الانصراف عن الإسلام والرجوع إلى الشرك.) [2]

السورة الثالثة: سورة المسد.

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ [3]

(يقول تعالى ذكره: خسرت يدا أبي لهب، وخسر هو. وإنما عُنِي بقوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ ﴾ تبّ عمله.

---

(١) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٧٢) .

(٢) االتحرير والتنوير (٣٠ / ٣٣٥-٣٣٦).

(٣) سورة المسد: ١.

وكان بعض أهل العربية يقول: قوله: ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ ﴾: دعاء عليه من الله. وأما قوله: ﴿ وَتَبَّ ﴾ فإنه خبر.) [1]

وقد جاء في معنى قوله: ﴿ تَبَّتْ ﴾

(أقاويل أحدها: التباب الهلاك، ومنه قولهم شابة أم تابة أي هالكة من الهرم، ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴾ [2] أي في هلاك، والذي يقرر ذلك أن الأعرابي لما واقع أهله في نهار رمضان قال: هلكت وأهلكت،[3] ثم إن النبي عليه الصلاة والسلام ما أنكر ذلك، فدل على أنه كان صادقا في ذلك، ولا شك أن العمل إما أن يكون داخلا في الإيمان، أو إن كان داخلا لكنه أضعف أجزائه، فإذا كان بترك العمل حصل الهلاك، ففي حق أبي لهب حصل ترك الاعتقاد والقول والعمل، وحصل وجود الاعتقاد الباطل والقول الباطل والعمل الباطل، فكيف يعقل أن لا يحصل معنى الهلاك، فلهذا قال: تبت.

وثانيها: تبت خسرت، والتباب هو الخسران المفضي إلى الهلاك، ومنه قوله تعالى﴿ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴾ [4] أي تخسير بدليل أنه قال في موضع آخر: ﴿ غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ [5]

وثالثها: تبت خابت، قال ابن عباس: لأنه كان يدفع القوم عنه بقوله: إنه ساحر، فينصرفون عنه قبل لقائه لأنه كان شيخ القبيلة وكان له كالأب فكان لا يتهم، فلما نزلت السورة وسمع بها غضب وأظهر العداوة الشديدة فصار متهما فلم يقبل قوله في الرسول بعد ذلك، فكأنه خاب سعيه وبطل غرضه، ولعله إنما ذكر اليد لأنه كان يضرب بيده على كتف الوافد عليه فيقول: انصرف راشدا فإنه مجنون، فإن المعتاد أن من يصرف إنسانا عن موضع وضع يده على كتفه ودفعه عن ذلك الموضع ورابعها:

---

(١)تفسير الطبري (٢٤ / ٦٧٥).

(٢) سورة غافرمن الآية:٣٧.

(٣) سنن الدارقطني ك: الصيام ب: طلوع الشمس بعد الإفطار ٢٠٣/٣، وقال : تفرد به أبو ثور عن مُعلّى مُعلّى بن منصور عن ابن عيينة بقوله :(وأهلكت) وكلهم ثقات.، والسنن الكبرى للبيهقي ك: الصيام ب: رواية في هذا الحديث لفظة لا يرضاها أصحاب الحديث ٣٨٣/٤.

(٤) سورة هود من الآية:١٠١.

(٥) سورة هود من الآية:٦٣.

عن عطاء تبت أي غلبت لأنه كان يعتقد أن يده هي العليا وأنه يخرجه من مكة ويذله ويغلب عليه وخامسها عن ابن وثاب صفرت يداه على كل خير.) [١]

ويقول الأستاذ / سيد قطب:

(أبو لهب– (واسمه عبد العزى بن عبد المطلب) هو عم النبي– ﷺ– وإنما سمي أبو لهب لإشراق وجهه، وكان هو وامرأته «أم جميل» من أشد الناس إيذاء لرسول الله– ﷺ– وللدعوة التي جاء بها..

هذا نموذج من نماذج كيد أبي لهب للدعوة وللرسول ﷺ، وكانت زوجته أم جميل في عونه في هذه الحملة الدائبة الظالمة. (وهي أروى بنت حرب بن أمية أخت أبي سفيان) .

ولقد اتخذ أبو لهب موقفه هذا من رسول الله– ﷺ– منذ اليوم الأول للدعوة. أخرج البخاري– بإسناده– عن ابن عباس، أن النبي– ﷺ– خرج إلى البطحاء، فصعد الجبل فنادى:

«يا صباحاه» فاجتمعت إليه قريش، فقال: أرأيتم إن حدثتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم؟ أكنتم مصدقي؟

قالوا: نعم. قال: «فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد» . فقال أبو لهب. ألهذا جمعتنا؟ تبا لك. فأنزل الله «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ... » إلخ. [٢] وفي رواية فقام ينفض يديه وهو يقول: تبا لك سائر اليوم! ألهذا جمعتنا؟! فأنزل الله السورة.

نزلت هذه السورة ترد على هذه الحرب المعلنة من أبي لهب وامرأته. وتولى الله– سبحانه– عن رسوله– ﷺ– أمر المعركة! «تَبَّتْ يَدا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ» .. والتباب الهلاك والبوار والقطع. «وتَبَّتْ» الأولى دعاء. «وَتَبَّ» الثانية تقرير لوقوع هذا الدعاء. ففي آية قصيرة واحدة في مطلع السورة تصدر الدعوة وتتحقق، وتنتهي المعركة ويسدل الستار!

فأما الذي يتلو آية المطلع فهو تقرير ووصف لما كان.) [٣]

ويشير الطاهر ابن عاشور إلى وجه البراعة هنا ببيان أغراض تلك السورة فيقول:

---

(١) تفسير الرازي (٣٢ / ٣٤٩).

(٢) البخاري في صحيحه ك: التفسير ب قوله ك إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ١٢٢/٦، وب قوله سيصلى نارا ذات لهب ١٨٠/٦.

(٣) في ظلال القرآن (٦ / ٣٩٩٩-٤٠٠٠).

(أغراضها زجر أبي لهب على قوله: «تبا لك ألهذا جمعتنا؟ ووعيده على ذلك، ووعيد امرأته على انتصارها لزوجها، وبغضها النبي ﷺ.
وافتتاح السورة بالتباب مشعر بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد، فذلك براعة استهلال مثل ما تفتتح أشعار الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم) [1]

(١) التحرير والتنوير (٣٠ / ٦٠٠).

المطلب العاشر: السور المفتتحة بالتعليل[1] في لإيلاف قريش. [1]

(١) (التَّعْلِيل) (عِنْد أهل المناظرة) تَبْيِين عِلّة الشَّيْء وَمَا يسْتَدلّ بِهِ من الْعلَّة على الْمَعْلُول. المعجم الوسيط (٢ / ٦٢٣) .

وجاء في تعريفه أيضا: أن يريد المتكلم ذكر حكم واقع، أو متوقع فيقدم قبل ذكره علة وقوعه، لكون رتبة العلة أن تقدم على المعلول، كقوله سبحانه: " لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم " فسبق الكتاب من الله علة في النجاة من العذاب.

وكقوله تعالى: " ولولا رهطك لرجمناك "، فوجود رهطه علة في سلامته من قومه، وكقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " لولا أخاف أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة " فخوف المشقة على الأمة هو العلة في التخفيف عنهم من الأمر بالسواك عند كل صلاة. تحرير االتحبير في صناعة الشعر والنثر ص:٣٠٩)

وقد جاءت السور المفتتحة بالتعليل في القرآن الكريم وحرف التعليل المستخدم فيها اللام .

و(أشهر حروف الجر التي تستعمل للتعليل في اللغة هو حرف "اللام" كقولنا: "أنصتُّ للفهم" "ونمتُ للراحة"، ومن حروف التعليل أيضا على قلة: "من، في" كقول القرآن: {وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ} وقول الرسول: "دخلت امرأةٌ النارَ من جَرَّاءِ هرّة حبستها فلا هي أطعمتها ولا هي تركتها تُرَمْرِمُ من خشاش الأرض حتى ماتتْ هَزْلا".صحيح مسلم ج٤ ص.٢٢٣

إذا علم ذلك، فإن الاسم إذا وقع علة لغيره، ولكن لم يستوف الشروط الباقية للمفعول لأجله –كلها أو بعضها– ففي هذه الحالة يجب جره بحرف التعليل، وذلك كقولك: "أحضرتُ الكتابَ لصديقي" وقولك: "بذلت جهدًا لفَتْحِ الشُّباك المغلق" وقولك: "أجتهدُ اليومَ لبلُوغِ المجد غدًا".) النحو المصفى (ص: ٤٤٥-٤٤٦)

(اللَّام) هُوَ الْحَرْف الثَّالِث وَالْعشْرُونَ من حُرُوف الهجاء وَهُوَ مجهور متوسط ومخرجه من طرف اللِّسَان ملتقيا بأصول الثنايا والرباعيات قَرِيبا من مخرج النُّون ومن معانيها: التَّعْلِيل كَمَا فِي التَّنْزِيل الْعَزِيز {لإِيلَافِ قُرَيْش إيلافهم رحْلَة الشتَاء والصيف} المعجم الوسيط (٢ / ٨٠٩) .

وَأما اللَّام فلهَا أَرْبَعَة أَقسَام أَحدهَا:

اللَّام التعليلية نَحْو {وأنزلنا إِلَيْك الذّكر لتبين للنَّاس} وَمِنْه {إِنَّا فتحنا لَك فتحا مُبينًا ليغفر لَك الله مَا تقدم من ذَنْبك وَمَا تَأَخَّر}

فان قلت لَيْسَ فتح مَكَّة عِلّة للمغفرة

قلت هُوَ كَمَا ذكرت وَلكنه لم يَجْعَل عِلّة لَهَا وانما جعل عِلّة لِاجْتِمَاع الْأُمُور الْأَرْبَعَة للنَّبِي صلى الله عَلَيْهِ وَسلم وَهِي الْمَغْفِرَة وإتمام النِّعْمَة وَالْهِدَايَة الى الصِّرَاط الْمُسْتَقيم وَحُصُول النَّصْر الْعَزِيز وَلَا شكّ فِي أَن اجتماعها لَهُ صلى الله عَلَيْهِ وَسلم حصل حِين فتح الله تَعَالَى مَكَّة عَلَيْهِ

وانما مثلت بِهَذِهِ الْآيَة لِأَنَّهَا قد يخفي التَّعْلِيل فِيهَا على من لم يَتَأَمَّلهَا =

= الثَّانِيَة لَام الْعَاقِبَة وَتسَمى أَيْضا لَام الصيرورة وَلَام الْمَآل وَهِي الَّتِي يكون مَا بعْدهَا نقيضا لمقْتَضى مَا قبلهَا نَحْو {فالتقطه آل فِرْعَوْن ليَكُون لَهُم عدوا وحزنا} فَإِن التقاطهم لَهُ انما كَانَ لرأفتهم عَلَيْهِ وَلما ألْقى

﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾ [٢]

قوله: {لِإِيلاَفِ قُرَيْشٍ} : في متعلَّقِ هذه اللامِ، أوجهٌ

أحدُها: أنه ما في السورةِ قبلَها مِنْ قولِه ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [٣] . قال الزمخشري: «وهذا بمنزلةِ التَّضْمينِ في الشِّعْرِ» وهو أَنْ يتعلَّقَ معنى البيتِ بالذي قبلَه تَعَلُّقاً لا يَصِحُّ إلَّا به، وهما في مصحفِ أُبَي سورةٌ واحدٍ بلا فَصْلٍ. وعن عُمَرَ أنه قرأهما في الثانية من صلاة المغرب وفي الأولى بسورةِ «والتين» انتهى. [٤] وإلى هذا ذهبَ أبو الحسنِ الأخفشُ إلاَّ أنَّ الحوفيَّ قال: «ورَدَّ هذا القولَ جماعةٌ: بأنَّه لو كان كذا لكان» لإيلافِ «بعضَ سورةٍ» ألم تَرَ «وفي إجماعِ الجميعِ على الفَصْلِ بينهما ما يدلُّ على عَدَمِ ذلك»

الثاني: أنَّه مضمرٌ تقديرُه: فَعَلْنا ذلك، أي: إهلاكَ أصحابِ الفيل لإيلافِ قريش. وقيل: تقديرُه اعْجَبوا.

الثالث: أنه قولُه «فَلْيَعْبُدوا» . [٥]

وقال الأخفش: {لإِيلاَفِ قُرَيْشٍ} اي: فَعَلَ ذلِكَ لايلافِ قُرَيْشٍ لتألّف ثم ابدل فقال {إِيلاَفِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَآءِ وَالصَّيْفِ} لأنها من "أَلَفَ"[٦]

الله تَعَالَى عَلَيْهِ من الْمحبَّة فَلَا يرَاهُ أحد إِلَّا أحبه فقصدوا أَن يصيروه قُرَّة عين لَهُم فآل بهم الْأَمر الى أَن صَار عدوا لَهُم وحزنا

الثَّالِثَة اللَّام الزَّائِدَة وَهِي الْآتِيَة بعد فعل مُتَعَدٍّ نَحْو {يُرِيد الله ليبين لكم}

{إِنَّمَا يُرِيد الله ليذْهب عَنْكُم الرجس} {وأمرنا لنسلم لرب الْعَالمين} فَهَذِهِ الْأَقْسَام الثَّلَاثَة يجوز لَك إِظْهَار أَن بعدهن قَالَ الله تَعَالَى {وَأمرت لِأَن أكون}

الرَّابِعَة لَام الْجُحُود وَهِي الْآتِيَة بعد كَون مَاض منفى كَقَوْل الله تَعَالَى {مَا كَانَ الله ليذر الْمُؤمنِينَ على مَا أَنْتُم عَلَيْهِ} {وَمَا كَانَ الله ليطلعكم على الْغَيْب} وَهَذِه يجب إِضْمَار أَن بعْدهَا

وَأما كي فَفِي نَحْو جئْتُك كي تكرمني اذا قدرتها تعليلية بِمَنْزِلَة اللَّام وَالتَّقْدِير جئْتُك كي أَن تكرمني وَلَا يجوز التَّصْرِيح بِأَن بعْدهَا الا فِي الشّعْر خلافًا للكوفيين. شرح شذور الذهب لابن هشام (ص: ٣٨٣-٣٨٤).

(١) الإتقان للسيوطي ٣/٣٦٣.

(٢) سورة قريش:١.

(٣) سورة الفيل:٥.

(٤) الكشاف ٤/٨٠١.

(٥) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (١١ / ١١١).

(٦) معانى القرآن للأخفش (٢ / ٥٨٥)

وبراعة الاستهلال تظهر في بيان أغراضها وأهم (أغراضها أمر قريش بتوحيد الله تعالى بالربوبية تذكيرا لهم بنعمة أن الله مكن لهم السير في الأرض للتجارة برحلتي الشتاء والصيف لا يخشون عاديا يعدو عليهم.

وبأنه أمنهم من المجاعات وأمنهم من المخاوف لما وقر في نفوس العرب من حرمتهم لأنهم سكان الحرم وعمار الكعبة.

وبما ألهم الناس من جلب الميرة إليهم من الآفاق المجاورة كبلاد الحبشة.

ورد القبائل فلا يغير على بلدهم أحد قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴾ [1] فأكسبهم ذلك مهابة في نفوس الناس وعطفا منهم.

وهذا افتتاح مبدع إذ كان بمجرور بلام التعليل وليس بإثره بالقرب ما يصلح للتعليق به ففيه تشويق إلى متعلق هذا المجرور.

وزاده الطول تشويقا إذ فصل بينه وبين متعلقه (بالفتح) بخمس كلمات، فيتعلق لإيلاف بقوله: ليعبدوا.

وتقديم هذا المجرور للاهتمام به إذ هو من أسباب أمرهم بعبادة الله التي أعرضوا عنها بعبادة الأصنام والمجرور متعلق بفعل «ليعبدوا» .

وأصل نظم الكلام: لتعبد قريش رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف لإيلافهم رحلة الشتاء والصيف، فلما اقتضى قصد الاهتمام بالمعمول تقديمه على عامله، تولد من تقديمه معنى جعله شرطا لعامله فاقترن عامله بالفاء التي هي من شأن جواب الشرط، فالفاء الداخلة في قوله: ليعبدوا مؤذنة بأن ما قبلها في قوة الشرط، أي مؤذنة بأن تقديم المعمول مقصود به اهتمام خاص وعناية قوية هي عناية المشترط بشرطه، وتعليق بقية كلامه عليه لما ينتظره من جوابه، وهذا أسلوب من الإيجاز بديع.) [2]

وقال صاحب الموسوعة القرآنية:

(التعليل فى: لِإِيلافِ قُرَيْشٍ.

ومن البلاغة حسن الابتداء، وهو أن يتأنق فى أول الكلام، لأنه أول ما يقرع السمع، فإن كان محرّرا أقبل السامع على الكلام ووعاه وإلا أعرض عنه، ولو كان الباقى فى

---

(١) سورة العنكبوت :٦٧.

(٢)التحرير والتنوير (٣٠ / ٥٥٤-٥٥٥)

نهاية الحسن فينبغى أن يؤتى فيه بأعذب لفظ وأجز له وأرقه وأسلسه وأحسنه نظما وسبكا، وأصحه معنى، وأوضحه وأحلاه من التعقيد والتقديم والتأخير الملبس، أو الذى لا يناسب.

وقد أتت فواتح السور على أحسن الوجوه وأبلغها وأكملها، كالتحميدات، وحروف الهجاء والنداء، وغير ذلك. [1]

(١) الموسوعة القرآنية للإبياري (٢ / ٢٧٩)

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين وبعد

فإن فواتح السور كما سماها بعض العلماء قديما ، أو براعة الاستهلال كما يطلق بعض المحدَثين حازت أعلى درجات الفصاحة ، وبتتبع سور القرآن الكريم سورة سورة ظهر ذلك جليا ، وقد جمعت تلك الفواتح أنواعا عشرة

الافتتاح بالثناء عليه تعالى.

الافتتاح بحروف التهجي .

و السور المفتتحة بالنداء.

و السور المفتتحة بالجمل الخبرية.

و السور المفتتحة بالقسم.

و السور المفتتحة بالشرط.

و السور المفتتحة بالْأَمْرُ.

و السور المفتتحة بالِاسْتِفْهَامُ .

و السور المفتتحة بالدُّعَاءُ.

و السور المفتتحة بالتعليل.

وذلك التنوع حتى لايحس القاريء بالملل من ناحية ومن ناحية أخرى فإن التنوع يشير إلى براعة المتحدث وعلو درجة كلامه فإن الكلام إذا جاء على نسق واحد لم يترك في النفس ما يتركه التنوع والتعدد كما أن القرآن لا يخاطب فئة واحدة إنما هو رسالة عامة عالمية .

وهذه الأساليب التي افتتحت بها السور كالأصول العامة لخطابات الناس.

وبعد فلا يزال هذا الكتاب مليئا بالحكم والأسرار ينهل منه كل الناس في كل وقت على اختلاف ثقافاتهم وعلومهم فسبحان منزله الذي أحكمه وأسأل الله سبحانه أن يرزقنا جميعا الإخلاص في القول والعمل والسر والعلن وأن يكتب لأعمالنا القبول في الدنيا والآخرة

وصل اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وذريته الطيبين الطاهرين والحمد لله رب العالمين.

المراجع

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم المؤلف: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
٢- أساليب الأمر والنهي في القرآن الكريم وأسرارها البلاغية يوسف عبدالله الأنصاري .رسالة ماجستير في جامعة أم القرى مكة المكرمة ١٤١٠هـ١٩٩٠م
٣- أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين بن محمد الشنقيطي ط: دار الفكر للطباعة والنشر بيروت لبنان ١٤١٥هـ ١٩٩٥م.
٤- الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع المؤلف: شمس الدين، محمد بن أحمد الخطيب الشربيني الشافعي (المتوفى: ٩٧٧هـ) المحقق: مكتب البحوث والدراسات - دار الفكر الناشر: دار الفكر - بيروت
٥- أنوار التنزيل وأسرار التأويل المؤلف: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (المتوفى: ٦٨٥هـ)
المحقق: محمد عبد الرحمن المرعشلي الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٨ هـ
٦- أنوار الربيع في أنواع البديع علي صدر الدين بن معصوم المدني تحقيق : شاكر هادي شكر ،النجف الأشرف ١٣٨٨هـ ١٩٦٨م
٧- الإيضاح للخطيب القزويني .تحقيق جماعة من الأزهر الشريف القاهرة .
٨- بحر العلوم المؤلف: أبو الليث نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمرقندي (المتوفى: ٣٧٣هـ)
٩- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد المؤلف: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي الصوفي (المتوفى: ١٢٢٤هـ) المحقق: أحمد عبد الله القرشي رسلان الناشر: الدكتور حسن عباس زكي – القاهرة الطبعة: ١٤١٩ هـ
١٠- البديع لابن المعتز ط: دار الجيل طك الأولى ١٤١٠هـ ١٩٩٠م.
١١- البرهان في توجيه متشابه القرآن لما فيه من الحجة والبيان لأبي القاسم محمود بن حمزة الكرماني ط:الأزهر الشريف.
١٢- البرهان في علوم القرآن المؤلف: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (المتوفى: ٧٩٤هـ) المحقق: محمد أبو الفضل إبراهيم الطبعة: الأولى، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ مالناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه
١٣- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز المؤلف: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: ٨١٧هـ) المحقق: محمد علي النجار

الناشر: المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة.
١٤- بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة المؤلف: عبد المتعال الصعيدي (المتوفى: ١٣٩١هـ) الناشر: مكتبة الآداب الطبعة: السابعة عشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م
١٥- البلاغة العربية د/ عبدالرحمن حسن حبنكة الميداني ط: دار القلم دمشق الطبعة الأولى ١٤١٦هـ ١٩٩٦م.
١٦- البيان والتبيين للجاحظ تحقيق عبدالسلام هارون القاهرة ١٣٦٧هـ١٩٤٨م.
١٧- تاج العروس من جواهر القاموس المؤلف: محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: ١٢٠٥هـ) المحقق: مجموعة من المحققين الناشر: دار الهداية
١٨- تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن لعبد العظيم بن الواحد بن ظافر ابن أبي الإصبع العدواني، البغدادي ثم المصري (المتوفى: ٦٥٤هـ)
تقديم وتحقيق: الدكتور حفني محمد شرف الناشر: الجمهورية العربية المتحدة - المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - لجنة إحياء التراث الإسلامي
١٩- التحرير والتنوير للطاهر ابن عاشور ط: دار سحنون للنشر والتوزيع تونس ١٩٩٧م.
٢٠- تحفة الحبيب على شرح الخطيب = حاشية البجيرمي على الخطيب المؤلف: سليمان بن محمد بن عمر البُجَيْرَمِيّ المصري الشافعي (المتوفى: ١٢٢١هـ) الناشر: دار الفكر الطبعة: بدون طبعة تاريخ النشر: ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م
٢١- التلخيص في علوم البلاغة لجلال الدين للقزويني تحقيق عبدالرحمن البرقوقي ط: الثانية القاهرة ١٣٥٠هـ١٩٣٢م.
٢٢- تفسير البحر المحيط لأبي حيان ط: دار الكتب العلمية .
٢٣- التفسير البياني للقرآن الكريم المؤلف: عائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (المتوفى: ١٤١٩هـ) دار النشر: دار المعارف – القاهرة الطبعة: السابعة
٢٤- تفسير جزء عم المؤلف: محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١هـ) إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان الناشر: دار الثريا للنشر والتوزيع، الرياض الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م
٢٥- تفسير السراج المنير للخطيب الشربيني ط:دار الكتب العلمية بيروت.
٢٦- تفسير الشعراوي – الخواطر المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: ١٤١٨هـ) الناشر: مطابع أخبار اليوم

٢٧- تفسير القرآن العزيز المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عيسى بن محمد المري، الإلبيري المعروف بابن أبي زَمَنِين المالكي (المتوفى: ٣٩٩هـ) المحقق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة - محمد بن مصطفى الكنز الناشر: الفاروق الحديثة - مصر / القاهرة
الطبعة: الأولى، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م
٢٨- تفسير القرآن العظيم المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ) المحقق: سامي بن محمد سلامة الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م
٢٩- التفسير الكبير للفخر الرازي. ط: دار الكتب العلمية بيروت ١٤٢١هـ ٢٠٠٠م.
٣٠- تفسير المراغي المؤلف: أحمد بن مصطفى المراغي (المتوفى: ١٣٧١هـ) الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي وأولاده بمصر الطبعة: الأولى، ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م
٣١- تفسير النسفي (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) المؤلف: أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: ٧١٠هـ)
حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م
٣٢- التفسير الوسيط للقرآن الكريم المؤلف د: محمد سيد طنطاوي الناشر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الفجالة – القاهرة الطبعة: الأولى.
٣٣- توضيح المقاصد والمسالك بشرح ألفية ابن مالك لأبي محمد بدر الدين حسن بن قاسم بن عبدالله بن علي المرادي تحقيق د/ عبدالرحمن علي سليمان ط: دار الفكر العربي ط: الأولى ١٤٢٨هـ٢٠٠٨م.
٣٤- تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المؤلف: عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: ١٣٧٦هـ) المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى ١٤٢٠هـ -٢٠٠٠ م
٣٥- تفسير مجاهد المؤلف: أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ) المحقق: الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل الناشر: دار الفكر الإسلامي الحديثة، مصر الطبعة: الأولى، ١٤١٠ هـ - ١٩٨٩ م
٣٦- جامع البيان في تأويل القرآن المؤلف: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ) المحقق: أحمد محمد شاكر الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م
٣٧- جامع الترمذي تحقيق الشيخ أحمد شاكر وآخرين ط: دار إحياء التراث العربي بيروت.

٣٨- الجامع الصحيح سنن الترمذي تحقيق العلامة أحمد شاكر ط: دار إحياء التراث العربي بيروت.
٣٩- الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي المؤلف : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى : ٦٧١هـ) تحقيق : أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش الناشر : دار الكتب المصرية – القاهرة الطبعة : الثانية ، ١٣٨٤هـ ١٩٦٤ م
٤٠- خزانة الأدب وغاية الأرب لابن حجة الحموي تحقيق عصام شقيو ط: دار ومكتبة الهلال بيروت .
٤١- الخواطر السوانح في أسرار الفواتح لابن أبي الإصبع المصري تحقيق د/ حنفي محمد شرف طبعة مصر ١٩٦٠م.
٤٢- الدر المصون في علوم الكتاب المكنون المؤلف: أبو العباس، شهاب الدين، أحمد بن يوسف بن عبد الدائم المعروف بالسمين الحلبي (المتوفى: ٧٥٦هـ) المحقق: الدكتور أحمد محمد الخراط الناشر: دار القلم، دمشق
٤٣- الدر المنثور في التفسير بالمأثور المؤلف: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) الناشر: دار الفكر – بيروت
٤٤- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: ١٢٧٠هـ) المحقق: علي عبد الباري عطية الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١٥ هـ
٤٥- زاد المسير في علم التفسير المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٤٦- سنن الدارقطني المؤلف: أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي الدارقطني (المتوفى: ٣٨٥هـ) حققه وضبط نصه وعلق عليه: شعيب الارنؤوط، حسن عبد المنعم شلبي، عبد اللطيف حرز الله، أحمد برهوم الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م
٤٧- السنن الكبرى المؤلف: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ) المحقق: محمد عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان الطبعة: الثالثة، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م
٤٨- شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب المؤلف: عبد الله بن يوسف بن أحمد بن عبد الله ابن يوسف، أبو محمد، جمال الدين، ابن هشام (المتوفى: ٧٦١هـ) المحقق: عبد الغني الدقر الناشر: الشركة المتحدة للتوزيع - سوريا
٤٩- صحيح البخاري ط: دار ابن كثير اليمامة بيروت ط: الثالثة ١٤٠٧هـ ١٩٨٧م.

٥٠- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية المؤلف: أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي (المتوفى: ٣٩٣هـ)تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار الناشر: دار العلم للملايين – بيروت الطبعة: الرابعة ١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م
٥١- (صحيح مسلم) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المؤلف: مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ) المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي الناشر: دار إحياء التراث العربي.
٥٢- علم اللغة العربية د/ محمود فهمي حجازي ط: دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع.
٥٣- غرائب القرآن ورغائب الفرقان المؤلف: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (المتوفى: ٨٥٠هـ)
المحقق: الشيخ زكريا عميرات الناشر: دار الكتب العلميه – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٦ هـ
٥٤- فتح الباري شرح صحيح البخاري المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي الناشر: دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩.
٥٥- الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية المؤلف سليمان بن عمر العجيلي ط: دار إحياء الكتب العربية فيصل عيسى البابي الحلبي.
٥٦- في ظلال القرآن المؤلف: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ) الناشر: دار الشروق - بيروت- القاهرة
الطبعة: السابعة عشر - ١٤١٢ هـ
٥٧- قانون البلاغة لأبي طاهر محمد حيدر البغدادي مطبوع في رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ط: الرابعة القاهرة ١٣٧٤هـ١٩٥٤م
٥٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل المؤلف: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: ٥٣٨هـ) الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٠٧ هـ.
٥٩- الكشف والبيان عن تفسير القرآن المؤلف: أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ) تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور مراجعة وتدقيق: الأستاذ نظير الساعدي الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٢٢، هـ - ٢٠٠٢ م
٦٠- كفاية الأخيار في حل غاية الإختصار المؤلف: أبو بكر بن محمد بن عبد المؤمن بن حريز بن معلى الحسيني الحصني، تقي الدين الشافعي (المتوفى: ٨٢٩هـ) المحقق: علي عبد الحميد بلطجي ومحمد وهبي سليمان الناشر: دار الخير – دمشق الطبعة: الأولى، ١٩٩٤

٦١- الكليات ـ لأبى البقاء الكفومي تحقيق أ/ عدنان درويش ومحمد المصري ط: مؤسسة الرسالة بيروت ١٤١٩هـ ١٩٩٨م.
٦٢- لسان العرب المؤلف: محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعى الإفريقى (المتوفى: ٧١١هـ) الناشر: دار صادر – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤١٤ هـ
٦٣- المجتبى من السنن = السنن الصغرى للنسائي المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ) تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة الناشر: مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب الطبعة: الثانية، ١٤٠٦ - ١٩٨٦
٦٤- محاسن التأويل للقاسمي تحقيق أ/ محمد فؤاد عبد الباقي ط: الأولي ١٣٧٦هـ١٩٥٧م، تحقيق أ/ محمد باسل عيون السود ط: دار الكتب العلمية بيروت ط: الأولى: ١٤١٨هـ.
٦٥- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز المؤلف: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ) المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ
٦٦- المخصص ـ لابن سيده تحقيق أ/ خليل إبراهيم جفال ط: الأولي دار إحياء التراث العربي بيروت ١٤١٧ هـ ١٩٩٦م.
٦٧- المستدرك على الصحيحين المؤلف: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (المتوفى: ٤٠٥هـ) تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت الطبعة: الأولى، ١٤١١ - ١٩٩٠
٦٨- مسند الإمام أحمد بن حنبل المؤلف: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م
٦٩-مسند الإمام الشافعي أبي عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ)
رتبه على الأبواب الفقهية: محمد عابد السندي
عرف للكتاب وترجم للمؤلف: محمد زاهد بن الحسن الكوثري
تولى نشره وتصحيحه ومراجعة أصوله على نسختين مخطوطتين: السيد يوسف علي الزواوي الحسني، السيد عزت العطار الحسيني
الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان
عام النشر: ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م.

٧٠- معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي المؤلف : محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (المتوفى : ٥١٠هـ) المحقق : عبد الرزاق المهدي الناشر : دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة : الأولى ، ١٤٢٠ هـ
٧١- معانى القرآن للأخفش [معتزلى] المؤلف: أبو الحسن المجاشعي بالولاء، البلخي ثم البصري، المعروف بالأخفش الأوسط (المتوفى: ٢١٥هـ) تحقيق: الدكتورة هدى محمود قراعة الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة الطبعة: الأولى، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م
٧٢- معاني القرآن وإعرابه المؤلف: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (المتوفى: ٣١١هـ) الناشر: عالم الكتب - بيروت
الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٧٣- معترك الأقران في إعجاز القرآن، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران) عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ) دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م
٧٤-معجم الفروق اللغوية المؤلف: أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو ٣٩٥هـ) المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ «قم»الطبعة: الأولى، ١٤١٢هـ
٧٥- المعجم الوسيط المؤلف: مجمع اللغة العربية بالقاهرة (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار) الناشر: دار الدعوة
٧٦- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير المؤلف: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ) الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت الطبعة: الثالثة - ١٤٢٠ هـ.
٧٧- المفردات في غريب القرآن المؤلف: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: ٥٠٢هـ) المحقق: صفوان عدنان الداودي الناشر: دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت الطبعة: الأولى - ١٤١٢ هـ
٧٨- الملل والنحل لأبي الفتح محمد بن عبدالكريم بن أبي بكر أحمد الشهرستاني ط: مؤسسة الحلبي.
٧٩- مناهل العرفان في علوم القرآن للأستاذ / محمد عبدالعظيم الزرقاني مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه الطبعة الثالثة
٨٠- الموسوعة القرآنية المؤلف: إبراهيم بن إسماعيل الأبياري (المتوفى: ١٤١٤هـ) الناشر: مؤسسة سجل العرب الطبعة: ١٤٠٥ هـ.
٨١- نحو تفسير موضوعي للشيخ محمد الغزالي ط: دار الشروق القاهرة.
٨٢- النحو المصفى المؤلف: محمد عيد الناشر: مكتبة الشباب

٨٣- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور المؤلف: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: ٨٨٥هـ) الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة
٨٤- النكت والعيون المؤلف: أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (المتوفى: ٤٥٠هـ) المحقق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت / لبنان
٨٥-الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره، وأحكامه، وجمل من فنون علومه المؤلف : أبو محمد مكي بن أبي طالب حَمّوش بن محمد بن مختار القيسي القيرواني ثم الأندلسي القرطبي المالكي (المتوفى : ٤٣٧هـ) المحقق : مجموعة رسائل جامعية بكلية الدراسات العليا والبحث العلمي - جامعة الشارقة ، بإشراف أ.د : الشاهد البوشيخي الناشر : مجموعة بحوث الكتاب والسنة - كلية الشريعة والدراسات الإسلامية - جامعة الشارقة الطبعة : الأولى ، ١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م
٨٦- الوافي في العروض والقوافي للخطيب التبريزي تحقيق د/ فخر الدين قباوة وعمر يحى ط: الثانية دمشق ١٣٩٥هـ١٩٧٥م.

فهرس الموضوعات

المقدمة ٧٧٥
التمهيد ٧٧٧

المطلب الأول:
السور المفتتحة بالثناء على الله تعالى ٧٨٠

المطلب الثاني:
السور المفتتحة بحروف التهجي ٨٠١

المطلب الثالث:
السور المفتتحة بالنداء ٨٠٧

المطلب الرابع:
السور المفتتحة بالجمل الخبرية ٨٢٠

المطلب الخامس:
السور المفتتحة بالقسم ٨٥٥

المطلب السادس:
السور المفتتحة بالشرط ٨٨٠

المطلب السابع:
السور المفتتحة بالأمر ٨٨٨

المطلب الثامن:
السور المفتتحة بالاستفهام ٨٩٧

المطلب التاسع:
السور المفتتحة بالدعاء ٩٠٩

المطلب العاشر:
السور المفتتحة بالتعليل ٩١٦
الخاتمة ٩٢٠
المراجع ٩٢١
الفهرس ٩٢٩